آر أوستن فريمان

حتى آخر فلس

انتقام عالِم

ترجمة عبد الفتاح عبد الله

حتى آخر فلس

انتقام عالِم

تأليف
آر أوستن فريمان

ترجمة
عبد الفتاح عبد الله

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد

هنداوي

حتى آخر فلس

آر أوستن فريمان

The Uttermost Farthing

R. Austin Freeman

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٧٢٣ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩١٤.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- الباعث	٧
٢- الهيكل العظمي رقم ١	٢٣
٣- أتباع الخادمة	٤١
٤- هدايا الصُّدفة	٥٧
٥- نواتج فرعية	٧٧
٦- أثرُ الأفعى	٩٥
٧- حتى آخر فلس	١٢٣

الفصل الأول

الباعث

ببعض التردُّد، سأُشاركم أخيرًا الحكايةَ الغريبة التي أمدَّني بها صديقي الراحل هامفري تشالونر. ذلك أنَّ رؤية الراوي غير عادية بالمرَّة، ومعاييره الأخلاقية مختلفة عن المعايير الراهنة والمعتادة، حتى إنَّ سيرة حياته ووقائع أفعاله قد لا تُخفِقان وحسب في اكتساب تعاطف القرَّاء معه، بل حتى إنهما أيضًا يمكن أن تُثيرا في نفوسهم بعضَ النفور الأخلاقي. لكن مَن كانوا يعرفونه ويعرفون سخاءه مع الفقراء، وخاصة أولئك الذين يُجابهون منهم مِحنًا غير مُستحقَّة، سيُمثلون ادعاءً مضادًّا تجاه قسوته وحتى ضراوته تجاه أعداء المجتمع.

كان هامفري تشالونر عالمًا جليلًا أفسدته الثروة المفاجئة. حين عرفته كان قد أصبح مجرَّد هاوٍ؛ أو على الأقل هذا ما كنتُ أظنُّ عنه في ذلك الوقت، رغم أنَّ ما حدث وما تكشَّف بعد ذلك جعلاني أراه بطريقةٍ مُغايرة تمامًا. كان يتمتَّع بشيءٍ من الشهرة كعالِم أنثروبولوجيا جنائية، وكان فيما مضى يشتهر بكونه عالِم تشريح مقارَن، لكن حين تعرَّفت إليه بدا مُهتمًّا، على نحوٍ رئيسي، بإضافة المزيد والمزيد من العيِّنات إلى متحفه الخاص. تلك المجموعة التي لم أستطِع قطُّ فهْمَها. فقد كانت تتألَّف في الغالِب من هياكلَ عظمية لبشر وثدييات أخرى، وكانت جميعها تُمثِّل انحرافًا صغيرًا عن المألوف؛ لكنني لم أستطِع فهْمَ الغاية منها — وذلك حتى وفاته؛ وحينها، في واقع الأمر، كان ما تكشَّف لي أمرًا مذهلًا بحق.

تعرَّفت في بداية الأمر إلى تشالونر بصفتي المِهَنية. كان يَستشيرني بشأن بعض الاضطرابات والاعتلالات الطفيفة فراقَ كلٌّ منَّا للآخر. وكان هو رجلًا مثقفًا، وقد تداخل عِلمُه مع تخصُّصي؛ لذا كان بيننا الكثير من الأشياء المشتركة. كما أثارت شخصيته اهتمامي

بقوة. إذ كان يُثير في نفسي انطباعًا بأنَّه رجل نشيط وودود وذكي بطبيعته، وأنَّ كمدًا عظيمًا أتلف حياته. كان الرجل في أغلب الوقت حزينًا وذا أسلوب جادٍّ، لكنه كان يكشف عن لمحاتٍ من روح دعابة تتميز بالتجهُّم والغرابة التي كانت تُمثِّل مفاجأةً سارَّة، مما يُظهر كيف كانت أحواله من قبل، وكيف أنَّه ما زال يتمتَّع ربما ببعض ذلك، لولا تلك المأساة التي كان يُشير إليها في بعض الأحيان. وكانت رقَّة فؤاده الشاملة تتميز بالدَّماثة والتعاطف والسخاء، لكن شابَها استثناءٌ واحد مُثير للفضول: كان سلوكه تجاه مَن اعتادوا مخالفةَ القانون يتميَّز بالانتقام والشراسة.

ولم تكن أحواله الصحية مطمئنةً عندما ذهبت لقضاء إجازة الخريف. لم يشتكِ الرجل شيئًا، بل إنَّه قال إنَّه على ما يُرام؛ لكنَّ تغييرًا مُحددًا ومبهمًا في مظهره جعلني قلِقًا بعض الشيء. لم أحدِّثه بشيءٍ عن الأمر، وإنما طلبتُ منه فقط أن يُبقيني مطلعًا على حالته أثناء غيابي، لكنني غادرتُ وأنا قلقٌ عليه.

من شأن الأحوال في المجتمع اللندني أنْ تُمكِّن المُستشارين من أخذِ إجازة مُدتها جيِّدة إلى حدٍّ بعيد. فغبت ستة أسابيع، وحين عُدتُ وعرَّجت على تشالونر، أصابتني الصدمة لِما رأيته. لم يكن هناك الآن أدنى شكٍّ بشأن خطورة حالته. بدا أنَّ رأسه قد تضاعف حجمُه تقريبًا. وكان وجهه مُتورِّمًا، وصارت ملامحه غليظة، وأصاب الانتفاخ جفنَيه وجحظت عيناه. وقد وقف الرجل يتنفَّس بصعوبة من الجهد الذي بذله في اجتياز الغرفة ومدَّ يدًا ليسلِّم عليَّ كان من الواضح أنَّها منتفخة من الورم.

وقال بابتسامة غريبة مشوَّهة: «حسنًا، أخبرني يا وارتون، كيف تجِدُني؟ ألا تظنُّ أني بصحةٍ جيدة؟ بحقِّ السماء، إنني أنمو كيقطينة! لقد غيَّرت حجم ياقات قمصاني ثلاث مرات في غضون شهر، وها هي ذي الياقات الجديدة قد صارت ضيقة جدًّا بالفعل.» وضحِك تشالونر — كما تحدَّث — بصوتٍ غليظ ومكتوم، وحاولت أنا الابتسام إلى حدٍّ ما كردِّ فعلٍ على التشوُّه الشنيع في وجهه.

وأكمل الرجل حديثه بنبرةٍ مرحة وبابتسامة مريعة أخرى: «يبدو أنَّك لا تُحب التجديد يا صغيري. لا يروق لكَ ما طرأ على صورتي التقليدية من وهنٍ، أليس كذلك؟ في الواقع، أنا أقرُّ بأنَّ ما طرأ ليس لطيفًا، لكن، فليباركنا الله، ما أهمية ذلك في هذا الوقت من حياتي؟»

نظرت إليه في ارتياعٍ وفزع وهو واقفٌ يتنفَّس بسرعةٍ وتلك الابتسامة غير المألوفة على مُحيَّاه المنتفِخ. ولم تُجدِ محاولتي كتْم رأيي بشأن حالته شيئًا؛ وقد كان هذا فعلًا غير احترافي من جانبي، ولا شك. كان ثمَّة شيء في صدره يضغط على أوردة رقبته وذراعَيه.

وكان هذا الشيء إمَّا تمددًا في الأوعية الدَّموية أو كتلة ورم صلبة. وبعد فحصٍ مُقتضب انصاع هو له بلامبالاة وابتهاج، تبيَّن أنه ورم مُتصلِّب، وقد أخبرتُه بذلك. كان مُطَّلِعًا على شيءٍ من علم الأمراض، كما كان بالطبع عالِم تشريح مُتميِّزًا، وهكذا لم نتفادَ الخوض في شرحٍ مفصَّل للحالة.

فقال وهو يُغلق أزرار مِعطفه: «أرى أنني سرعان ما أُصاب بتمدُّد الأوعية. وهذا المرض يتَّسم بشيءٍ من الحسم. إنه يقدِّم لك مهلةً منصِفة من أجل أن تسوِّي شئونك، ثم فجأةً ينتهي كل شيء. كم سيستغرق هذا الأمر؟»

بدأتُ أهمهِم وأتلعثم في الكلام في قلقٍ، لكنه قاطعني قائلًا: «الأمر لا يعنيني، كما تعلم، إنَّما أتساءل بدافع الفضول، ولا أنتظر منك أن تُحدِّد لي تاريخًا. لكن، أهي مسألة أيام أم أسابيع؟ أرى أننا لا نتحدَّث هنا عن شهور.»

فقلت بصوتٍ أجشَّ: «أظن أنَّ أمامنا يا تشالونر أربعة أسابيع وربما خمسة — على الأكثر.»

فقال بابتهاج: «ها! هذا يُناسبني تمامًا. لقد أنهيت عملي وسوَّيت شئوني عامةً؛ لذا أنا مُستعد متى وقع الأمر. لكن أشعل غليونك وتعالَ لتلقيَ نظرة على المتحف.»

وحيث إنني كنتُ أعرف (أو هكذا ظننت) كلَّ عينةٍ في المتحف تمامَ المعرفة، وجدتُ هذا الاقتراح منه في غاية الغرابة؛ لكن لمَّا وجدتُ أن عقله ربما كان يُعاني بعض الاضطراب من احتقان الأوعية الدموية بصفةٍ عامة، تبِعتُه من دون أي تعليق. اجتزنا ببطءٍ الممرَّ الذي يفضي إلى «جناح المتحف»، ومررنا بالمعامل الكريهة الرائحة (لأن تشالونر كان يُحضِر عظام الحيوانات بنفسه، وإن كان يحصل على الهياكل العظمية البشرية من المُتاجِرين فيها، وذلك لأسبابٍ واضحة)، ثم دلفنا إلى الحجرة الطويلة التي يحتفظ فيها بالمجموعة الرئيسية.

هناك توقَّفنا، وبينما كان تشالونر يلتقط أنفاسه، أخذتُ أطالع المشهد المألوف من حولي. كان هناك هيكل عظمي لحوتٍ يتعذَّر على المرء ألا يراه — حوت عنبر صغير — إذ يتدلَّى من السقف على دعاماتٍ حديدية عملاقة. أما جانب الغرفة الأقرب إلى الباب فكان به صندوق زجاجي طويل مملوء بهياكل عظمية لحيواناتٍ كانت كلها إمَّا غير طبيعية أو مُصابة باعتلالات أو تشوُّهات. وعلى الأرض تحت الحوت، انتصب هيكلان عظميَّان لجَملٍ ولأُرخُص. كان الجَمل يعاني الكساح، أما الأُرخُص فكان يعاني عدةَ أعْرانٍ أو ما يُسمَّى بالأورام العظمية. وفي أحد أطراف الغرفة كان ثمَّة صندوق كبير من الجماجم، كلها

مشوَّهة أو غير مُتماثلة؛ وفي الطرف الآخر كان ثمَّة طاولة طويلة ووحدة أدراج مسطَّحة قليلًا؛ في حين كان الجزء الطويل الباقي بالغرفة يمتلئ على امتداده بصندوقٍ زجاجي طويل يصل ارتفاعه إلى حوالي ثماني أقدام، وكان يحوي عددًا من الجماجم البشرية، كلٌّ منها مُكتمِل ويقف على قاعدته الخاصة.

كان هذا الصندوق الطويل دائمًا ما يُمثِّل لي لغزًا بعضَ الشيء. إذ كانت محتوياته تختلف عن العيِّنات الأخرى في شيئَين. الأول أنَّه وبينما تحمل كل الجماجم والهياكل العظمية الأخرى تسمياتٍ وصفية كاملة، فإنَّ هذه الهياكل البشرية تتميَّز فقط برقمٍ وتاريخٍ مكتوبَين على القاعدة؛ والثاني أنَّه وبينما كانت كل العينات الأخرى تُشير إلى مرضٍ أو اعتلالٍ من نوعٍ ما، فإنَّ هذه الهياكل البشرية كانت على ما يبدو طبيعيةً إلى حدٍّ بعيد أو لا تظهر إلا بعض التشوُّهات الطفيفة. كانت مُهيَّأة جيدًا ومبيَّضة بدرجة بياض العاج، لكنها عدا ذلك لم تكن مثيرة للاهتمام، ولم أستطِع أن أفهم قط غايةَ تشالونر من جمعِ هذا العدد من العينات المُتشابهة.

قال تشالونر، وكأنه يقرأ أفكاري: «تظنُّ أنك تعرف هذه العيِّنات تمامَ المعرفة.»

وقد أجبته: «أعرفها تمامَ المعرفة، كما أظن.»

فردَّ: «أنت لا تعرفها مُطلقًا.»

فقلت: «كيف هذا؟! يُمكنني أن أصنع قائمةً بها من ذاكرتي.»

فضحِك تشالونر. وقال: «يا صديقي العزيز، أنت لم ترَ الكنوز الحقيقية لهذه المجموعة من قبلُ. لكنني سأُريك إيَّاها الآن.»

ثم مرَّر ذراعه فعقدها بذراعي ورُحنا نجتاز الغرفة الطويلة ببطء؛ وبينما نحن نسير، رمق الهياكلَ الموضوعة في الصندوق الكبير بنظرةٍ صاحبَتْها ابتسامةٌ خافتة ومُريعة للغاية على وجهه المُنتفخ. وعند آخر الصندوق توقَّفت وأشرتُ إلى آخر هيكل فيه.

وقلت: «أريدك أن تشرح لي يا تشالونر سببَ تمييزك لهذا الهيكل بقاعدة مختلفة عن البقية.»

وبينما أنا أتحدَّث، جُلتُ بعينيَّ على صفِّ الهياكل النحيلة التي ملأت الصندوق. كان كل هيكلٍ يقف على ركيزةٍ مصنوعة من الخشب المُسودِّ كالأبنوس وقد طُبع عليها باللون الأبيض رقمٌ وتاريخ، عدا الهيكل الأخير، الذي كانت ركيزته مطليةً بالمينا القِرْمِزية والرقم والتاريخ مطبوعان عليها بأرقامٍ ذهبية.

فقال تشالونر بتمعُّن: «تلك العينة هي الأخيرة في المجموعة. هي ما أكملت المجموعة. لذا ميَّزتها بركيزةٍ مختلفة. ستفهم كلَّ شيء حين تتولَّى أنت المسئولية. والآن تعالَ لتُلقيَ نظرةً على كنوزي.»

ثم سار إلى خلف خزانة الأدراج ووقف مواجهًا الجدار المُغطَّى بألواح الماهوجني. كان كل لوحٍ بعرض أربع أقدام وبارتفاع خمسٍ تقريبًا، ويحفُّه صفٌّ من الزهيرات المنحوتة ويفرُقه عن اللوحَين المتاخمَين له عمودان جداريَّان.

ثم قال: «والآن ارقُبني يا وارتون. أترى هاتَين الزهيرتَين بالقرب من أسفل اللوح؟ اضغط عليهما بإبهاميك، هكذا؛ ثم أدِرْهما نصفَ دورة. من شأن هذا أن يدير مزلاجًا. ثم افعل هكذا.» أمسك بالعمود الجداري من كِلا جانبي اللوح، وجذبهما جذبةً خفيفة، فبرز العمودان واللوح من أماكنهما كقطعةٍ واحدة، وكشف هذا عن خزانةٍ بحجمٍ متوسط. أسرعت أحمل عنه اللوح، وحين التقط أنفاسه، شرع يُبيِّن محتويات هذا المخبأ العجيب.

فقال لي: «صفُّ الكتب هذا ستحوز عليه وتُطالعه حين أموت. أنتَ الأمينُ والوصيُّ على مُمتلكاتي وستئول ملكية هذه المجموعة لك لتفعل بها ما تشاء، سواء قرَّرت الاحتفاظ بها أو التبرُّع بها أو تدميرها. تتألَّف الكتب من ألبومٍ لبصمات الأصابع، وآخر للصور، بالإضافة إلى قائمةٍ بمحتويات هذه المجموعة وبيانات تاريخية عنها. ستجدها كلَّها مُثيرة للاهتمام إلى حدٍّ كبير. والآن سأريك أثمنَ ما في الأمر إن أنت وضعت هذه الصناديق على الطاولة.»

فعلتُ ما طلب؛ إذ أخذت كومةَ الصناديق الصغيرة ووضعتها على الطاولة إلى جوار بعضها البعض بتوجيهٍ منه. ولما أصبحَت مرتَّبة كما يريد، أزال عنها أغطيتَها في شيءٍ من الزهو، وأطلقتُ أنا صيحةً من الدَّهشة.

كانت الصناديق مملوءةً برءوس الدُّمى؛ أو على الأقل، هكذا بدَت لي. لكن يا لها من دمًى! لم أرَ في حياتي قطُّ شيئًا مثلها. شديدة الواقعية، لكنها رغم ذلك مصطنَعة للغاية! لا يسعني أن أصِف ما أثارته في نفسي إلا باستخدام كلمة «عجيب» التي كثيرًا ما نُسيء استخدامها. كانت هذه الدُّمى مثيرةً للعجب إلى أقصى حدٍّ، بحيث تُوحي لمن يراها أنها رءوس مقطوعة لمجموعة من الأقزام الغريبة ذوي المنظر البشع. دعني أصِفها لك بالتفصيل.

كان كل رأسٍ بحجم رأس قردٍ صغير، أي، يصل طوله إلى أربع بوصات تقريبًا. وبدا أنه مصنوع من جلدٍ ممتاز أو من جلود الكتابة الرقيقة، وكان اللافت للنظر أنَّ ملمَسه

يبدو كملمَس جلد البشر. وكان الشَّعر في كل منها طويلًا طولًا مفرطًا وفي غاية الكثافة؛ لذا بدا الرأس وكأنه فرشاة دهان. لكن لا شكَّ أنَّ هذا الشَّعر كان بشريًّا. كما كانت الحواجب كثيفة وطويلة أيضًا بصورةٍ غير طبيعية، وكذلك كانت الشوارب واللِّحى في الرءوس التي كان لها شوارب ولحًى؛ حيث كانت تلك اللحى والشوارب تتكوَّن — كما رأيت — من شَعرٍ بشري حقيقي بطولٍ كامل ومجموعٍ بعضه إلى بعض بصورة وثيقة. بعض هذه الرءوس كان مصنوعًا ليُمثِّل رجالًا حليقي الذقن، وبعضها حتى كان يبيِّن نموَّ لحيةٍ بعد مرور يومَين أو ثلاثة على الحلاقة؛ وكان الشَّعر الذي يُمثِّل هذه المرحلة طويلًا بدرجةٍ مفرطة وكثيفًا كثافةً غير طبيعية. وكانت العيون في كل الرءوس مغلقة، كما شكَّلت الرموش فرشاةً كثيفة وبارزة. لكن بغضِّ النظر عن العلاج غير الطبيعي للمناطق المُشعرة، كان لهذه الرءوس الصغيرة مظهر هو الأكثرُ واقعيةً وإثارة للذهول، وكانت — كما قلت — مثيرةً للعجب بإفراط وللروع إلى حدٍّ بعيد. وعلى الرغم من انغلاق العينين وسكون الملامح، كان لكل رأس تعبيرٌ خاصٌّ به وسماتٌ مميزة له؛ في الواقع، بدا كل رأس صورةً طبقَ الأصل ومفعمة بالحيوية لفردٍ بعينه. كان عددها يتجاوز العشرين، وكانت جميعًا لذكور، وجميعها كان يُمثِّل رجالًا من النوع الأوروبي. كان كل رأس يرقد في مقصورة صغيرة مبطَّنة بالمُخْمَل، وكل منها يتميَّز بعلامة يحملها تتكوَّن من رقم وتاريخ.

رفعت نظري إلى تشالونر فوجدته يُطالعني بابتسامةٍ غامضة وشنيعة.

فقلت له: «هذه أشياء غير عادية يا تشالونر. ما هذه الأشياء؟ وممَّ صُنِعت؟»

فأجابني: «ممَّ صُنعت يا صديقي العزيز؟ في الواقع، صُنعت هذه ممَّا صُنِعتُ أنا وأنت منه، بالتأكيد.»

فقلتُ متسائلًا: «أتقصد أن تقول إن هذه الرءوس الصغيرة مصنوعة من جلد بشري؟»

«بكل تأكيد. من جلد وشَعر بشريين. ماذا كنت تظنُّ غير ذلك؟»

نظرتُ إليه مقطبًا وقد انتابتني الحَيرة، ثم قلت أخيرًا، إنني لا أفهم ما يرمي إليه.

فسألني: «ألم تسمع من قبلُ بقبائل موندوروكو الهندية؟»

هززتُ رأسي نافيًا. وتساءلت: «ما شأنهم؟»

«ستجد سردًا عنهم في كتاب بيتس «عالِم تاريخ طبيعي في منطقة حوض الأمازون»، وثمَّة إشارة إليهم في كتاب جولد وبايل الذي بعنوان «العجائب».»

ساد الصمت لحظة، رحت أنظر خلالها إلى الصناديق المفتوحة ولم يَغِب الروع عني. وأخيرًا نظرت إلى تشالونر وسألته: «وماذا بعد؟»

«حسنًا، هذه نماذج من أعمال قبائل موندوروكو.»

نظرتُ ثانيةً إلى الصناديق، وينبغي بي أن أقرَّ بأن رجفةً من الرعب تسلَّلت إليَّ بينما تنقلت عيناي بطول صفوف الوجوه الجامدة ولاحظتُ الملامح المتقنة الشديدة الصِّغر، والآذان الصغيرة والشَّعر المنتصب والحواجب المقطَّبة — التي تعارضت بشدة مع التعبيرات الهادئة والعيون المُغلقة بسلام. كان الأمر برُمَّته غيرَ واقعي للغاية، وغير طبيعي بالمرَّة، ويوحي بأنَّ هذه الأعمال أسحارٌ شيطانية. نظرت إلى مضيِّفي نظراتٍ حادة.

وتساءلت: «من أين حصلت على هذه الأشياء يا تشالونر؟»

بانَت ثانية على وجهه المنتفخ تلك الابتسامةُ الغريبة الغامضة.

وقال: «ستجد سردًا كاملًا عنهم في أرشيف المتحف. كلُّ عينة ترِد فيه بوصف كامل وبتاريخ الحصول عليها وأصلها بالتفصيل. إنَّها أشياءُ صغيرة مثيرة للاهتمام، أليس كذلك؟»

فأجبته وأنا شارد الذهن: «جدًّا»؛ ذلك أنني كنت في تلك اللحظة أفكِّر في التعارض بين مظهر الرءوس وأصلها المفترض. في نهاية المطاف تمكَّنت من تحديد وجه التباين.

«لكنَّ الهنود الذين تتحدَّث عنهم لم يَعِدُّوا قط هذه الرءوس.»

«ولِمَ لا؟»

«لأنها جميعًا لأوروبيين؛ في الواقع، يبدو معظمها لرجال إنجليز.»

«ثم ماذا؟ ما الخَطْب في ذلك؟» بدا تشالونر مستمتعًا بهدوء بما أنا فيه من حَيرة، لكن في تلك اللحظة انتبهت عيني إلى تفصيلةٍ أخرى جعلتني أرتجِف رعبًا مرةً أخرى — وأنا لا أعرف سبب ذلك.

فقلت له: «اسمع يا تشالونر. لماذا يتميَّز هذا الرأس عن البقية؟ جميع الرءوس موضوعة في مقصورات صغيرة مبطَّنة بمُخْمَل أسود وعليها علاماتٌ سوداء مدوَّن عليها أرقامٌ وتواريخ باللون الأبيض؛ أمَّا هذا الرأس فهو في مقصورةٍ مبطَّنة بمُخْمَل أحمر وعليه علامةٌ حمراء مدوَّن عليها رقم وتاريخ بحروف ذهبية، تمامًا مثلما هو الحال مع هذا الهيكل الأخير.» ثم وجهتُ نظري إلى الصندوق فأدركتُ سريعًا أنَّ الرقم والتاريخ متطابقان عليهما كليهما.

ورأى تشالونر أنني لاحظتُ ذلك فأجابني: «الأمر في غاية البساطة يا صديقي العزيز. لقد حصلتُ على هذا الرأس وهذا الهيكل في اليوم نفسه، وبحصولي عليهما اكتملت مجموعتي. كانا هما العينتَين النهائيتَين، ولم أُضِف أيَّ عينات منذ حصلتُ عليهما. لكن

بشأن الرأس، كان هناك سببٌ إضافي لجعله في مقصورة مميزة، وهو أنه يُمثِّل جوهرةَ هذه المجموعة. انظر فقط إلى الشَّعر. خُذ عدستي وافحصه.»

أعطاني تشالونر عدسته فأخذت الرأس من مقصورته القِرْمِزية — وكان خفيفًا مثل الفلِّين — وقرَّبته إلى عيني. ثم ومن دون أن أستخدم العدسة حتى، رأيت ما كان تشالونر يرمي إليه. كان الشَّعر يُمثِّل حالةً شاذة غايةً في الندرة؛ كان الشَّعر يُمثِّل ما يُعرَف باسم «الشَّعر الحَلقي»، أي إنَّ كل شَعرة تتَّسم بمناطقَ باهتةٍ وأخرى داكنة في مواجهة الضوء المنعكس.

سألته: «أتقول إنَّ هذا شَعر بشري بحق؟»

«بكل تأكيد. بل وهو مثال رائع جدًّا على الشَّعر الحلقي؛ إنها الحالة الوحيدة التي رأيتها من قبلُ إذا جاز لي القول.»

فقلت: «لم أرَ عينةً كهذه من قبل»، وأنا أضع الرأس الصغير في مكانه، ثم أضفتُ: «ولم أرَ أو أسمع كذلك بمثل هذه الأشياء الغريبة. ألن تُخبرني من أين حصلتَ عليها؟»

أجابني تشالونر: «ليس الآن. ستعرف كلَّ شيءٍ عنها من «الأرشيف»، وستجد أنَّها مُثيرة جدًّا للاهتمام. والآن سنضعها في أماكنها.» ثم وضع أغطيةَ الصناديق في أماكنها، ولما رتَّبت الصناديق في الخزانة، جعلني تشالونر أعيد اللوحَ إلى مكانه وأنتبِه بصفة خاصة إلى مكان التثبيت من أجل الاستخدام المستقبلي.

ثم سألني: «أيمكنك المكوثُ لتناول العشاءُ معي؟» وأضاف: «ما زالت تصرُّفاتي مقبولة على طاولة الطعام، وإن كنتُ لا أبتلع الطعام براحةٍ كبيرة.»

أجبته: «يُمكنني ذلك. سأمكث بكل سرور؛ فأنا لم أعُد إلى العمل بالصورة الرسمية بعدُ. ما زال هانلي مسئولًا عن أعمالي.»

ومن ثمَّ تناولنا العشاء معًا، وإن كان العشاء بالنسبةِ له قد مثَّل طقسًا فارغًا. لكنه كان مُبتهجًا جدًّا؛ بل في الواقع، بدا بروحٍ معنوية عالية، وبينما هو يُعاني بين الحين والآخر أثناء تناوله الطعام، استطاع أن يتحدَّث قليلًا بطريقته الطريفة وروح دعابته الغريبة.

ولكن مع مرور الوقت أثناء تناولنا الطعام، كانت محادثتنا مُتقطِّعة ومفكَّكة؛ لكن حين رُفِع الطعام ووُضِع النبيذ على الطاولة، أبدى هو استعدادًا لإجراء محادثة أكثر ترابطًا.

«أعتقد أنَّ بإمكاني تدخين سيجار يا وارتون؟ لن يقصِّر من عمري كثيرًا، أليس كذلك؟»

لم أكن لأُبديَ اعتراضًا على ذلك حتى ولو كان تدخينه السيجار سيقتُله من فوره. فأجبته بأن دفعتُ بالعلبة تجاهه، وحين اختار واحدًا وقطع طرَفه في تأنٍّ، رفع نظره إليَّ وقال:

«أميل لاستذكار الماضي الليلةَ يا وارتون؛ أريد أن أقصَّ عليك القليل من قصة حياتي، ما رأيك؟»

«بكل تأكيد. ستُشبع رغبتك وستُرضي فضولي في الوقت نفسه.»

«أنت رجلٌ في غاية التهذيب يا وارتون. لكنني لن أجعلك تشعر بالضجر. سأثير انتباهك كثيرًا بما سأُخبرك به؛ وستكون مهتمًّا بصفةٍ خاصة حين يتسنَّى لك التجوُّل في المتحف في ضوءِ ما ستسمع من هذه الحكاية الصغيرة. إذ حريٌّ بك أن تعلم أنَّ آخرَ عشرين سنة من حياتي كانت مكرَّسة لمجموعتي. وهذه الحكاية تُمثِّل تعليقًا على تلك المجموعة وتفسيرًا لها. هل كنتَ تعلم من قبل أنني كنتُ متزوجًا؟»

فأجبتُه بشيء من الاندهاش: «كلَّا»؛ لأنني دائمًا ما كنتُ أرى تشالونر نموذجًا للأعزب المُنعزل المكتفي بذاته.

فقال هو: «لم آتِ على ذكرِ ذلك من قبل. فقد كان الحديث عن هذا الموضوع يسبِّب لي الألم. لكنه الآن لم يَعُد كذلك. فالأذى الذي يتسبَّب به الحزن وسوء الحظ يفقد تأثيره بينما أنا على مشارف النهاية. قريبًا سأعبُر الحدود وسأرحل بعيدًا عن طائلته.»

ثم توقَّف عن الحديث وأشعل سيجاره وسحب بضعةَ أنفاس من دخانه الفوَّاح وأكمل حديثه قائلًا: «لم أتزوَّج حتى بلغتُ الأربعين. لم تكن لديَّ رغبةٌ لذلك. كنتُ رجلًا منعزلًا، مشغولًا باهتماماتي العلمية وبعيدًا كلَّ البعد عن تأثير النساء. لكن في نهاية المطاف التقيتُ زوجتي الراحلة ووجدتُها مختلفة عن بقية النساء اللائي رأيت. كانت فتاةً جميلة، أصغر مني بنحو عشرين سنة، فائقة الذكاء، مثقَّفة ومُهذَّبة ولها أملاكٌ كبيرة. بالطبع لم أكن مناسبًا لها. لم أكن وسيمًا، وكنت أبلغ من العمر ضِعف ما تبلُغ، وكنت ميسورَ الحال على نحوٍ متواضع، ولم أكن ذا مكانةٍ مرموقة، لا على الصعيد الاجتماعي ولا العملي كذلك. لكنها تزوَّجت بي، وإن جاز لي القول، لقد تزوَّجَت بي بحماسٍ وحبٍّ شديدَين؛ أعني بهذا أنها دائمًا ما كانت تُعامِل زواجنا على أنه ضربةَ حظ سعيد، وكأن كل المزايا كانت من حظِّها هي وليست من حظي أنا. ونتيجةً لذلك، كنَّا مُخلصَين تمامًا أحدُنا للآخر. كانت حياتنا تمثيلًا لكلِّ ما يمكن أن تكون عليه الحياة الزوجية السعيدة، وهو الأمر النادر. كنَّا لا ننفصِل. في الجِد والهزل، وفي كل شأنٍ وعمل، كنَّا في وئامٍ تامٍّ. كنا نكره لحظاتِ

الانفصال القليلة والقصيرة، وكنا نتفادى الناس لأن كلًّا منَّا كان سعيدًا جدًّا بالآخر. كانت زوجةً نادرًا ما يجود بها الزمن؛ ولم أدرك بهجةَ الحياة إلا بعد أن تزوَّجتُ بها. بدت حياتي قبلها لَمَّا نظرتُ إليها في ذلك الوقت كرقعةٍ من الفراغ التي ظللتُ خاملًا فيها مثل شرنقة عالقة بين الوجود والعدم أثناء أشهُرِ الشتاء الكئيبة.

عشنا هكذا في وئامٍ لا ينقطع، نتبادل حبًّا صار ينمو بيننا يومًا بعد يوم، حتى مرَّ عامان من العيش في سعادةٍ مثالية.

ثم حلَّت النهاية.»

هنا توقَّف تشالونر عن الكلام، واستقرَّت على مُحيَّاه البائس والمشوَّه أماراتُ كآبة لا تُوصف. راقبتُه بهاجس مُنزعج من شيءٍ كريه سيحدث في سرده بينما مدَّ يده المرتعشة والمنتفخة ليشعلَ سيجاره الذي كان قد انطفأ في أثناء ذلك.

ثم كرَّر آخِر ما قاله: «حلَّت النهاية. تحطَّمت في لحظةٍ السعادةُ الكاملة التي كان يعيشها اثنان من البشر. دعني أُبيِّن لك الملابسات.

في الغالب أنا رجلٌ نومه خفيف، مثل معظم الرجال الذين يتَّسِمون بذهنٍ نشيط، لكن لا بد وأنني نِمت في تلك المرة نومًا ثقيلًا على غير المعتاد. رغم ذلك استيقظتُ وأنا مفزوع شيئًا ما وينتابني إحساس بأنَّ خَطْبًا ما قد وقع. وافتقدتُ زوجتي على الفور وجلستُ على الفِراش أتسمَّع. كان بإمكاني سماعُ صوت صرير وأصوات حركة كلها خافتة من الطابق السُّفلي، وكنتُ على وشْك النهوض واستقصاء الأمر حين صُفِق الباب، ثم دقَّ الجرس بصوتٍ مرتفع، ثم جاء دوي إطلاق نار عبْر أرجاء المنزل.

انتفضتُ من الفراش وهُرعت إلى أسفل الدَّرج. ولما وصلتُ إلى الرَّدهة، جرى أحدهم من أمامي في الظُّلمة. كان هناك وميضٌ مُبهر للبصر قريبًا من وجهي وصوتُ انفجار يصمُّ الآذان؛ وحين استعدتُ بصري، بدا أمامي لوهلةٍ جسمُ رجلٍ في شكل صورة ظليَّة باهتة في مدخل الباب الأمامي. ثم أُغلِق الباب بعُنف، فغدا الصمت والظلام يلفَّان المنزل.

أردتُ في البداية مطاردةَ الرجل، لكنَّ ذلك نبَّهني على الفور إلى زوجتي. رحتُ أتحسَّس طريقي لأدخل إلى غرفة الطعام وكنت أتسلَّل ببطءٍ نحو المكان الذي نضع فيه الثقاب، وذلك حين لمست قدمي الحافية شيئًا لينًا وكبيرًا. فانحنيت لأتفقَّده فلامست يدي الممدودة وجهًا بشريًّا.

انتفضتُ وأنا أشهق من الذُّعر وبحثتُ بحثًا محمومًا عن الثقاب. وفي غضون لحظات كنتُ قد وجدتُها فأشعلت عودًا وأنا أرتعش؛ ومع أول شعاعٍ من الضوء، تحوَّل شعوري

بالخوف الشديد إلى إدراكٍ أشدَّ وطأة. كانت زوجتي ممدَّدة على بساط الموقد، ووجهها المُتجه نحو الأعلى أبيضُ كبياض الرخام، وعيناها نصف المفتوحتَين تلمعان كالزجاج. وعلى ثياب نومِها ناحية صدرها كان ثمَّة بقعة كبيرة مُحترقة لونها بنيٌّ في وسطها بقعةُ دم صغيرة.

كانت زوجتي قد ماتت. عرفتُ ذلك من الوهلة الأولى. لا بد أنَّ الرصاصة قد اخترقت قلبها تمامًا وماتت من فورها. عرفتُ هذا أيضًا. ورغم أنني ناديتُ عليها باسمها وهمستُ في أذنها بكلماتٍ رقيقة، ورغم أنني أمسكتُ برُسغَيها الهامدَين وفركتُ يدَيها اللتَين أصبحتا الآن باردتَين وشمعِيَّتي الملمَس، كنتُ متأكدًا من أنها رحلت.

كنت لا أزال راكعًا إلى جوار حبيبتي كيت، مُصابًا بالاختلال والجنون لشدةِ ما بي من حزن ورهبة، وكنت لا أزال أُمسِّد يدها البيضاء الهامدة، مُخبرًا إياها بأنها أعزُّ إنسانةٍ إليَّ، وأستجديها بسخافةٍ أن تعود إليَّ، لتكون صديقتي ورفيقتي كما كانت، وأخذتُ أُردِّد كلامي وأثرثر وأنا مخبول بحزني، حتى سمعتُ صوتَ خطواتٍ خافتة تهبط على الدَّرج. اقتربتِ الخطوات أكثرَ. ثم انفتح الباب ودلف أحدُهم إلى الحجرة على أطراف أصابعه. كانت تلك هي الخادمة هارات. وقفت هارات جامدةً بلا حراك حين رأتنا وحملقت فينا ثم أنَّت أنينًا غريبًا وكأنَّها كلب أصابه الذُّعر. ثم فجأة، التفتت وانصرفت عنَّا في صمتٍ تامٍّ كما حضرت، وسمعتها تُهرع على الدَّرج إلى الأعلى بخطواتٍ خافتة. ثم بعد برهةٍ نزلت مرةً أخرى، لكن هذه المرة مرَّت بحجرة الطعام وذهبت باتجاه الباب الأمامي. ظننتُ أنَّها ذهبت لتحضِر المساعدة، لكن الأمر لم يشغَل ذهني. فزوجتي قد ماتت. لا شيء يهمُّ الآن.

لكنَّ هارات لم تَعُد، وسرعان ما نسيتُ أمرَها. ثم زاد إحساسي أكثرَ بواقعية موت زوجتي العزيزة. وبدأتُ أنظر للأمر كواقعٍ وحقيقة. وبهذا الإدراك، برزَت مسألة موتي أنا. اعتبرتُ الأمر مفروغًا منه منذ البداية. لم أكن أحتمل عبءَ الحياة وحيدًا ولو لحظةً. كان السؤال الوحيد المطروح هو كيفية تحقيق ذلك، وأخذتُ أفكِّر في الأمر على مهلٍ، فجلستُ على الأرض ويدُ كيت في يدي. كان لديَّ مسدس بالطابق العلوي، وبالطبع كان هناك مشارط حادة في المختبر. لكن، ورغم غرابة ذلك، تدريبي في مجال التشريح عارَض في ذلك الوقت فكرةَ إحداث جروح ميكانيكية كبيرة. لكن كان هناك الكثير من السموم المُتاحة، وقد ملتُ لهذه الطريقة في الانتحار باعتبارها لائقةً وأكثر كرامةً.

ولما استقرَّ رأيي على طريقة الانتحار هذه، كنتُ على استعدادٍ للتنفيذ من فوري؛ لكن حينها برز في ذهني أمرٌ آخر. سيتعيَّن دفنُ زوجتي. سيتعيَّن أن يضعها أحدُهم بيدَيه في

مثواها الأخير، ولا يمكن أن تكونا يدَي أحدٍ آخر سواي. لذا يتعيَّن عليَّ الانتظار لبعض الوقت.

مرَّت الساعات ولم أعرف عددها حتى بدأت خيوط النهار الزرقاء الباهتة تتدفَّق من بين شقوق المصاريع وشرعت تباري أضواءَ مصابيح الغاز الدافئة بالداخل. ثم سمعتُ صوتَ وقْع أقدامٍ أخرى على الدَّرج، ودلفت الطاهية ويلسون إلى الغرفة. ومثل الخادمة، تسمَّرت الطاهية في مكانها حين رأت جثةَ زوجتي، وأخذت للحظة تُحدِّق مذهولة وقد فغرَت فمَها. لكن ذلك لم يدُم طويلًا. ففي اللحظة التالية، هُرعتْ إلى الباب الأمامي وملأتِ الشارع بصراخها.

إنَّ قدوم الطاهية جعلني أفيق. أدركتُ أن الشرطة ستصِل عمَّا قريب، فأخذتُ أنظر حولي بصورةٍ غريزية بحثًا عن تفسير للكيفية التي وقعت بها الجريمة. كنت قد لاحظت بالفعل أنَّ إحدى يدَي زوجتي — تلك التي لم أكن أمسك بها — كانت مقبوضة، والآن لاحظتُ أنها كانت تقبض على خُصلة صغيرة من الشَّعر. فسحبتُ من يدها بضع شعرات من الخُصلة ورحتُ أنظر فيها. كان شَعرًا خشنًا، طوله ثلاث بوصات تقريبًا وله لونٌ رمادي باهت. وضعت الشَّعر على ورقة خالية كانت في دُرج الصُّوان المتعدد الاستخدامات لأفحصها لاحقًا، ثم أخذتُ أنظر في أرجاء الغرفة. كانت بداية هذه المأساة واضحةً تمامًا. كانت الأواني الفضية قد أُخرِجت من الخزانة الخاصة بها في حجرة المؤن، ووُضِعت على طرَف طاولة الطعام. كانت تلك الأواني التي لُمِّعت ملطَّخة ببصمات أصابع الحقير الذي اغتال زوجتي. فرُحتُ أنظر إلى تلك العلامات التي تَشِي بما حدث باهتمامٍ جديد ومُتزايد. في تلك الآونة، لم تكن بصمات الأصابع شائعةً بين العامة أو رجال الشرطة باعتبارها وسيلةً فعَّالة في تحديد الهُوية. لكنها كانت معروفة في أوساط العلماء، وكنتُ قد أوليتُ أنا نفسي هذا الموضوع انتباهًا لبعض الوقت. وكان لرؤية هذا الدليلِ على وقوع الجريمة تأثير فوري عليَّ؛ إذ يحوِّل مرتكب هذه الواقعة الرهيبة من مجرد فاعلٍ غامض إلى شخصٍ حي حقيقي. وفي فورةٍ مفاجئة من الإحساس بالكره والاشمئزاز، أدركتُ أنَّ هذا الحقير الصعلوك يتجوَّل الآن في الشوارع أو يختبئ في وكْره البغيض؛ وأدركتُ حينها أيضًا أنَّ هذه العلامات ربما كانت الرابط الوحيد الذي يربطه بالفعل الرهيب والشنيع الذي ارتكبه.

فحصتُ الأواني الفضية بسرعةٍ وانتقيت صينيةَ تقديمٍ وإبريقَ شايٍ كبيرًا ومكوَّرًا كانت البصمات واضحة للغاية عليهما. وضعتُ هذين الشيئين في دُرج في الصوان، وأغلقت

الدُّرج بمفتاحه ثم دسستُ المفتاح في جيب لباس النوم الخاص بي. وفي تلك اللحظة، دقَّ الجرس دقًّا عنيفًا.

ذهبتُ إلى الباب وأدخلت شرطيًّا والطاهية. نظرت إليَّ الطاهية بخوفٍ وارتياع ظاهرَين، ثم قال الشرطي بطريقةٍ صارمة نوعًا ما:

«هذه الشابة تُخبرني أن ثمة خَطْبًا ما هنا يا سيدي.»

فتقدَّمتُه إلى غرفة الطعام — وظلَّت الطاهية عند الباب وأخذتْ تُحدِّق في داخل الغرفة بوجهٍ شاحب — وأريتُه جثة زوجتي. خلع الشرطي خوذته وسأل بفظاظة عمَّا حدث. فسردتُ عليه باقتضابٍ كيف وقعتِ الكارثة، ولم يُعلِّق على ذلك سوى أنه قال إن المُفتِّش سيحضُر في غضون وقتٍ قليل.

وصل المفتش في واقع الأمر في غضون دقائق من ذلك، يصحبه رقيبٌ، وأخذ الضابطان يستجوبانني بعنايةٍ وإمعان. كرَّرت عليهما روايتي للحادثة ورأيتُ على الفور أنهما لم يُصدِّقاني؛ ورأيت أنهما شكًّا في أنني قد ارتكبتُ الجريمة. لاحظتُ هذا الأمر باندهاشٍ بليد لكنني لم أنزعِج. فلم أكن أهتمُّ بما يظنَّان.

استدعى الضابطان الطاهيةَ واستجوباها، لكنها بالطبع لم تكن تعرف شيئًا. ثم أرسلاها للبحث عن الخادمة. لكن الخادمة كانت قد اختفت، كما اختفت ملابس خروجها وحقيبةُ يدٍ كبيرة لها؛ الأمر الذي أضاف المزيدَ من التعقيد على الأمر. ثم فحص الضابطان الأواني الفضية ونظرا إلى البصمات عليه. ولاحظ الشرطي خُصلة الشَّعر في يدِ زوجتي المسكينة، ولما انتبه المُفتِّش إلى لونها وأخذ ينظر إلى شَعري ويُمعن النظر فيه، حرَّز الشَّعر في ظرفٍ أزرق وضعه في جيبه؛ وأظنُّ أن هذا الظرف لم يرَ النور ثانية البتة.

بحلول هذا الوقت كان جرَّاح الشرطة قد وصل، لكن لم يكن أمامه شيء يفعله سوى ملاحظة حالة الجثة لتعيين وقت حدوث الوفاة. ثم استحوذت الشرطة على بعض الأواني الفضية لعلَّهم يُقارنون بين البصمات الموجودة عليها وبصمات القاتل إن أمسكوا به.

لكنهم لم يمسكوا به قط. لم ندنُ حتى من الوصول إلى دليلٍ على هُويته. وجرى البحث عن الخادمة، لكن لم يُعثَر عليها قط. وأصدرت هيئة المُحلَّفين المعاونة لُمحقق الوفيَات حكمًا بـ «القتل العمد» ضد مجهول. وانتهى الأمر على هذا النحو. ثم واريتُ زوجتي مثواها الأخير الذي سألحق بها فيه عمَّا قريب. وعُدت وحيدًا إلى المنزل الخاوي.

لا داعيَ أن أذكر أنني لم أنتحر. ففي غضون ما حدث رأيت الأمورَ من زاوية جديدة. بدا لي جليًّا منذ البداية أن الشرطة لن تلقي القبض أبدًا على ذلك الشيطان. ومع ذلك كان

لا بد من القبض عليه. فهو مَدين بِدَين، ولا بد له أن يقضي دَينه. لذا لم أنتحر لأحصِّل هذا الدَّين.

كان هذا قبل عشرين عامًا يا وارتون؛ عشرين عامًا طويلة من الكآبة والوحدة. كثيرًا ما حرَّقني الشوق لأذهب إليها، لكنَّ الدَّين لم يكن قد سُدِّد. حاولتُ جعْلَ الوقت يمرُّ من خلال تجميع مجموعتي الصغيرة ودراسة العينات المهمَّة فيها؛ وقد خفَّف ذلك من وطأةِ ما كنت أعانيه. لكن طوال الوقت كنت أعمل بهدف تحصيل الدَّين والتخلُّص من معاناتي.»

توقَّف تشالونر برهةً، فسألته: «وهل سُدِّد الدَّين؟»

«سُدِّد في نهاية المطاف.»

«إذن ضُبط الرجل في نهاية المطاف؟»

«أجل. ضُبط.»

فصحتُ بحماس: «آمُل أن يكون قد نال ما يستحقه؛ أقصد أن يكون قد أُعدِم على جريمته.»

فأجاب تشالونر بهدوء: «أجل، لقد أُعدم.»

سألته: «لكن كيف توصَّلَت إليه الشرطة؟»

فأجاب: «ستجد سردًا كاملًا عن الأمر في آخر مجلدٍ من مجلدات «أرشيف المتحف» ...» ولمَّا لاحظ الذهول على وجهي من جُملته هذه، أضاف: «تعرف يا وارتون أن «أرشيف المتحف» هو بمثابة مذكِّرات يومية شخصية نوعًا ما؛ إذ انغمست كليًّا في المتحف وربطت كلَّ أحداث حياتي بمجموعتي. أعتقد أنك ستفهم حين تقرؤه. والآن لنترك الحديثَ عن ذكريات حياتي المُحطَّمة. لقد قصصتُ عليك قصتي؛ أردتُ منك أن تسمعها مني أنا، وقد فعلت. والآن لنتناول كأسًا من النبيذ ونتحدَّث عن شيءٍ آخر.»

نظرتُ إلى ساعتي فوجدتني قد تأخرتُ كثيرًا عمَّا كنت أظن، فنهضت لأغادر.

وقلت: «ما كان ينبغي أن أطيل عليك السهر إلى هذا الحد. كان ينبغي بك أن تكون في الفراش قبل ساعة.»

فضحِك تشالونر ضحكته الغريبة المكتومة. وصاح بي: «الفراش! أنا لا أذهب إلى الفراش في هذه الآونة. لم أستطِع الرقود طوالَ الأسبوعين المنصرمين.»

بالطبع لم يرقد الرجل. كان ينبغي لي أن أعرف هذا. فقلت: «إذن، على أي حال، دعني أريحك لتنام قبل أن أغادر. كيف تنام؟»

«أعدُّ مسندًا لرأسي على حافة الطاولة، وأسحب كرسيًّا بمسندٍ بالقُرب من الطاولة، وألفُّ نفسي في غطاء وأنام وأنا أميل نحو الأمام. سأريك. فقط أحضِر كتاب أوين «التشريح المقارَن» وكدِّس المجلدات بعضها فوق بعض بالقرب من حافة الطاولة. ثم اجعل كتاب باركر «دراسة عن حزام الكتف» في وضعٍ مائل أمامها. كتاب باركر هذا كتاب رائع. لقد استمتعتُ به كثيرًا أول ما نُشر، وهو يمثِّل مسندًا رائعًا للرأس. سأذهب وأبدِّل ثيابي وأرتدي ثيابَ النوم بينما تتدبَّر أنت الأمر.»

ثم ذهب إلى حجرةِ نومه المُتاخِمة وكوَّمت أنا المجلدات الضخمة على الطاولة وقرَّبت الكرسي. وحين عاد، دثَّرته بغطاءين ثقيلَين وهيَّأت مجلسه في الكرسي. ومدَّ هو ذراعَيه على مجلدات كتاب باركر الضخمة، وأسند جبهته عليها وغمغم بابتهاجٍ أنه سيكون مرتاحًا في هذا الوضع حتى الصباح. تمنَّيتُ له ليلةً طيبة وسرتُ ببطءٍ نحو الباب، ولَمَّا فتحتُه توقَّفت لألتفت وأنظر إليه. رفع هو رأسه وابتسم لي يُودِّعني؛ كانت ابتسامته غريبة وقبيحة لكنها مليئة بالشجاعة والصبر النبيل. وهكذا تركته.

بعد ذلك كنتُ أُعرِّج عليه لزيارته كلَّ يوم، وأهيئ له مرقده كلَّ ليلة. وكانت حالته المَرضية تتقدَّم بسرعةٍ أكبر مما توقعت؛ لكنه دائمًا ما كان مشرقًا ومبتهجًا، فلم يشتكِ قطُّ ولم يأتِ على ذكر ماضيه المُضطرب ثانيةً.

وفي عصر أحد الأيام، مررتُ به في وقتٍ متأخر بقليل عن المعتاد، وحين فتحتِ الخادمة الباب سألتها عن أحواله.

فأجابت: «حالته من سيئ إلى أسوأ يا سيدي. فهو يزداد بدانة بصورة شنيعة يا سيدي؛ أقصد رأسه يزداد حجمًا.»

سألتها: «أين هو الآن؟»

«هو في غرفة الطعام يا سيدي؛ أظنُّ أنه خلد إلى النوم.»

دخلتُ الحجرة في هدوء فوجدته يرتاح على الطاولة. كان مُتدثِّرًا بأغطيته ورأسه يستند إلى مجلدات الدراسة المُحبَّبة إليه. سرتُ نحوه ونطقتُ باسمه همسًا، لكنه لم ينهض. ملتُ فوقه وأخذتُ أستمع، لكنني لم أجد منه حركةً أو نفسًا. كانت الخادمة مُحقَّة. لقد خلد إلى النوم؛ أو بعبارته هو، اجتاز دار الشقاء.

الفصل الثاني

الهيكل العظمي رقم ١

قمتُ بأُولى زياراتي الدورية لتفقُّد منزل صديقي الراحل هامفري تشالونر بعد أكثر من أسبوع من جنازته. كنت أنا الصديق الحميم الوحيد لذلك الرجل المنعزل المُكتفي بذاته، ولم يجعلني فقط المُنفِّذ الوحيد لوصيته، بل جعلني أيضًا وريثه الأول. فباستثناء مبلغٍ من المال يُمنح لمعهد الأنثروبولوجيا الجنائية، جعلني صديقي تشالونر وريثَ أملاكه بأكملها، بما في ذلك متحفه. ولم تكن وصيته الأخيرة تلك مرتبطةً بأي شرط. إذ بإمكاني الاحتفاظُ بالمجموعة على ما هي عليه، أو بيعها بأكملها، أو تفكيكها وتوزيع العينات كما يتراءى لي؛ لكني كنتُ أعرف أنَّ رغبة تشالونر التي يُعبِّر عنها كانت أنني ينبغي أن أحتفظ بها، بهدف تشكيل نواة لمجموعةٍ من العينات ترتبط بالمعهد.

كان عصرًا رماديًّا من أيام الخريف حين دلفتُ إلى المنزل. ولم يكن بالمنزل أحدٌ عدا قيِّمةٍ عليه، وقد بدا المتحف الموجود في جناحٍ مُنفصل منعزلًا وصامتًا بدرجةٍ غريبة. وبينما أحدث قُفل الباب العملاق من طراز ييل طقطقةً وهو يقفل من خلفي، شعرت أنني قد انعزلتُ تمامًا عن العالم، وقد كنتُ كذلك بالفعل. إذ تغلغل في المكان سكونٌ غامض كسكون القبور، وحين دخلتُ الحجرة الطويلة وجدت نفسي أخطو ومن دون وعيٍّ مني بخطواتٍ خفيفة كي لا أُعكِّر صفو الصمت؛ كما قد يفعل المرء لدى دخوله إحدى حجرات الدفن المصرية القديمة المُختبئة في قلب أحد الأهرامات.

توقَّفت في منتصف الحجرة الطويلة وأخذتُ أنظُر فيما حولي، ولا أجد غضاضةً من الاعتراف بأنني شعرتُ بقشعريرة واضحة. لم يكن السبب هو الهيكل العظمي للحوت المُعلَّق من فوقي بابتسامته العريضة السمِجة؛ ولم يكن السبب كذلك الهيكل العظمي ذا السيقان المُقوَّسة للجَمل الكسيح، ولا هيكل الأرخص، ولا هياكل القردة وبنات آوى

والشياهم في الصناديق الزجاجية الأصغر حجمًا؛ ولا كذلك الجماجم التي أخذت تبتسِم ابتسامةً عريضة إليَّ من الصندوق الموجود في آخر الغرفة. بل كان السبب هو صف الهياكل العظمية البشرية الطويل الذي شغل الصندوق الجداري الكبير، الذي كل هيكل فيه مُنتصبٌ على ركيزته الصغيرة: إذ كانت رفقةً صامتة وجامدة من المترصِّدين العظمِيِّين، يقفون في اطمئنانٍ وابتساماتهم ثابتة يشوبها الكآبة ويبدون وكأنهم في انتظار شيء. كان هذا هو ما أثار اضطرابي.

أنا لستُ من نوعية الرجال الشديدة الإحساس المرهفة العواطف؛ وباعتباري ممارسًا للطب، فمِن نافلة القول أن أقول إن العِظام لا تُصيبني بالخوف. إذ ما زلت أحتفظ في غرفة نومي بالهيكل العظمي الذي كنتُ أعمل عليه حين كنتُ طالبًا، ولم أكن أعيره اهتمامًا أكثرَ من الاهتمام الذي أعيره للوحات كتاب جراي «تشريح جسم الإنسان». كان بإمكاني النوم بارتياح في متحف جون هانتر للتشريح — إن كانت الظروف الأخرى مواتية؛ وما كان الهيكل العظمي الكبير للعريف أوبرايان — الذي يزيِّن المجموعة — وهيكل رفيقه القَزَم الصغير الغريب ليُسبِّبا لي ولو أدنى قدرٍ من الإزعاج. لكن الأمور كانت مختلفة هنا. إذ راودني إحساس — كما راودني من قبل — بأن هناك خَطْبًا غريبًا بشأن متحف تشالونر هذا.

سرتُ متمهلًا أمام الصندوق الكبير الذي بطول الجدار، أنظر إلى العينات؛ وقد بدت جميعها تحت الضوء الخافت وكأنها تنظر إليَّ وأنا أمرُّ بها، ويعلو وجهها تعبيراتٌ مُتسائلة في محاجر عيونها المُظلمة، وكأن كلًّا منهم يريد أن يسألني: «أتعرف مَن كنت؟» وقد أصابني هذا بالاضطراب إلى حدٍّ كبير.

كانت هناك خمس وعشرون عينة. وقفَت كل عينةٍ على ركيزة صغيرة سوداء، طُبع على كلٍّ منها باللون الأبيض رقمٌ وتاريخٌ؛ عدا عينة واحدة في آخر الصف، كان لها ركيزة قِرْمِزية وكُتبت الأرقام عليها باللون الذهبي. كانت العينة رقم ١ تحمل التاريخ ٢٠ سبتمبر لعام ١٨٨٩، في حين كانت تلك التي رقمها ٢٥ (أي، تلك ذات الركيزة القِرْمِزية) تحمل التاريخ ١٣ مايو لعام ١٩٠٩. نظرتُ إلى تلك العينة الأخيرة باهتمام وفضول؛ جسم كبير تظهر عليه آثارُ قوة عضلية كبيرة، ورأس عريض منغولي الشكل له وجنتان كبيرتان ومَحْجِرا عينَين مُربَّعان. حتمًا كان الرجل عظيمَ البنية؛ وحتى في حالته هذه، كان الوجه العريض المُربَّع الشكل يبتسِم إليَّ من الصندوق بوحشيةٍ ابتسامةً عريضة.

صرفتُ وجهي عنه وأنا أرتجِف. فأنا لم آتِ إلى هنا لأشعر بالانزعاج. كنت قد أتيتُ من أجل يوميات تشالونر، أو كما أُطلِق عليها «أرشيف المتحف». كانت المجلَّدات في

الخزانة السِّرية في نهاية الغرفة وكان عليَّ أن أزيل اللوح القابل للإزالة من أجل الحصول عليها. لم يُمثِّل هذا صعوبةً تُذكر. إذ وجدتُ الزهيرتَين اللتين تُحرِّكان المزالج وأزلتُ اللوحَ في طَرفة عين. كانت الخزانة بارتفاع خمس أقدام وبعرض أربع، وفي قعرها تجويف له غطاء، رفعتُ الغطاء، ولدهشتي وجدتُ التجويف مُمتلئًا بالمسدسات الدوارة والمسدسات الأوتوماتيكية والهراوات والبُرجُميَّات وغيرها من الأسلحة، وكلٌّ منها يحمل وسمًا صغيرًا — مطبوعًا عليه رقم وتاريخ — مربوطًا فيه بإحكام. وضعتُ الغطاء ثانيةً بسرعة؛ إذ كان ثمَّة شيء مشئوم بشأن هذه المجموعة من الأدوات القاتلة.

أما المجلدات وعددها سبعة فكانت على الرفِّ العلوي، وهي مجلَّدة بجلد موحَّد من الجلد الروسي وتحمِل ثلاثة منها أسماءَ «صور»، و«بصمات أصابع» و«فهرس» على التوالي، في حين تحمِل الأربعة الأخرى اسم «أرشيف المتحف». وكنتُ على وشْك أن أمدَّ يدي إلى الفهرس حين وقعَت عيني على كومة الصناديق الصغيرة الموجودة على الرفِّ التالي. كنتُ أعرف ما تحويه هذه الصناديق وتذكَّرتُ مُضطربًا الانطباعَ الغريب الذي خلَّفته محتوياتها في نفسي؛ لكنَّ نوعًا من الإغواء جعلني أُنزِل الصندوق العلوي منها — الذي يحمل ملصقًا كُتب عليه «السلسلة ب٥» — ورفعت غطاءه. لكن إن كنتُ قد وجدتُ رءوس الدُّمى المُرعبة تلك غريبةً وخارقة للطبيعة حين أراني تشالونر إيَّاها، فإنني الآن أجدها مُروِّعة على نحوٍ لا يقبل الجدل. فبقدرِ ما كانت صغيرة الحجم — لم تكن بحجم قبضة امرأةٍ مثلًا — كانت تُوحي بأنَّ فيها حياة، أو بالأحرى وكأنَّ فيها موتًا، حتى إنها لم تكن أكثر شبهًا بأي شيءٍ سوى رءوس بشرية يُنظَر إليها من العدسة الخاطئة في التلسكوب. كان ثمَّة خمسة رءوس في هذا الصندوق، كلٌّ منها في مقصورة منفصلة مُبطَّنة بمُخْمَل أسود ومُميَّزة بملصق أسود عليه كتابة بيضاء؛ عدا الرأس الذي في المنتصف، حيث كان يستقرُّ على مُخْمَل قِرْمِزي، وله ملصق أحمر مطبوع عليه بكتابة ذهبية «١٣ مايو، ١٩٠٩».

رحت أنظر إلى ذلك الرأس الصغير في مُحيطه القِرْمِزي بافتتانٍ وارتجاف. كان له وجه صغير شنيع؛ وجه عريض صارم يعود إلى التارتار؛ وشَعْر يختلط لونه بين البُني والرمادي، وهو لون ليس معتادًا بالنسبة لشَعْر البشر، أما الشارب الخشن المنتصِب كشارب القط فقد أضفى على الرأس هيئةً توحي بأنَّ نصفه كان لحيوانٍ ونصفه الآخر كان لشيطان. وضعتُ الغطاء على صندوقه وأعدتُ الصندوق إلى رفِّه، وهُرعت إلى خارج المتحف بعد أن أخذتُ المجلد الأول من مجلدات «الأرشيف».

في تلك الليلة وبعد أن أنهيت عمل اليوم بتناول وجبة عشاء طيبة، عُدت إلى مكتبي وسحبتُ كرسيًّا نحو المِدفأة وفتحتُ المجلد. كان المجلد غير مألوف. في البداية لم أستطِع أن أفهم علاقةَ المحتوى بالعنوان، ذلك أنَّه بدا كسردٍ ليوميات تشالونر الخاصة؛ لكني بدأتُ أرى العلاقة لاحقًا، فأدركتُ كما قال تشالونر أنَّ المجموعة التي عمل عليها لم تكن أكثرَ من تعليقٍ مرئيٍّ على نشاطاته اليومية وتوضيحٍ لها.

بدأ المجلد بسردٍ عن مقتل زوجته والمُلابسات التي أدَّت إليه، وقد كُتِب السرد بنبرةٍ جافة وتفصيلية وجدت أنَّها مثيرة للشفقة بصورةٍ لا نهائية. كانت نبرة باردة المشاعر بصورةٍ قهرية لرجلٍ قوي ينفطِر قلبه. لم تكن هناك تعليقاتٌ، ولا عبارات انفعالية؛ مجرَّد سرد صارم للحقائق، سرد شامل وموضوعي ومحدَّد. ولست في حاجةٍ لأن أقتبس منه هنا لأنه يُعيد تكرار القصة التي أخبرَني بها وحسب، لكنني سأبدأ مقتطفي من النقطة التي توقَّف عندها. كما سنرى، أسلوب السرد مُستمر، ومن الواضح أنَّه مأخوذ من مفكرة يوميات، وحيث نتقدَّم معه مُنبِّهين إلى مرور الوقت، نجد أنَّ الأسلوب الجاف يفسح المجال أمام أسلوبٍ أكثرَ حيوية ويتفق أكثرَ مع طباع الكاتب.

«حين فرغتُ من دفن زوجتي الغالية، انتظرتُ لأرى ما ستفعله الشرطة. ولم يكن لديَّ آمال عريضة. فالنظام الشرطي الإنجليزي يلائم التعامُل مع الجرائم المرتكَبة ضد المُمتلكات أكثرَ من الجرائم المرتكَبة ضد الأشخاص. ولم يُسرَق شيء؛ لذا لا يُوجَد شيء يمكن تتبُّعه؛ كما كانت الأدلة واهيةً للغاية بكل تأكيد. ثم سرعان ما اتَّضح لي أنَّ السُّلطات تخلَّت عن القضية. لم يقدِّموا لي أيَّ أملٍ في أنه سيجري تحديد هوية القاتل يومًا ما؛ وفي واقع الأمر، كان من الواضح أنهم شطبوا القضيةَ باعتبارها ميئوسًا من حلِّها وتوقَّفوا عن متابعة أحوالها.

بالطبع ما كنتُ لأقبل بهذه الفكرة. لقد قُتِلَت زوجتي. ولم يكن هناك تبرير للقتل. فقد ارتُكِبَت الجريمة باستهتارٍ ولامبالاة من أجل التغطية على سرقة زهيدة. وصحيح أنه لا يمكن التعويض عن جريمة القتل. لكنَّ ثمة عقابًا مناسبًا ينبغي توقيعه؛ وإن أخفقت السُّلطات في توقيعه، فإنَّ هذه المهمة تقع على عاتقي أنا. عِلاوةً على ذلك، فإنَّ الشخص الذي يرتكب جرائمَ القتل بهذا القدْر من الاستهتار أثناء تأديته لعملِه لا يصلح لأنْ يعيش في مجتمع مع البشر. كان من الجلي أنَّ واجبي باعتباري مواطنًا صالحًا هو التخلُّص من هذا الشخص الخطير.

كان لا بأس بكل هذا من الناحية النظرية، لكن تحقيقه عمليًّا انطوى على صعوبات جمَّة. إذ (من المفترض) أنَّ الشرطة بحثت عن ذلك الشخص وأخفقت في أن تجده. فكيف لي أن أنجح فيما أخفق فيه الخبراء وأنا لم أتلقَّ تدريبًا على التتبُّع والتَّحري؟ فتأمَّلت مواردي. كانت عبارة عن إبريق شاي فضي وصينية تقديم كان اللص قد أمسك بهما، وهما معًا يُقدِّمان مجموعةً كاملة من البصمات، إضافةً إلى خُصلة الشَّعر التي أخذتها من يد زوجتي المغدور بها. صحيح أيضًا أن الشرطة حصلت على بعض الأواني الفضية التي عليها بصماتٌ وعلى بقية الشَّعر وأخفقت في تحقيق أي شيء بوسائلها؛ لكن مَن هم خارج دوائر العلماء لم يضعوا بعدُ البصماتِ موضعَ تقدير باعتبارها أداةً لتحديد الهُوية.[1] فأخرجت إبريق الشاي والصينية من الدُّرج الذي كنت قد وضعتهما فيه وفحصتهما مجددًا. كان القاتل قد أمسك بإبريق الشاي بكلتا يدَيه، وكان الإبريق يحمل مجموعةً كاملة من بصمات الأصابع؛ وكانت صينية التقديم تكمِّل تشكيلةَ هذه البصمات. ولمزيدٍ من التأمين، صوَّرت مجموعة البصمات كلها تصويرًا فوتوغرافيًّا وصنعتُ طبعات بلاتينية وضعتها في ملفٍّ من أجل الرجوع إليها مستقبلًا. ثم حوَّلت انتباهي إلى الشَّعر. كنتُ قد لاحظت بالفعل أنه ذو لون رمادي باهت، لكن الآن، حين نظرتُ إليه عن كثَب، وجدت لونه غريبًا حتى إنني أخذته إلى النافذة وفحصته تحت عدسة.

وكان ما وجدتُ يُمثِّل اكتشافًا مذهلًا بحقٍّ. كان الشَّعر حلقيًّا. فمظهره الرمادي لم يكن سببُه الاختلاط المعتاد بين الشَّعر الأسود والأبيض، بل يعود إلى حقيقةِ أن كل شَعرة منفصلة تتميَّز بحلقاتٍ متبادلة من الأبيض والأسود. ويشيع وجودُ الشَّعر المُرقَّط في الحيوانات الدنيا التي يكون هناك نمط على فرائها. فالقط العتَّابي يقدِّم مثالًا شائعًا ومألوفًا على ذلك. لكن في البشَر، يندُر تمامًا وجود هذه الحالة؛ لذلك أصبح من الواضح أنني أمتلِك وسائلَ ناجعة لتحديد هوية القاتل، بامتلاكي لتلك البصمات والشَّعرات. لكن تحديد هُوية الشخص تنطوي على أن يكون هذا الشخص بحوزتك. وهنا تكمُن الصعوبة. فكيف سأتغلَّب على هذا؟

إنَّ المجرمين كالهوام. فهم يتمتَّعون بنفس خصائصها؛ نشاط غير مُثمر مقترن بقدرة كبيرة على الإفساد والتدمير. وكما سيقرض الجُرَذ لوحةً من لوحات هولباين أو

[1] يبدو أنَّ السَّرد قد كُتِب في عام ١٨٩٠. — إل دبليو

ينخر المخطوطة الفاتيكانية من أجل أن يصنع لنفسه وكرًا، فإنَّ المجرم المُحترف سيُذيب الأواني النفيسة من العصور الوسطى ليبيعها بالجملة مقابل بضعة شلنات. التشابُه هنا واضح.

والآن كيف نتعامل مع الهوام — مع الجُرَذ على سبيل المثال؟

أندخُل إلى وكره ونحاول التواصلَ معه بالمنطق؟ هل نسعى جاهدين إلى السمو ببوصلته الأخلاقية؟ كلَّا على الإطلاق. بل نستدرِجه للخروج. وحين يفعل، نحرص على ألا يعود. باختصار، ننصب له فخًّا. وإن لم يكن الجُرَذ الذي سنُمسك به هو المنشود، فإننا نُعيد الكرَّة.

هكذا بالتحديد. تلك هي المقاربة الأفضل.

كانت خادمتي قد فرَّت من المنزل وقتَ وقوع الجريمة؛ لا شكَّ أنها كانت متواطئةً مع القاتل. وكانت طاهيتي قد غادرت في اليوم نفسه، وذلك بعد أن راعَها ما شهدت من حدثٍ مُرعب. ومنذ ذلك الحين وقد استبدلت بهما خادمة نهارية. لكنني سأحتاج إلى وجود خادمة وطاهية، وإن تصرَّفت على نحوٍ حكيم في مسألة فحص خلفية المتقدِّمين، فقد أتمكَّن من الحصول على نوعية الأشخاص الذين سيكونون عونًا لمُخطَّطي. ذلك أن هناك جرذانًا إناثًا كما أن هناك ذكورًا.

لكن كان ثمَّة تدابير أولية عليَّ اتخاذها. كان يتعيَّن عليَّ الانتباه إلى حالتي الجسدية. عندما كنتُ شابًّا، كنتُ رياضيًّا من الدرجة الأولى، وحتى الآن، ما زلتُ أتمتَّع بالقوة والنشاط الكبيرَين. لكن يتعيَّن عليَّ ممارسة التدريبات الرياضية واستعادة مهاراتي في المصارعة والملاكمة. ثم بعد ذلك يتعيَّن أن أُنصِّب أجهزة إنذار ضد السرقة، وأُعِدَّ بعض اللوازم الصغيرة وأُوفِّر لنفسي أداةً مناسبة للتعامل مع «الطريدة».

وقد باشرتُ أمرَ هذه الأخيرة على الفور. إذ أتيت بقرن وحيد قرنٍ طوله قرابة قدمَين وثبَّتُّ في طرفه كُعبُرة من الرصاص تزن رطلين. ثم غلَّفت الكعبُرة بطبقةٍ سميكة من شَعر الخيل المُضفَّر، وعليها ربطت غطاءً من الجلد القوي؛ وحين أضفْتُ رباط مِعصم، أصبحت أداةً صالحة للاستخدام فعلًا. وكان الغرض منها معروفًا. كانت الأداة شكلًا مطوَّرًا من تلك الأداة البسيطة المُسمَّاة بكيس الرمل التي يستخدِمها المجرمون لإحداث ارتجاجٍ بالمخ من دون إصابة الجمجمة بكسور. يُمكنني أن أُسميها المِربات.

وكانت التدابير الأولية تمضي قُدمًا باطراد. فاشتركت في صالة رياضية مدة أسبوعَين تحت إشراف البروفيسور سنايب، الهرقل البافاري؛ وتدرَّبت على أكثر «الضربات القاضية»

شيوعًا التي يعرفها مُدرِّبي، الملاكم الشهير ميلتشيزيديك كوهين (المشهور باسم كوهين «المراوغ»)؛ وخصصتُ ساعةً في اليوم للتدرُّب على استخدام المِربات بمساعدة كرة اللكم؛ كما كانت أجهزة الإنذار جاهزةً للتثبيت والتركيب، حتى إنني حصلتُ على عنوانِ خادمةٍ شائنة السمعة، وذلك حين حدث أمرٌ غير متوقَّع. تسنَّت لي فرصة تجربة كل ذلك قبل الشروع بتنفيذ المُخطط. إذ دلف أحدهم إلى الفخِّ من دون حتى أن يُحمِّلني عناء نَصبِه.

وقد وقع الأمر على النحو التالي. كنتُ قد ذهبت إلى الفِراش في وقتٍ مبكِّر ورُحت في النوم على الفور، لكن عند الواحدة ليلًا تقريبًا استيقظتُ وكنت في حالة وعيٍ تامٍّ تُنذِر بأن أجفاني لن تذوق النوم مرةً أخرى ليلتها. فأشعلت شمعةَ المصباح وبحثتُ حولي عن الكتاب الذي كنت أقرؤه في المساء، وحينها تذكَّرت أنني تركته في المتحف. وكان هذا الكتاب قد أثار اهتمامي بشدة. إذ كان يحوي أوضحَ وصفٍ وقَعتْ عليه يدي عن قبائل موندوروكو الهندية وطريقتهم المُثيرة للفضول في حفظ رءوس أعدائهم المقطوعة؛ وفيها يجري تقليصُ حجم الرأس — بعد نزع العِظام عنها — حتى يُصبح الرأس في حجم قبضة اليد.

نهضتُ وأخذت مفاتيحي ومصباحي وتوجَّهتُ إلى جناح المتحف الذي كانت حجرة الطعام تُفضي إليه. وقد وجدتُ الكتاب، لكن وبدلًا من أن أعود على الفور، تباطأت قليلًا في المتحف ورحتُ أنظر في أرجاء الغرفة الكبيرة وإلى المجموعة غير المُكتملة وأتذكَّر في كآبةٍ الذكريات التي تثيرها. كان المتحف هديةً من زوجتي. إذ كانت قد أنشأته والمُختبر الكبير بعد وقتٍ قصير من زواجنا وقد قضينا فيه معًا ساعاتٍ مبهجة ومُمتعة كثيرة، نُرتِّب العينات الجديدة في صناديقها. لم أكن أسمح لها بالعمل في المختبر الكريه الرائحة، لكنها كانت تملك مجموعةً خاصة بها من الصَّدف الأرضي أو الخاص بالماء العذب (التي كان التعامل معها أكثرَ نظافة من التعامل مع العظام)؛ سحبتُ بعض الأدراج من الخزانة الخاصة بها، وبينما كنت أقلِّب بصري بين الصَّدف وأنا أفكِّر في الأيام السعيدة التي قضيناها ونحن نتجوَّل على ضفاف النهر أو في الأراضي الأخرى بحثًا عنها، انتبهتُ إلى صوت حركة خافتة مصدره غرفة الطعام.

تقدَّمت بخطواتٍ خفيفة في الرواق المؤدي إلى غرفة الطعام وأنصتُّ السمع. كان الباب الواصل بين المتحف والحجرة مغلقًا، لكن من خلفه تمكَّنت من تمييز صوتِ شخصٍ يتحرك في الأرجاء وبين الحين والحين كنتُ أسمع قرقعةَ معادن. فهُرعت إلى المتحف — إذ كان خُف النوم ذو النعل المصنوع من اللباد لا يُحدِث أيَّ صوت — وأخذتُ المِربات

من الدُّرج الذي كنت قد أخفيتُه فيه ودسستُه في حزام رداء النوم الخاص بي. ثم تسللتُ عائدًا إلى الباب.

كانت الأصوات الآن قد توقَّفت. فاستنتجتُ أنَّ اللص — ذلك أنه لا يمكن أن يكون أحدًا آخر — قد ذهب إلى حجرة المؤن حيث تتواجَد خزانة الأواني الفضية. هنا أدرتُ مزلاج ييل، وفتحتُ الباب في هدوءٍ شديد. كان من عادتي أن أحافظ على تزليق كل الأقفال والمُفصَّلات بالزيت، ومن ثمَّ انفتح الباب من دون أن يُحدِث أيَّ صوت. لم يكن هناك أحد في غرفة الطعام؛ لكن كان أحد مشاعل مصباح الغاز موقدًا، وكان ثمة العديد من الأواني الفضية على الطاولة، تمامًا كما كانت حين قُتلت زوجتي. فواربتُ باب المتحف — لم أستطِع أن أُغلقه بسبب الصوت الذي كان المزلاج الزنبركي سيُحدثه — وانسللتُ خلف حاجزٍ ذي تصميم ياباني كان بالقُرب من باب حجرة الطعام. لم أكد أستقر في مكاني حتى بدأت تقترب خطواتٌ مُتسللة مصدرها الرَّدهة. دلفتِ الخطوات الغرفة ثم جاء صوت قرقعة خافت. نظرت خلسةً وبحذَر من خلف الحجز، فوقعَت عيني على ظهر رجل كان واقفًا بجوار الطاولة التي وضع عليها عددًا من الملاعق والشُّوَك والشمعدان من دون أن يُحدِث أي صوت. ورغم أن ظهره كان باتجاهي، فإنني استطعتُ رؤيةَ وجهه بوضوح من خلال مرآة كانت على الجدار المقابل؛ كان وجهه جامدًا وخاليًا من التعبير، وكانت هذه هي الأوصاف التي ربطتُها بمعتادي الإجرام من الإنجليز؛ وجوه الأشخاص الذين حُكِم عليهم بالأشغال الشاقة.

كان الرجل حَذِرًا في عمله. إذ كان يقلِّب كل قطعة ويُمعن النظر فيها، ويزنها في يده ويولي انتباهًا خاصًّا إلى الدمغة عليها. وبينما أنا أرقُبه، واتتني فكرة أنه ربما يصدِف أن يكون هذا هو الحقير نفسه الذي قتل زوجتي، وأنه عاد ليستوليَ على بقية الغنائم التي تَعيَّن عليه أن يتركها حينها. كان هذا الاحتمال قائمًا، بل وكان مُرجحًا، فدبَّت الدماء في وجهي من هذه الفكرة، واجتاحتني متعةٌ غريبة وشعواء لم أعهد مثلها من قبل. كان من المُمكن أن أرفع صوتي بالضحك، لكنني لم أفعل. وكان بإمكاني أيضًا أن أُرديَه بسهولةٍ وهو واقف، لكنني لم أفعل. فلماذا لم آتِ على فعل ذلك؟ أكان هذا إحساسًا غامضًا بداخلي بتحري الإنصاف؟ أم كان أقربَ إلى غريزة القط، التي تدفعني إلى التلاعُب بطريدتي؟ لا تسعني الإجابة على وجه التحديد. كل ما أعرفه أن فكرة توجيه ضربةٍ له من خلفه لم ترُق لي.

بعد ذلك ذهب الرجل (الذي كان يرتدي خُفَّين من القماش) ليُحضر المزيد من الغنائم. حينها خرجتُ من مخبئي بدافعٍ من المزاح، وجمعتُ عددًا من الملاعق والشُّوَك وملَّاحةً وشمعدانًا وطبقَ تقديم رئيسيًّا وعُدت مرة أخرى خلف الحاجز. ثم عاد صاحبنا ومعه المزيد من الأشياء؛ وبينما هو يُطالع القِطع الجديدة بلهفة، تسللتُ في صمتٍ وخرجت من الجهة الأخرى من الحاجز، وخرجتُ من الباب المفتوح وتقدَّمت في الرَّدهة حتى وصلتُ إلى غرفة المؤن. كانت هناك شمعة مُشتعلة تضيء المكان فرأيت خزانة الأواني مفتوحة وقد فرغ نصفها، وكان هناك عدد من الأواني على طاولة جانبية. وبسرعة وهدوء، أعدتُ الملاعق والقطع الأخرى التي جمعتُها إلى الخزانة، ثم تسللتُ عائدًا إلى مكاني خلف الحاجز وعاودتُ مراقبة الرجل.

كان ضيفنا منهمكًا بشدةٍ في مُهمته. وكانت له عادة — أعتقد أنها شائعة بين «مرتادي السجون» — أنه كان يتحدَّث إلى نفسه؛ وكانت محادثته لنفسه بائسة جدًّا، رغم أنها كانت أفضل من قُدرته على الحساب، حيث فهمتُ من محاولاته أنه كان يحسب وزن الغنيمة. وسرعان ما عاد الرجل ليأتيَ بحفنةٍ أخرى من الأواني، ومرةً أخرى خرجت من مخبئي وجمعتُ بعضَ ما جاء به؛ وحين عاد محملًا بالمسروقات، ذهبتُ أنا كما ذهبتُ من قبل ووضعتُ الأشياء في خزانتها.

كرَّرتُ هذه الحيلةَ عددًا كبيرًا من المرات. حتمًا كان الرجل شديدَ الحماقة، وهذا اعتقادي بشأن معظم المُجرمين المُحترفين. كان افتقاره إلى الملاحظة مثيرًا للذهول. والواقع أنه بدأ يشعر بالاستغراب والحيرة. حتى إنه قال: «يبدو أنَّ هناك الكثير والكثير من تلك الأشياء»؛ وأصبحت جودة عملياته الحسابية والتعبير عنها بالألفاظ بَشِعَين على حدٍّ سواء. أظنُّ أنه كان سيستمر في فعله حتى بزوغ النهار إن لم أحاول أن ألفت انتباهه كثيرًا باستخدام إبريق شاي يعود إلى الملكة آن. كان ذلك الإبريق بتصميمه البارز الذي يتَّخذ شكلَ جرَّة هو ما نبَّهه في النهاية إلى واقع الأمر. كنتُ قد عُدت للتوِّ من إرجاعه إلى الخزانة للمرة الثالثة حين لم يجده الرجل؛ وقد أعلن عن اكتشافه باختفاء الإبريق بسيلٍ من الألفاظ غير الضرورية على الإطلاق والبذيئة إلى حدٍّ بعيد.

صاح بعنف: «ما الأمر؟! أين ذهب ذلك الإبريق اللعين؟ اللعنة! لقد وضعتُ ذلك الإبريق اللعين مع طبق التقديم — وأين ذهب ذلك الطبق؟ اللعنة، لقد اختفى هو الآخر!»

وقف الرجل إلى جوار الطاولة يحكُّ شَعره الخشِن وقد بدت عليه أمارات الحيرة المُثيرة للسخرية. أخذت أرقبه وأنا أُفكِّر إن كان عليَّ استغلال الفرصة فأُرديه. لا شكَّ

أن هذا كان هو التصرُّف السليم. لكنني لم أستطِع حمل نفسي على فعله. إذ استحوذ عليَّ إحساس جارف بالرغبة في إلحاق الأذى؛ شعور غريب وغير مألوف بالابتهاج ورغبة كاسحة في المشاكسة أرغماني على الإتيان بحِيَلٍ جنونية وعجيبة. لقد كانت تلك ظاهرة فريدة. بدا لي فجأةً أنني اكتشفتُ ازدواجية مجهولة في شخصيتي لم أكن أعرفها حتى الآن.

وقف اللص برهةً يُغمغم في بلاهة، ثم انتقل إلى حجرة المؤن. فخرجتُ وتبِعته إلى داخل الرَّدهة المُظلمة ثم وقفتُ خلف ستارة وانتظرت عودته. عاد بعد قليل، ورأيت من خلال بريق الضوء الآتي من الباب المفتوح أنه أتى بالإبريق وطبق التقديم. كان مُستأجرٌ قديم للمنزل قد زوَّد باب حجرة الطعام بمزلاجين خارجِيَّين؛ لم أستطِع أن أتخيَّل سببًا لذلك؛ لكن وسوست لي نفسي في ظلِّ الظروف الحالية أن أستخدمهما. فبمجرد أن دلف اللصُّ من الباب، تسلَّلتُ وأغلقت الباب بهدوء، وأوصدت المزلاج الأول.

أثار هذا حفيظةَ صديقنا. إذ هُرع إلى الباب وأخذ يهزُّه بعنف كالمجنون؛ وأخذ يسبُّ بطلاقةٍ مذهلة ووجَّه لي كلامًا لا تكفي صفةُ الوقاحة لوصفه. ثم أغلقت المزلاج السفلي في صمتٍ وفتحت الأعلى بصوتٍ مسموع. فظنَّ صاحبنا أنني فتحت المزلاج، وحين وجد أنني لم أفعل، أصبح سِبابه لا يُوصَف.

كان ثمَّة باب آخر لغرفة الطعام يُفضي أيضًا إلى الرَّدهة على الجانب الآخر. وقد بدا أن أسيري تذكَّر وجودَ هذا الباب فجأة، فقد جرى نحوه بسرعة. لكنني جريت أنا أيضًا نحو الباب، وحيث لم يكن هناك في الرَّدهة أثاث يُعيق حركتي، وصلت إلى الباب قبله وأوصدت المزلاج العلوي. أخذ يحاول اقتلاعَ مِقبض الباب بعُنف ونعتني بأوصافٍ غريبة وغير لائقة. فكرَّرتُ حيلةَ التظاهر بفتح الباب، وابتسمتُ حين سمعته وهو ينتفض من شدةِ ما به من حنق. بدا الأمر مُسليًا للغاية في ذلك الوقت، وإن كنت أراه الآن سخيفًا وأنا أتذكَّره بأثر رجعي.

وفجأة، توقَّفت جميع محاولاته وسمِعته وهو يتراجع. فعُدت إلى الباب الآخر، لكنه لم يحاول مجددًا أن يفتحه. أنصتُّ ولمَّا لم أجد صوتًا، تذكَّرت باب المتحف المفتوح. على الأرجح أنه ذهب إلى المتحف ليبحث عن مخرج. لا يُمكنني السماح بهذا. لم أكن أهتم لأمر الأواني الفضية إطلاقًا، لكن عيِّنات المتحف كانت أمرًا مختلفًا تمامًا؛ وقد يُلحِق بها اللص الضرر لمجرد تعمُّد الأذى.

ففتحتُ مزلاجَ الباب ودخلت الحجرة وأوصدت البابَ ثانية من الداخل ووضعت المفتاح في جيبي. ولم أكد ألتفت حتى ظهر الرجل عند باب المتحف، يرمقني بحذرٍ

ويُحاول إخفاء ارتدائه لبرجمية في يده اليسرى. كنت قد لاحظتُ أنه ليس أعسرَ، فرُحْت أستنتج ما يريد صاحبنا أن يفعل بيمناه. وقفنا بضع ثوانٍ في مواجهة بعضنا البعض، ثم بدأ هو يتحرك نحو الباب. فانسحبت أنا جانبًا وهُرع هو نحو الباب وأدار مقبضه. وحين وجد أنَّ الباب كان موصدًا، أصابه حَنَق شديد. تقدَّم الرجل نحوي وهو يُهددني بيسراه المقبوضة، لكنه بعد ذلك تراجع. على الأرجح أنه أُصيب بالرهبة حين رآني أبتسِم وقد فعلتُ به ما فعلت. أظنُّ أنه اعتقد أنني مخبول؛ في الواقع، أشار صاحبنا إلى ذلك بكلماتٍ فظَّة لم يُحسِن اختيارها. لكن كلماته كانت محدودة للغاية، وإن كانت طريفة.

تبادلنا بعضَ الكلمات، لكنني رأيتُ أن نبرتي لم تكن تروق له. كانت رؤية البرجمية قد غيَّرت حالتي المزاجية. إذ لم أعد أشعر بالرغبة في المشاكسة. لقد أعادني إلى غايتي الأولى. وقد عبَّر الرجل عن رغبته في مغادرة المنزل وأن يعرف «ما أريد». أجبتُه بأنني أريده هو، وأنه صار في المصيدة، وهنا جرى نحوي وسدَّد ضربة قوية إلى رأسي بيسراه المُسلَّحة بالبرجمية التي لو وصلت إلى هدفها لأفقدتني وعييَ على الفور. لكنها لم تُصِب الهدف. إذ اتَّقيتُها بسهولة، وسدَّدت له ضربة مضادة أرسلته للخلف وهو يلهث.

استشاط الرجل غضبًا. فأتى نحوي كحيوانٍ ضارٍ يفغر فاه وقد رفع قبضته المسلَّحة وكأنه قد أراد سحقي. حاولت التعامُل معه بأسلوب السيد كوهين المراوغ، لكن من دون طائل. فالرجل لم يكن ملاكمًا، كما كان مسلحًا بالبرجمية. ومن ثمَّ التحمنا كقردَين يتصارعان، وحاول كلٌّ منَّا إلحاق إصاباتٍ عنيفة بالآخر. أخذ الرجل يُصارعني ويتلوَّى ويهدر ويركل، بل إنَّه حتى حاول أن يعضني؛ في حين حاولت أنا قدْر استطاعتي السيطرةَ على مِعصمَيه متحينًا فرصتي. كان العراك شديد العنف. إذ رحنا نتهاوى على بعضنا مقبلَين ومدبرَين، وكلٌّ منا يمسك بخناق الآخر؛ واندفعنا بهمجيةٍ في أرجاء الغرفة؛ فأسقطنا الكراسي واصطدمنا بالطاولة وصدم كلٌّ منَّا رأس الآخر في الجدران؛ وطوال الوقت، وبينما كان خصمي يَهدِر فاغرًا فاه وقد بدت أسنانه ككلبٍ بريٍّ، كنت أنا أشعر بإحساسٍ غريب بالاستمتاع الجسدي كالذي يجده المرء حين يُمارس لعبة شاقة. بدا أنني اكتسبتُ شخصيةً جديدة وغير مألوفة بالنسبة لي.

لكن البرجميَّة كانت تُمثِّل صعوبةً وأزمة؛ حيث كان يتحتَّم عليَّ أن أحذر من يده اليُمنى؛ ومع ذلك، لم أستطِع أن أترك يده اليسرى ولو لحظةً وهي مسلَّحة بذلك السلاح البائس. وهكذا ظللتُ ممسكًا بمِعصميه بينما كافح هو من أجل أن يُحرِّرهما مني، وأخذنا نجذب بعضنا نحو الأمام والخلف ودُرنا حول بعضنا بحماقة وقلة خبرة، كلٌّ يُحاول

أن يُسقِط الآخر، وقد باءت محاولاتنا جميعها بالفشل. أخيرًا، وبينما جُبنا أرجاء الغرفة عراكًا، اصطدمنا بالباب المفتوح المُفضي إلى المتحف؛ وهناك سقطنا سقوطًا مُدويًا ارتجَّ له المنزل.

كان من سوء الحظ أنني سقطتُ تحته؛ لكن ورغم صدمة السقوط، تمكَّنت من الحفاظ على معصمَيه في قبضتي، وإن كنتُ قد واجهت صعوبةً في منعه من أن يعضَّ يديَّ ووجهي. ظللنا على وضعنا هذا برهةً، وكنَّا لا نزال نتلوَّى بطريقةٍ فوضوية حتى سمِعنا صوت خطواتٍ تهبط على الدَّرج. توقَّف اللص لحظةً من أجل أن يُنصت، ثم وبجهدٍ مفاجئ، حرَّر اللص يُمناه وأدخلها بسرعة في جيبه الخلفي وأخرجها وهو يُمسك بمسدس دوَّار صغير. وفي الحال سدَّدتُ ضربة بيسراي نحو أسفل ذقنه فأزحته من مكانه فوقي؛ وبينما هو يسقط، جاء وميضٌ ثم صوت طلقة نارية من مُسدَّسه تبِعهما تحطُّم الزجاج، وتلاها على الفور صوت إغلاق الباب الأمامي بقوة. فتركتُ يده اليُسرى ونهضتُ على ركبتيَّ وأمسكت بالمُسدس بيدي اليسرى، بينما أخرجت المِربات بيمناي وسدَّدت ضربةً عنيفة إلى أعلى رأسه. هوى الثِّقَلُ المبطَّن على رأسه من دون أي صوت — عدا صوت اصطكاك أسنانه — وكان تأثير الضربة فوريًّا. فنهضت وأنا ألهث وقد شعرتُ برضًا كبير تجاه كفاءة أداتي، حتى لاحظت أنَّ الرجل الذي فقد وعيه ينزف قليلًا من أذنه؛ فعرفت من هذا أنني سدَّدت ضربة شديدة القوة حطَّمت بها قاعدة جمجمته.

ومع ذلك، كان همي الأول هو التحقُّق مما إذا كان هذا الرجل هو المنشود. وفي الممر كان الظلام شديدًا فلم أستطِع أن أتبيَّن أطراف أصابعه ولا ملمس شَعره؛ لكن من شأن مصباحي ذي الشمعة بعاكِسه الإهليلجي أن يوفِّر لي ما يكفي من الضوء. فجريتُ إلى المتحف وكانت شمعة المصباح لا تزال مُشتعلة، فأمسكت بالمصباح وهُرعت عائدًا؛ وما كدتُ أصل إلى الجثة الهامدة حتى سمعتُ صوت أحدهم يفتح الباب الأمامي بقوةٍ باستخدام مفتاح. كانت الخادمة النهارية قد عادت من دون شكٍّ ومعها الشرطة.

كنتُ لا أعرف ما أريد أن أفعل. أعتقد أنه لم تكن هناك نيةٌ مُحدَّدة لما أريد القيام به، بل تصرَّفت بصورةٍ تلقائية مدفوعًا برغبتي في تحديد هُوية اللص. فما كان منِّي إلا أن أوصدتُ باب المُتحف بهدوءٍ شديد، باستخدام المفتاح، وفتحت بابَ حجرة الطعام.

دلف رجلُ شرطةٍ ورقيب وضابط يرتدي ملابسَ مدنية إلى الغرفة وتخلَّفت الخادمة في الخلفية المُظلمة.

سأل الرقيب بإلحاح: «هل هرب اللصوص؟»

فقلت له: «كان لصًّا واحدًا.»

وبمجرد أن سمعوا ذلك أسرعوا يُحاولون اللَّحاق به وقد سمعتُهم يهبطون نحو القبو. ودخلَتِ الخادمة وحدَّقت فيَّ وفي هيئتي الرَّثة بشماتة، وكانت هيئتي تحمل آثارًا من كل زاويةٍ ومكان في الغرفة.

وقالت: «من المؤسِف أنكَ نزلتَ من غرفتك يا سيدي. كان بالإمكان أن تلقى حتفَك كما حدث مع زوجتك الراحلة. من الأفضل أن تترُك مثل هؤلاء الناس وشأنهم. هذا رأيي. كما يقول القائلون، دعهم وشأنهم وهم سينصرفون.»

كان تعليقها هذا صحيحًا بدرجةٍ كبيرة، خاصةً آخر ما قالت. عبَّرتُ عن تسليمي بصحة ذلك بدرجة طفيفة، في حين راحت المرأة ترمق أرجاء الغرفة المدمَّرة في ذهول. ثم عاد اثنان من رجال الشرطة الثلاثة وباشرا التحقيقات بصحبة صفارات الشرطة البعيدة التي كان مصدرها الجزء الخلفي من المنزل.

قال الضابط ذو الملابس المدنية بابتسامةٍ خافتة: «لست في حاجة أن أسألك إن كنتَ قد رأيتَ الرجل.»

وقال الرقيب: «كلَّا، أنت محقٌّ. لقد حمل عليك حملةً شديدة يا سيدي. يبدو أنها كانت معركة حامية.» ثم رمق أرجاء الغرفة وأضاف: «كما أنه أطلق رصاصة أيضًا، كما أخبرتنا مُدبِّرة منزلك.»

فأومأتُ باتجاه المرآة المُهشَّمة لكنني لم أعلِّق، وباشر الضابط تحقيقاته بعد أن علَّق بأنني أبدو «متزعزعًا ومصدومًا». أخذتُ أشاهِد الرجلَين دون اهتمام. لم أكن مهتمًّا بهما كثيرًا. كنتُ أفكِّر في الرجل الراقد على الجانب الآخر من باب المتحف وأتساءل إن كان له شَعر حَلْقي.

بعد قليلٍ أعلن الضابط ذو الثياب المدنية أنه حقَّق اكتشافًا. فقال: «انظروا، هذه حقيبة مصنوعة من السجاد.» وأخرجها من تحت الطاولة ورفعها تحت المصباح الغازي ليفحصها؛ ثم انفجر يقهقه بصوت مرتفع ومبتهج.

فقال الرقيب: «ما الأمر؟»

«عجبًا، إنها حقيبة جيمي آرتشر.»

«أحقًّا؟!»

«أجل. لقد أراني إياها بنفسه. أعطتها إياه «جمعية إغاثة السجناء المُفرَج عنهم» ليحمل فيها أدواته. ها! ها! رباه!»

فحص الرقيب الحقيبةَ باهتمام كبير وابتسامة، وازدادت ابتسامته حين أخرج زميله مثقابًا يدويًّا وعددًا من قِطَعِه بمقاسات مختلفة وعتلة صغيرة وبعض الأدوات الأخرى. سجَّلتُ اسم اللص في ذهني، وبعدها فتر اهتمامي ثانيةً. وأخذ الضابطان يفحصان الغرفة معًا، وحاولا فتح باب المتحف ولاحظا أن أحدًا لم يعبث به؛ وفحصا الأواني الفضية وعابا عليَّ حماقتي أنني جعلتُ الوصول إليها سهلًا؛ وفي نهاية المطاف رحلا بعد أن وعداني أن يأتيَ إليَّ في الصباح مُفتش المباحث، وحتى هذا الحين تركا معي فردَ الشرطة ليحرس المنزل.

كنت سأبتهج إذا ما استطعت التخلُّص من ذلك الشرطي، خاصة أنه استقرَّ في غرفة الطعام وبدا أنه يريد التحدُّث، وهو الأمر الذي لم أكن أريده. كان وجوده يَضطرني إلى الابتعاد عن المتحف. فلم أستطِع أن أفتح الباب؛ لأن اللصَّ كان يرقد خلف الباب تمامًا. كان الأمر مُثيرًا للغيظ الشديد. كنت أريد أن أطمئن إلى أنَّ الرجل مات بالفعل، وبصورة خاصة، كنت أريد أن أفحص شَعره وأقارن بصمات أصابعه بالمجموعة التي كانت بحوزتي بالمتحف. رغم ذلك، لم أستطِع فِعل أيٍّ من هذا. وفي نهاية المطاف، أخذتُ مصباحي من على نضد المائدة وصعدتُ إلى فراشي، وتركت الشرطي جالسًا على الكرسي ومعه علبة سيجار وقنينة ويسكي وسحَّاحة مياه فوارة عند مرفقه.

ظللتُ مستيقظًا فترةً طويلة أتأمَّل الوضع. هل كان الرجل الذي وقع في الفخ هو الرجل المنشود؟ هل أتممتُ مهمتي، وهل أنا الآن حرٌّ في «إنهاء» عَقد حياتي المُدمَّرة؛ بلُغة المُحامين؟ كانت تلك هي الأسئلة التي سيُجيب عنها نور الصباح؛ من جهة أخرى، كان هناك شيء واحد واضح: أنني مُلتزم بالتخلُّص من ذلك اللص الميت. لم يكن باستطاعتي إظهارُ الجثة الآن؛ وسيتعيَّن عليَّ مواراتُها بأفضلِ ما يُمكنني.

لم تمثِّل هذه المسألة أي صعوبة بالطبع. إذ كان هناك فرنٌ للطين الحراري في المختبر، وكنتُ معتادًا على التخلُّص فيه من النفايات الضخمة من مُستحضراتي. ومن شأن قنطارٍ أو نحو ذلك من فحم الأنثراسيت أن يُحوِّل الجثة إلى رماد؛ رغم هذا — في الواقع، بدا لي أنَّ مِن التبديد والسَّفه القيام بهذا. فلطالما كنتُ معارضًا لحرق جُثث الموتى وتدمير المواد التشريحية تدميرًا عشوائيًّا وغاشمًا. وها أنا ذا أقترح على نفسي الآن مُمارسةَ ما أُعارضه بشدَّة. فتأمَّلت في هذا الأمر. هذه الجثة هي عيِّنة جاءت إلى عتبة بابي، كلَّا، بل إلى مُختبري. فلماذا أُدمِّرها؟ ألا أستطيع تحويلها إلى شيءٍ يفيد تقدُّم العلم؟

تأمَّلت هذا السؤال طويلًا. هذه عيِّنة. لكن عيِّنة لأي شيء؟ أنا لستُ تاجر تحف وأشياء نادرة، ولستُ بجامع أشياء تافهة وغير ذات معنًى. ينبغي أن تكون للعينة قيمة حقيقية. والآن ما القيمة الحقيقية التي تُقدِّمها هذه العيِّنة؟ أدى طرحُ السؤال بهذه الطريقة إلى ظهور إجابةٍ له في لمح البصر.

إنَّ علم الأنثروبولوجيا الجنائية علمٌ غير مدعوم دعمًا كافيًا بالصور والعينات. إن عددًا قليلًا من الصور الفوتوغرافية البائسة والجماجم البالية لُمجرمين مَنسيين (مثل شارلوت كورديه) هي ما تُمثِّل الأساس الذي يبني عليه علماء الأنثروبولوجيا الجنائية تعميماتهم غير المُرضية. لكنَّنا هنا أمام عيِّنة أصيلة لها تاريخ حياتي يُمكن تتبُّعه. ولا ينبغي أن تضيع هذه العينة ولا يستفيد بها العلم. لن يحدث هذا.

ثم سرعان ما اتخذَت أفكاري منعطفًا جديدًا. كنتُ مهتمًّا اهتمامًا عميقًا بالسرد الذي قرأتُه عن الطريقة العبقرية التي يحفظ بها هنود الموندوروكو رءوس أعدائهم المقطوعة. لسوء الحظ كان الكتاب لا يزال في المتحف، لكنني كنتُ قد قرأت السرد كلَّه، وتذكَّرته الآن. حين يَقتل مُحارب المونودوروكو عدوًّا له، كان يقطع رأسه بسكينٍ عريض من الخيزران ويحفظه على النحو التالي: ينقع الرأس لبعض الوقت في زيتٍ نباتي غير قابل للأكسدة؛ ثم يسلخ العظام والعضلات كما يستخلص مُحنِّط الطيور الجسمَ من الجلد. ثم يملأ الرأس الذي أصبح الآن مجوَّفًا بالحصى الساخن ويُعلِّقه ليجفَّ.

وبتكرار هذه العملية الأخيرة مراتٍ كثيرة، يتضاءل الرأس تدريجيًّا وبصورة مُتماثلة حتى يتقلَّص إلى حجم قبضة اليد أو حتى أقل، لكن الملامح تبقى محفوظة كما هي تقريبًا. وأخيرًا يُزيَّن الرأس الصغير بريشٍ ألوانه زاهية — كانت قبائل الموندوروكو ماهرة للغاية في التزيين بالريش — ويُحكِم إطباق الشفتَين بخيطٍ يُعلِّق منه الرأسَ على حافة كوخه أو على عوارض دار الشورى.

كانت هذه الطريقة مبتكرة للغاية. ويبقى السؤال: هل الرءوس المحفوظة بهذه الطريقة مفيدة لدراسة سِمات الوجه؟ كنت قد نويت الحصول على قردٍ ميِّت من متجر جامراك وتجربة هذا. لكن بدا الآن أنَّ من غير الضروري الإتيانَ بالقرد إن كان باستطاعتي القيام بهذه الإجراءات من دون الإضرار بالجمجمة؛ ولم يكن لديَّ شكٌّ أنَّ باستطاعتي فِعل ذلك بالعناية والمهارة اللازمتَين.

عند بزوغ الفجر نزلت إلى حجرة الطعام. كان الشرطي مُغفيًا في كرسيه؛ وكان هناك قدْر لا بأس به من بقايا السيجار، وكانت قنينة الشراب ناقصة قليلًا. فأيقظتُ الشرطي

وصرفتُه بعد أن أخذ سيجارًا آخرَ وما أطلق عليه «مُفتِّح للعينين» — نحو أونصتَين سائلتَين من الشراب. وحين انصرف، دلفت إلى رَدهة المتحف. كان اللص قد مرَّ وقتٌ على موته وبدأت جثَّته تتيبَّس. وكان هذا الأمر باعثًا على الراحة، لكن أهو الرجل المنشود؟ أخذتُ خُصلة صغيرة من شَعره وحملتها إلى المختبر حيث يقبع المجهر على الطاولة تحت غطاءٍ من الزجاج يتَّخذ شكل الجرس. فوضعتُ شعرة أو اثنتين على شريحة وعليها قطرة من الجليسرين، ووضعت الشريحة على منصَّة المجهر. وحانت اللحظة الحاسمة. نظرتُ بعيني في الجهاز ووضعت العينة تحت بؤرة الضوء.

يا للأسف! كان الشَّعر ذا لونٍ واحد وله صبغة بُنِّية. لم يكن هو الرجل المنشود.

كان هذا الأمر مثبطًا للغاية. لم أكن في حاجة فعلًا لقتله، وإن كنت لا أرى شيئًا في ظلِّ الظروف الراهنة يدفعني إلى الندم على ذلك. فموته لن يذهب هباءً. حين كان على قيد الحياة، كان مجرَّد مصدرِ خطر وإزعاج للمجتمع، أما في المتحف الآن، فقد يكون ذا منفعةٍ عامة كبيرة.

تحت الطاولة الرئيسية في المختبر كانت هناك خزانة طويلة تحوي صندوقًا أو قُل خزَّانًا كبيرًا مبطَّنًا بالزنك كنت معتادًا أن أحفظ فيه العينات التي في طَور الإعداد. فأخذتُ اللص إلى المُختبر ووضعته في الخزان، وأغلقتُ الغطاء الذي يمنع دخول الهواء وأحكمت عليه بقُفل. ولمزيدٍ من التأمين أغلقت الخزانة، وبعد أن غسلتُ أرضية الرَّدهة وجفَّفتها بكحولٍ ميثيلي، كانت جميع آثارِ ما وقع ليلة أمس قد طُمِست. فإنْ أرادت الشرطة أن تُلقيَ نظرة على المتحف والمختبر، فيمكنهم ذلك.

لقد ذكرتُ أنه بدا لي أنني اكتسبتُ شخصيةً غريبة تمامًا عن شخصيتي أثناء قبضي على اللص. لكن هذا التغيير كان مؤقتًا وحسب، وقد استعدتُ تمامًا الآن شخصيتي الطبيعية، التي تتَّسم بالدِّقة واليقظة والمنهجية والتحفُّظ الشديد. ومن ثمَّ، وبينما أتناول إفطاري وأُخطط لما سأتَّخِذ من إجراءات، تبيَّنت لي حقيقة مهمة. عمَّا قريب سيُصبح لديَّ في مُتحفي هيكل عظمي بشري حصلتُ عليه بطريقةٍ لا تقرُّها الأعراف الاجتماعية ولا حتى القانون. والآن، إذا أثرتُ حالةً من شأنها تفسير حصولي على هذا الهيكل العظمي بطريقةٍ بسيطة وطبيعية فإنني سأوفِّر على نفسي تقديمَ تفسيراتٍ قد تسبِّب لي المتاعب في المستقبل.

فقررتُ اتخاذَ التدابير اللازمة من دون تأخير، وبناءً عليه، وبعد مقابلةٍ مُضجرة مع مُفتِّش المباحث (الذي صحبته في جولةٍ في أرجاء المنزل بأكمله بما في ذلك المتحف والمختبر)،

أخذت سيارةَ أجرة إلى شارع جريت سانت أندرو في حي سيفن دايلز، حيث يُقيم أحدُ التجار المشهورين ذوي الصِّلة بعلم العظام. بالطبع لم أخبره بأنني أتيت لأشتري هيكلًا بديلًا للص الذي قتلته. وإنما طلبت منه فقط هيكلًا عظميًّا كاملًا سيعرض واقفًا وليس معلقًا (فالتعليق يتضمَّن وجودَ حلْقة تعليق قبيحة الشكل مُتصلة بالجمجمة). وقد بحثتُ في المجموعة التي يملكها ومعي في يدي شريط قياس من الصُّلب عن هيكلٍ عظمي له حجم مناسب — طوله ثلاث وستون بوصة — لكنني لم أبيِّن له أنَّ هذا الطول مقصود بصفةٍ خاصة. أخبرته أنني أرغب في هيكلٍ يوضِّح الصفات العِرقية، وقد ابتسم لذلك — إذ لم يبدُ متفاجئًا، فهو يعرف أنَّ الهياكل التي لديه مكوَّنة من عظامٍ متنوِّعة لها أصول غير معروفة.

انتقيتُ هيكلًا مناسبًا ودفعت ثَمنه (خمسة جنيهات)، وحرصتُ على الحصول على فاتورة سليمة تتضمَّن تفصيلًا للمُشتريات ولتاريخ الشراء وتحمل ختمًا بالسداد. ولم آخُذ ما اشتريتُ معي في طريق عودتي؛ لكن الهيكل وصلني في اليوم نفسه في تابوت، وصادف أنْ كان المُفتِّش في منزلي في ذلك الوقت فساعدني مشكورًا في تفريغه.

كان الإجراء التالي أن ألتقط مجموعةً من الصور الفوتوغرافية للقتيل، بما في ذلك صورٌ للوجه من ثلاث زوايا، وصورة مُنفصلة لكل أذن، وصورتان لكل يدٍ من الجهتَين. كما أخذت أيضًا مجموعة كاملة من البصمات. وحينها كنتُ مستعدًّا للشروع في العملية على نحوٍ جاد.»

يتَّسِم ما بقي من سرد تشالونر عن الهيكل رقم ١ بأنه تقني بدرجةٍ عالية ولا يتناسب مع ذوق القراء العاديِّين. لكن يمكن فهمُ النتيجة النهائية من خلال الاقتباس التالي من فهرس المتحف:

«عيناتٌ لتوضيح الأنثروبولوجيا الجنائية.

السلسلة أ. العظام.

١. جمجمة لص، في السابعة والثلاثين من العمر. ذكر. الطول: ٦٣ بوصة. (جيمس آرتشر.)

عينة لرجلٍ من أصولٍ إنجليزية، كان لصًّا محترفًا، له سوابق مؤكدة، ومن المرجَّح أنه قاتل — لأنه كان معتادًا حمْلَ أسلحة نارية. يبدو أن ذكاءه العام ذو مستوًى مُتدنٍّ، ومهاراته اليدوية قاصرة جدًّا (كان يمتهن تركيب وإصلاح المعدَّات التي تعمل بالغاز، لكنه لم يكن يعمل بانتظام). وكان أميًّا تقريبًا، ويعاقر الشراب أحيانًا وليس بصفة دائمة.

سَعة القحف: ١٥٩٤ سنتيمترًا مكعبًا. قياس الرأس: ٧٦,٨.

لمطالعة البصمات، انظر الألبوم د١، ص. ١. لمُطالعة صفات الوجه، انظر الألبوم هـ١، الصفحات ١، و٢، و٣ والسلسلة ب (مستحضرات جافة مُتقلِّصة). رقم ١.»

أغلقت المُجلدَين — الفهرس والأرشيف — وتأمَّلت القصة المذهلة التي يقصَّانها بأسلوبهما الواقعي والعملي. هل كان الفقيد تشالونر مجنونًا؟ هل كان يُعاني هوسًا محمومًا بموضوع الجريمة والمُجرمين؟ أم ربما كان بالصدفة سليمَ العقل بصورة غير طبيعية، إنْ جاز لي استخدام هذا التعبير؟ كان من الواضح أنه لا يبدو مثل معظم الرجال الآخرين. فهل كان عاقلًا، أم مخبولًا؟

لا يُمكنني الإجابة عن هذا السؤال. ربما تؤدِّي مطالعة المزيد من أجزاء الأرشيف إلى تسليطِ مزيدٍ من الضوء على الأمر.

الفصل الثالث

أتباع الخادمة

من المُثير كثيرًا للفضول ملاحظةُ التباين بين الشكِّ واليقين. فحين سرتُ في متحف صديقي الراحل تشالونر ونظرتُ إلى المجموعة الكبيرة من الهياكل العظمية البشرية التي يَحويها، ساورَني شعورٌ بالشك أنَّ هناك خطْبًا ما بشأنها، وقد جعلني هذا الشعور منزعجًا إلى حدٍّ كبير. والآن، وبعد قراءة أوَّل ما كتب، صرتُ أعرف أمرها كلَّه. كانت تلك هياكل لُجرمين أُمسِكَ بهم مُتلبِّسين واحتُفِظ بها من أجل العلم. بذلك تحقَّقت من صحة كل شكوكي، ورغم ذلك، وعلى قدْرِ ما قد يبدو الأمر غريبًا، فقد زال عني ارتياعي منها مع حضور اليقين. فلم تَعُد الرءوس الصغيرة التي تُشبه الدُّمى تُثير فيَّ إلا قشعريرة عابرة. إذ أفسحت هذه الرهبة الغامضة والخرافية المجالَ أمام الاهتمام العلمي.

اغتنمتُ فرصةً مُبكِّرة لتجديد تعرُّفي على «أرشيف المتحف» المُذهل والشنيع. وكان السرد الثاني مُعنونًا بـ «السلاسل الأنثروبولوجية ٢، و٣، و٤». وكان يعرض النظرةَ الفردية نفسَها كما الأول، فأوضح أن المُجرم بالنسبة لتشالونر لم يكن بشرًا على الإطلاق، بل مجرَّد نموذج أدنى من البشر، مُشابهٍ للبشر من الناحية التشريحية.

استهلَّ السرد بقوله: «حصولي على العينة رقم ١ شغلَني كثيرًا على الصعيدَين الجسدي والذهني. فبينما كنتُ أعمل يوميًّا على تجهيز الهيكل العظمي للراحل جيمس آرتشر لجعلِه ملائمًا لعرضه في صندوقٍ بالمتحف، كنت أتأمَّل المُستقبل الذي حمَّلَتْني إيَّاهُ الأحداث الراهنة. كنت منساقًا مع تيار الدهر، إن جاز التعبير. لقد مات هذا الشخص دون قصد، وقد ألقت الحادثة على عاتقي عبءَ التخلُّص من رفاته. وقد حلَلْتُ هذه المعضلة بتحويل القتيل إلى عيِّنة بالمتحف. لا بأس حتى الآن، لكن ماذا عن المستقبل؟

لقد قُتِلت زوجتي على يدِ مجرم. وسأقضي ما بقِي لي من حياتي — التي أتمنَّى أن تكون قصيرة — في مطاردته. لكنَّ الفخ الذي نصبتُه للإيقاع به سيوقِع على الأرجح

مُجرمين آخرين أولًا، وحيث لا يُمكنني تطبيقُ الطريقة المتاحة لتحديد الشخصية على العينات المُحرَّزة حديثًا بينما هم على قيد الحياة، يترتب على ذلك أنني سيتعيَّن عليَّ وضْعُ كلٍّ منها في وضعٍ يُمكِّنني من تحديد هُويتها. وإن ثبَتَ بالفحص أن العينة المُحرَّزَة ليست للِّص المنشود، فسأُضيفها إلى المجموعة وأُعيد نصْبَ الفخ. بدا لي أنَّ هذه هي الخطة الوحيدة المُمكنة.

لكن وقبل الشروع فيها كان عليَّ التفكير في الجانب الأخلاقي. فالوضع القانوني لها ليس عليه نزاع. الأمر مخالف للقانون. لكن هذا لا يعني شيئًا. فهناك هياكل عظمية بشرية حديثة العهد في متحف التاريخ الطبيعي؛ كما أنَّ كل مدارس الفن في البلاد لديها أحد الهياكل العظمية، وكذا الحال مع العديد من المدارس التي تُديرها مجالس إدارة. فما الوضع القانوني لمُلَّاك هذه الرُّفات البشرية؟ لن ينالهم التحقيق. وأما بخصوص متحف ويليام هانتر للتشريح، فالأمر مجرَّد إرث لنبَّاش قبور. ومن بين الحقائق التاريخية المعروفة أن الهيكل العظمي للعريف أوبرايان قد تم الحصول عليه من خلال نبشٍ صارخ للجثة، ولكنها حقيقة تاريخية يتغاضى عنها القانون على نحوٍ مُبرَّر للغاية. من الواضح أن الموقف القانوني غير جدير بالتفكير فيه.

لكن ماذا عن الجانب الأخلاقي؟ بدا لي الأمر مُرضيًا إلى حدٍّ كبير، وإن كان مخالفًا بوضوح للمعايير المقبولة. ذلك أن موقف المجتمع تجاه المُجرمين يبدو أنه موقف جماعة من المخابيل. ففي واقع الأمر، يُخاطب المجتمع المجرم المحترف بدرجةٍ ما على النحو التالي:

«أنت ترغب في امتهان الجريمة، تريد أن تكسب عيشك بالاستيلاء على أملاك الأبرياء والكادحين وأموالهم — سواء عن طريق العنف أو غيره من الطرق. لا بأس، يمكنك فِعل ذلك تحت شروطٍ مُعيَّنة. إن كنت بارعًا وحذرًا فلن يُضايقك أحد. قد تتسبَّب بالإزعاج والخسارة الكبيرة والخطر للأبرياء، بينما أنت آمِن، إلا إن كنتَ أخرقَ وغير حذِر؛ وفي هذه الحال سيُلقى القبض عليك. إن حدَث، فسنقبض عليك ونحتجزك لأشهُر أو سنين كثيرة. وفي غضون ذلك، ستقطن في أماكنَ أفضل من تلك التي اعتدتَها؛ وستظل غرفة نومِك دافئةً ومريحة في كل حالات الطقس؛ وسنمدُّك بملابسَ أفضلَ مما ترتدي في الغالب؛ وسيكون لديك وفرةٌ من الطعام الفاخر؛ وسيتلقى مسئولون أجورًا عالية ليتولَّوا مسئوليتك؛ وسنستبقي فئةً مختارة من الأطباء للاعتناء بصحتك؛ وسيتولَّى قسيسٌ تلبيةَ حاجاتك الروحية وأمين مكتبة إمدادك بالكتب. وسيدفع الكادحون الذين تكسب عيشك من سرقتهم ثَمن كل هذا. باختصار، من اللحظة التي ستمتهِن فيها الجريمة، سندفع

نحن كلَّ نفقاتك، سواء كنتَ في السِّجن أو طليقًا.» هذا هو موقف المجتمع؛ وأُكرِّر أن هذا الموقف هو موقف مُجتمع من المجانين.

أما خُطتي، فكم هي أفضل وأكثر أخلاقيةً في المقام الأول! إنني أدعو المجرم ليأتي إلى البهو في منزلي. فيدخل وهو يُمثِّل مصدرَ إزعاج وخطر للناس؛ ويخرج في شكل عينةٍ مهيَّأة للعرض في متحف وذات قيمة تعليمية دائمة.

هكذا فكَّرت ورسمت مسارَ عملي وأنا أعمل على ما يُمكنني أن أطلق عليه العيِّنة التأسيسية لمجموعتي. وقد ظللتُ منشغلًا بهذه العينة طوال أيام كثيرة، لكنني سُررت للغاية بالنتيجة حين انتهيت منها. إذ كان لون العظم وبنيته جيدَين، وكان الشرخ الذي أصاب الجمجمة خفيًّا إلى حدٍّ كبير بعد أن لصقته بالغراء السمكي، أمَّا الرأس المُجفَّف الصغير، فقد تجاوز توقُّعاتي تمامًا. فبمقارنته مع الصور التي أخذتها بعد الوفاة، سرَّني أنني وجدت أن سِمات الوجه بل وحتى تعبيراته كانت محفوظة بصورة تكاد تكون مثالية.

كان يومًا مهمًّا بصفةٍ خاصة حين وضعت العينة رقم ١ في الصندوق الزجاجي الكبير بعد أن أخرجتُ منه الهيكل العظمي الذي اشتريته من التاجر. فلم أعُد في حاجةٍ إلى البديل، ومن ثمَّ فكَّكته وتخلَّصت منه على مراحلَ في الفرن، وسحقت العِظام المكلَّسة إلى شظايا لا يمكن تَعرُّفها.

في تلك الأثناء، كنت أقطع أشواطًا كبيرة في استعدادي للمزيد من الطرائد. فثبتُّ خزنةً لها واجهة من الماهوجني في حجرة الطعام لتحويَ الأواني الفضية، وركَّبت نظامَ تحذيرٍ من اللصوص تحت الأرضية أمام الخزنة وأوصلته بنقارةٍ احتفظت بها (مع المربات وبعض الأدوات الأخرى) في خزانة معلَّقة عند رأس سريري، جاهزة ليتم تشغيلها ووضعها تحت وسادتي في الليل. واشتريتُ سرًّا بعضَ المجوهرات المزيَّفة — من أساور وتيجان وقلائد وما شابه من أشياءَ زهيدة متلألئة — وحين أصبح كل شيءٍ جاهزًا استقدمتُ خادمتَين جديدتَين لهما سوابق مشبوهة. في البداية كان الشكُّ يُساورني قليلًا بشأن الطاهية، لكني كنتُ واثقًا من أمرِ الخادمة منذ البداية. فقد اتضح ذلك تمامًا من سُمعتها التي حدَّثني عنها مُشغلها السابق القس العطوف، الذي حثَّني باعتباري رجلًا مسيحيًّا (وهو لم يكن صحيحًا) أن «أعطيَها فرصة أخرى».

وقد أعطيتُها فرصةً أخرى بالفعل، لكن ليس من النوعية التي كان يقصدها ذلك الرجل النبيل المُوقَّر. فبعد يومَين من وصولها وجَّهتها لأن تُنظِّف الأواني الفضية وسلَّمتها

مفتاح الخزنة، الذي لديَّ أسباب تدفعني لأن أعتقد أنها طبعَتْه على قطعةٍ من العجين. كانت المجوهرات المُزيَّفة محفوظة في قسمٍ مُنفصل من الخزنة، لكنني أريتها إيَّاها بأن أخرجتُها في وجودها ونشرتها على الطاولة، ورحت مُتباهيًا أُنظِّف أُطُرها الذهبية بفرشاةٍ ناعمة. كانت تلك المجوهرات متلألئة ومتألِّقة بكل تأكيد. إذ لم يكن باستطاعتي أن أُفرِّقها عن المجوهرات الحقيقية؛ أمَّا سوزان سلودجر — وهو اسم خادمتي — فقد جحظت عيناها من الجشع.

مرَّ أقلُّ من أسبوع بعد هذا ووقعت الحادثة التالية. كنت أرقد في السرير، وأغفو على فترات، لكنني لم أغطَّ في نومٍ عميق. كانت جودة نومي سيئة في ذلك الوقت؛ فقد كانت الذكريات التي أتلافاها بالنهار تتكالَب عليَّ في الظلام. كنت أفكِّر في سعادتي المفقودة، وفي زوجتي الحبيبة الفقيدة، وفي ذلك الصعلوك الذي أنهى حياتها الرقيقة بلامبالاة وكأنها حشرة لا قيمةَ لها؛ وكانت الأفكار تملؤني إما بحزنٍ لا يُوصَف يمنعني من النوم أو بغضبٍ شديد يحثُّني للسعي إلى العدالة والقصاص.

كانت الساعة الطويلة على الدُّرج قد أعلنت دقَّاتها عن الثانية حين انطلقت النقَّارة الموضوعة تحت وسادتي في نقرٍ مطوَّل. أحدهم كان يقف الآن أمام الخزنة في غرفة الطعام. نهضتُ بهدوء من الفراش، وأطفأت النقَّارة وأعدتُها إلى الخزانة المُعلَّقة، وبعد أن أخذتُ منها المربات وحقيبة جلدية صغيرة مملوءة بكُرات معدنية صغيرة ومربوطة ببكرة خيطِ صيدٍ طويلة، نزلت الدَّرَج في هدوء شديد. وفي منتصف الدَّرج عند فاصل الطابقَين وضعتُ الحقيبة وفككتُ بكرةَ خيط الصيد وأنا أهبط الدرجات التالية. ثم توقَّفتُ في الرَّدهة قليلًا لأتسمَّع. كان كِلا بابَي حجرة الطعام مُغلقًا، لكنني استطعتُ أن أسمع أصواتًا خافتة تأتي من الداخل. اقتربتُ من الباب الأبعد عن الباب الأمامي للمنزل ووضعتُ يدي على مِقبضه بحذَر. كنت أعرف أن الأقفال والمزالج مزيَّتة جيدًا؛ لأنني كنتُ أتولَّى أمر تزليقها يوميًّا مع كل الأبواب الأخرى في الجزء السُّفلي من المنزل. أدرتُ المِقبض ببطءٍ وضغطتُ على الباب بلطف، فأخذ الباب ينفتح من دون أن يُحدِث صوتًا. ولما انفتح الباب سمعتُ غمغمة خافتة، وميَّزتُ كلمات مهموسة تقول: «من الأفضل استخدامُ فاتح الأقفال أولًا يا فريد.»

إذن هناك أكثر من لصٍّ واحد على أي حال.

وحين أصبح الباب مفتوحًا بما يكفي لأن أُدخِل رأسي، نظرت في الداخل. كان أحد مشاعل مصباح الغاز مُوقدًا بنارٍ خافتة جدًّا، رغم ذلك كان مضيئًا بما يكفي لأن أرى

ثلاثة رجالٍ واقِفين أمام الخزنة. كان وجود ثلاثة من اللصوص أكثرَ مما يُمكنني تولِّيه. إذ كنتُ قد بذلت الكثير من الجهد مع اللص رقم ١ وحدَه، في أثناء القبض عليه وبعده. ربما يكون التعامُل مع ثلاثة لصوص أمرًا يفوق قدراتي. رغم هذا، فإنهم سيُشكِّلون إضافةً رائعة إلى مجموعتي إن استطعتُ تولِّي أمرهم. راقبتُهم وأخذتُ أفكِّر في وسائل وطُرق التعامُل معهم. كان جوهر استراتيجيتي يتطلَّب أن أفصلهم عن بعضهم فأتعامَل مع كلٍّ منهم على حِدة. لكن كيف سأفعل هذا؟

رأيتُ الرجال الثلاثة وقد اقتربت رءوسهم بعضهم من بعض وهم ينظرون بداخل الخزنة. كان باب الخزنة مفتوحًا على مصراعَيه، وكان ثمَّة مفتاح به فتبيَّن لي ما حدث. وكان أحدهم يُمسك بمصباحٍ كهربائي يُخرج ضوءًا مسلَّطًا، وكان ضوء المصباح مسلَّطًا على ثُقب مفتاح مقصورة المجوهرات، وكان أحدهم قد وضع فيه بالفعل مفتاحًا هيكليًّا.

في تلك اللحظة، التفتَ ثالثُهم. رأيت من خلال الضوء الخافت أنَّه ينظر باتجاهي وقد علت وجهه تعبيراتُ ذهولٍ واضحة؛ في الواقع، كنت أنظر إليه في عينَيه؛ لكنني ظللتُ ثابتًا بلا حَراك لأني أعرف أنني مُستتر في ظل الباب.

همس الرجل بصوتٍ أجشَّ قائلًا: «فريد، الباب مفتوح.»

فالتفت الرجلان الآخران بحدَّة وقال أحدهما — على الأرجح أنه فريد — بفظاظة: «اذهب إذن وأغلِقه. ولا تُحدِث أي جلبة.»

تحسَّس الأخير جَيبه وتقدَّم خلسةً عبْر الغرفة. كان يرتدي خُفَّين من القماش، وكانت خطوته عديمة الصوت. وبينما هو يتقدَّم، تراجعتُ أنا وأمسكت بعمود أسفل الدَّرج وجذبته بحدة، فأحدثت أعمدة الدَّرج الأخرى صريرًا عاليًا. ثم دسستُ نفسي خلف الستارة التي تفصل الرَّدهة جزئيًّا، وأمسكتُ بالمربات كما يُمسك لاعب الجولف بمضربه، وجمعت في يدي خيط الصيد.

ظهر رأس اللص في شكل صورةٍ ظليَّة بفعل الضوء الخافت المُنبعث من داخل الغرفة. تنصَّت اللص لحظةً ثم اشرأبَّ برأسه داخل الرَّدهة المُظلمة. وبدت الفرصة سانحة، إن كان باستطاعتي إغراؤه للخروج أكثر قليلًا. فعلى أي حال، لا ينبغي أن أسمح له بالعودة وإغلاق الباب.

جذبتُ خيطَ الصيد جذبةً مُنتظمة. فانزلقت الحقيبة على البساط على الدَّرج بالأعلى مُحدِثةً صوتًا يُشبه كثيرًا صوت خطوات خافتة.

رفع اللص نظره للأعلى بحدَّة ورفع يدَه؛ فرأيتُ ظلَّ مُسدس دوَّار موجَّه على جدار حجرة الطعام المُضاء بدرجةٍ خافتة. يبدو أن مُمارسة حمل الأسلحة النارية تزيد كثيرًا في أوساط المُجرمين، على الأرجح لزيادة عدد المُجرمين الأمريكيين الذين يزورون البلاد. على أي حال، ينبغي التعامُل مع هذا الأمر قانونيًّا من خلال التشريعات الملائمة.

وقف اللص ينظر ومُسدسه مصوَّب نحو أعلى الدَّرج. وكنتُ على وشْك جذب خيط الصيد مرةً أخرى حين أتى صوت صرير من الأعلى. وأعتقد أن هذا طمأن صاحبنا إلى حدٍّ ما؛ لأنني سمِعتُه يغمغم بأنه يعتقد «أنهما هاتان الفتاتان اللعينتان». تقدَّم اللص بحذَر بضع خطوات خارج الباب، ثم دسَّ يده في جيبه وأخرج كشَّافًا كهربائيًّا صغيرًا وسلَّط ضوءه تجاه أعلى الدَّرج.

كانت الفرصة مواتيةً تمامًا. إذ برز رأسُه قاتمًا ومُميَّزًا أمام دائرة الضوء التي أخرجها كشافه، وكان ظهره في مواجهتي، وقد وضحت أُذن ناتئة التفاصيل البنائية لشكل الرأس المُسطَّح والقاتم.

أزحتُ الستارة بيدي اليُسرى في صمتٍ وحدَّدتُ هدفي بعناية. وتذكَّرت ما حدث مع العينة رقم ١، فانتقيتُ البارزة الجدارية اليُمنى التي يقلُّ، مع ضربها ضربةً مائلة، احتمالُ إصابة قاعدة الجمجمة بجرحٍ أكثرَ من الضربة العمودية. إلا أنني وضعتُ قوَّتي كاملة في تسديد الضربة، وحين هوى الثِّقَل المُبطَّن على البقعة التي انتقيتُها، تلوَّى اللص وكأن صاعقةَ برق قد أصابته.

كان صوت اصطدام المربات بجُمجمته مكتومًا بما يكفي، لكنَّ الرجل سقط سقطة مدوِّية، وقد طار المُسدس الدوَّار والكشاف من يدَيه وسقطا على أرضية الرَّدهة مُحدثَين ضوضاء عالية. وفي اللحظة التي سدَّدتُ فيها الضربة، جريتُ بخطواتٍ خفيفة على طول الرَّدهة وأدرتُ مِقبض الباب الآخر. لحُسن الحظ، كان الرجلان اللذان بالغرفة مَفزوعَين كثيرًا لئلَّا يُهرعا خارج الغرفة إلى الرَّدهة، وإلا لرأوني بمساعدة أضواء كشافهما. لكنهما كانا في غاية الحذَر. وقد أقحمت رأسي من الباب واستطعتُ أن أرى وأنا في الطرف المُظلم من الغرفة أنهما يشرئبَّان برأسَيْهما خارج الباب الآخر ويُصغيان بعناية. وبعد لحظاتٍ تسلَّلا على أطراف أصابعهما إلى الخارج في الرَّدهة واختفيا عن نظري.

كان هناك حاجزٌ ياباني كبير له أربعة ألواح بالقُرب من الباب الآخر. وكنت قد احتميتُ وراءه في مغامرتي السابقة، ففكَّرت أن أختبئ وراءه أيضًا هذه المرة، حيث كان اللص المُلقى على الأرض ممددًا على بُعد عدة ياردات من الباب، وعلى الأرجح كان زميلاه

يفحصانه. ومن ثمَّ تقدَّمت بخطوات خفيفة عبر الغرفة واتخذتُ موضعًا لي خلف الحاجز بين ثنايا ألواحه. من الواضح أن اللصَّين لم يُلاحظا حركتي، ومكَّنني موضعي الجديد من النظر خلسةً إلى الرَّدهة — مع المُجازفة بأن يُكشَف أمري — وأن أستمِع لكلِّ ما يُقال.

ظللتُ لحظاتٍ لا أسمع شيئًا سوى خشخشةٍ خافتة من الرجلَين وصريرٍ يأتي بين الحين والحين من أعلى الدَّرج. لكن بعدها سمعتُ همسًا أجشَّ.

«يا للعجب! يبدو أنه قد مات.»

فوافقه الآخر: «أجل؛ يبدو كذلك»، ثم أضاف على نحوٍ متفائل: «لكن ربما أُغمِي عليه وحسب.»

فجاء رد الآخر عليه ضجِرًا: «تبًّا! أقول لك إنه ميت — إنه ميت بلا شك.»

ساد الصمت لحظاتٍ أخرى، ثم وبهمسٍ مُنخفض أكثر، سأل أحدهما:

«أتظنُّ أن أحدهم قتله يا فريد؟»

فأجابه فريد: «لا أرى أيَّ أثر، كما أنه لا يُوجَد أحد هنا. ماذا؟! ما هذا؟»

كان هذا صريرًا عاليًا من مكانٍ ما بالقُرب من بسطةِ دَرج الطابق الأول، لا شكَّ أنها الآنسة سلودجر أو الطاهية. لم أشكَّ أن تلك الأصوات التي تنمَّ عن حركة خفيةٍ كانت مُربكة كثيرًا للصوص، خاصة في ظلِّ الظرف الراهن. وقد تحقَّق ظنِّي، ذلك أن اللص الآخر أجاب بهمسٍ ينمُّ عن الخوف الواضح: «هناك شخصٌ ما على الدَّرج يا فريد. لنرحل من هنا. هذه العملية لا تسير على ما يُرام.»

فجاء رد الآخر ساخطًا: «ماذا تقول؟! أنرحل ونترك كل هذه الأشياء؟ لن أفعل هذا! ولن تفعله أنت أيضًا. هناك أشياء أكثر مما يمكن لواحدٍ منَّا فقط أن يحمِلها. دعْ هذا الشيء من يدِك وإلا أطلقتَ النار منه وأحضرتَ الشرطة إلينا. أتسمعني؟»

همس الآخر عابسًا: «أخشى أن أُقتَل في الظلام كما حدث لِجو. إنْ نزل أحدهم إلى هنا، فسأهاجمه.»

في تلك اللحظة جاء من الأعلى صريرٌ آخرُ مسموع بوضوح، ثم سرعان ما تبِعته سلسلة من الأحداث التي تبينتُها فيما بعد، لكنها وقعت وقتَها وسط حالة من الارتباك التام. ما حدث في واقع الأمر أن فريد كان قد بدأ يصعد الدَّرج في جسارةٍ مُتفاديًا بطريقةٍ ما خيطَ الصيد، وتبِعه عن كثَب رفيقُه الأكثر شعورًا بالقلق. علِقت قدمُ هذا الرفيق لسوء حظه في الخيط، فتعثَّر وانجذب الحبل لتعثُّره فانجذبت الحقيبة الثقيلة وأخذت تسقط على الدَّرج. سمِعت صوت تعثُّره، تبِعه صوتُ ضربةٍ مكتومة، وكان هذا صوت الحقيبة

وهي تسقط، وكان يُشبه صوت خطوات أقدام رجلٍ بَدينٍ حافي القدمَين ينزل من فوق الدَّرج. ثم تبِع ذلك صوت طلقتَين ناريتَين في تتابُع سريع، ثم هطل رذاذ من الجص، ثم صرخة غليظة، ثم سقوط ثقيل، ومن الأعلى جاء صوتُ تنازُع تبِعه صوت إغلاق بابٍ بقوة ثم صوت دوران مفتاح؛ ثم فاصل قصير من الصمت، وبعدَها همسٌ يُخالطه الارتجاف.

«أنا لم أُطلق النار عليك يا فريد، أليس كذلك؟»

لم يجِد سؤاله أيَّ ردٍّ سوى تأوُّهٍ وغرغرة. فخرجتُ من مكان اختبائي ومررتُ بالباب المفتوح وتقدَّمتُ في الرَّدهة في صمت، مُسترشدًا بصوت الناجي وهو يُخلِّص نفسه من رفيقه المُصاب. وقفتُ على بُعد خطواتٍ منه وفي يدي المربات وعلى استعداد لأن أُسدِّد الضربة، وأخذت أستمع لصوت اضطرابه وجرجرته قَدمَه. وفجأةً جاء ضوء ساطع. كان اللص قد وجد كشافَ فريد الكهربائي، ومن الغريب أن السقوط لم يُعطبه (إذ كان له فتيل معدني، وذلك بحسب ما تبيَّن لي فيما بعدُ).

كان الضوء يرتجف لارتجاف يد حامِله، وقد عانق ضوء الكشاف جثةَ اللص المُصاب وهو مكوَّم عند أسفل الدَّرج وكان لا يزال ينتفض بين الحين والحين. ولم يكن المنظر سارًّا لرفيقه. فقد تبدَّى وجه الرجل، الذي كان لونه بين الأبيض والأخضر وكانت عيناه شاخِصتَين وشفتاه مُلطَّختَين بالدماء، جليًّا تحت الضوء في مقابل الظُّلمة من خلفه وكأنه تمثال شمعي ذو ملامح حادة يُثير في النفس الرعب.

وقف اللص الناجي مُتحجرًا وقد مال على رفيقه وهو يُمسك بالكشاف بإحدى يدَيه المرتعشتَين، وكان لا يزال يُمسك بالمُسدس الدوَّار في يده الأخرى؛ وبينما هو كذلك، أخرج سيلًا من الشتائم غير المُترابطة بنبرةٍ خافتة مُتفجِّعة غريبة؛ يبدو أن هذا هو حال أولئك الرجال حينما يشعرون بالخوف. تقدَّمتُ في صمتٍ خلفه ونظرت من فوق كتفه إلى المجرم المُحتضِر، أحاول أن أُخمِّن ما سيفعله بعد ذلك. في تلك اللحظة كان الخوف يشلُّه، وكنتُ أميل بشدة لأن أقضيَ عليه في التوِّ واللحظة؛ إلا أن دافعًا غريبًا أعرفه من المرة السابقة أجبرَني على مُداعبته. اجتاحتني مرةً أخرى رغبةٌ جامحة وغريبة أن أكون مُتلاعبًا، كتلك التي تدفع القطَّ أو الفهد إلى التلاعُب بفريسته بِخفةٍ ولُطف برهةً قبل أن يُجهز عليها.

ظللنا هكذا بلا حَراك لأكثر من نصف دقيقة في صمتٍ لم يقطعه إلا غمغمته بالسِّباب. وفجأة، وقف الرجل وأخذ يسلِّط ضوءَ الكشاف على الدَّرج وفي أرجاء الرَّدهة حتى استقرَّ الضوء بعد فترةٍ على وجهي الذي كان قريبًا للغاية منه. ولمَّا رأى شبَحي صاح صيحةً شديدة من الفزع، وكأنه عَنْزٌ صغيرة، ثم جفل نحو الخلف. كان على بُعد لحظة

واحدة من أن يرفع ذراعه التي تحمل المُسدس، لكنني تنبَّأت بهذه الحركة واستبقتُه. فبينما كانت يده ترتفع، هوى المربات على جانب ذراعه، في المنطقة بين الكتف والمرفق، تمامًا على البُقعة التي يلتفُّ فيها العصب العضلي الحلزوني حول العظام. وكان تأثير الضربة مُثيرًا للغاية. إذ نتج عن التحفيز العصبي المفاجئ انقباضُ العضلات الباسطة بنفس الدَّرجة من السرعة. فانبسط الساعد بهزةٍ عنيفة، وانتصبت الأصابع بشدة فطار المُسدس على الأرض مُحدِثًا صوتَ ارتطام.

إن للتشريح فوائده حتى في أثناء شجارٍ في منتصف الليل.

تسمَّر الرجل في مكانه على نحوٍ تامٍّ بسبب فجاءة ظهوري وسرعة ردِّ فعلي. وأخذ يُحدِّق إليَّ في ذعرٍ تامٍّ وكان يتلعثم فلا يعرف ما يقول. إلا أن ذلك لم يدُم إلا للحظات قليلة. إذ التفَت وانطلق كالسهم نحو باب المنزل.

لكنني لم أكن أنوي ترْكَه يهرب. وفي غمضة عينٍ كنت خلفه وقد أمسكت به من تلابيبه. زمجرَ الرجل بوحشيةٍ وأسقط الكشاف على البساط لتُصبح كلتا يدَيه حرةً؛ وحيث تحرَّر زنبرك زرِّ الإنارة، انطفأ الكشاف فصِرنا غارقَين في ظلامٍ دامس. صار الرجل الآن في مأزق، فأخذ يصارع بشراسة، وتمكَّنتُ من سماعه ينخر ويسبُّ وهو يحاول التملُّص من قبضتي. تعيَّن عليَّ أن أترك المربات من يدي من أجل أن أمسكه بكلتا يديَّ، وكان حسنًا ما صنعت؛ لأنه استطاع أن يُحرِّر إحدى يدَيه فجأةً ويسدِّد بها ضربة. كانت ضربة خبيثة ولولا أن مِرفقي أوقفها جزئيًّا لانتهت المغامرة بصورةٍ غير مُواتية، ذلك أنني شعرتُ بحد سكينٍ يكتسح صدري ويُمزِّق الجزء العلوي من رداء نومي ويُحدِث في صدري جرحًا صغيرًا وسيئًا إلى حدٍّ ما. هنا احتضنتُه من صدره، محاولًا تثبيت كِلا ذراعَيه بقدْر استطاعتي والحصول على السكين، في حين كافح هو بشدَّة ليُحاول تسديد طعنة أخرى.

وهكذا ظللنا مُتعانقَين هذا العناق الضروس، نتأرجح مع بعضنا جيئةً وذهابًا، ويُحاول كلٌّ منَّا جاهدًا أن يستغلَّ الميزة السريعة التي من شأنها أن تضع حدًّا للصراع. وقد جاءت النهاية على نحوٍ غير مُتوقَّع.

إذ تعثَّر أحدُنا في حافة البساط وسقطنا كِلانا مَصطدمَين بالأرض، وكان هو أسفل مني ووجهه نحو الأرض. وبينما نحن نسقط، أطلق هو صرخةً حادَّة وبدأ يتشنَّج تشنُّجات غريبة؛ لكن بعد برهةٍ صار أهدأ، وأخيرًا سكن تمامًا.

في البداية ظننتُ أنها خدعة منه حتى يأخُذني على حين غِرة، فتمسَّكت به بقوة أكبر؛ لكن سرعان ما خطر لي أمرٌ مُغاير حين رأيتُ منه رخاوةً مميَّزة في أطرافه. ففككتُ قبضتي عنه تدريجيًّا وبحذَر، ولما لم يتحرك، أخذتُ أتحسَّس أرجاء البساط بحثًا عن الكشاف؛ وحين وجدتُه وضغطت الزرَّ، سلَّطت ضوءه على صاحبنا.

كان ساكنًا تمامًا ولم يبدُ لي أنَّه يتنفَّس. فقلَّبته ورأيتُ ما ساورَني به الشكُّ. كان الرجل يُمسك بالسكين مُستعدًّا لتسديد طعنة أخرى حين كبَّلت ذراعَيه. وكان لا يزال يُمسك بها حين سقطنا، فدخل طرف السكين صدره بالقُرب من الخط الناصف، بين الضلعَين الرابع والخامس، وانغرس حتى مقبضه في صدره بفعل السقطة. لا شك أنه مات على الفور.

وقفتُ وأخذت أستمع. كان المكان صامتًا كالقبور؛ هذا تشبيهٌ مناسبٌ تمامًا بالمناسبة. وكان من الواضح أنَّ الشرطة لم تسمع صوت الطلقات النارية؛ لذا لم أكن قلِقًا أن يُقاطعني أحدٌ من الشرطة؛ أمَّا الخادمتان، فقد كانتا حريصتَين أن تنأى كلتاهما بنفسها عن الأذى.

ومع ذلك، كان أمامي الكثير من العمل والقليل من الوقت. كانت الساعة الآن تُقارب الثالثة وستشرق الشمس بحلول الرابعة. ستخرج الخادمتان من مكانهما مع بزوغ ضوء النهار وينبغي أن أكون قد نظَّفتُ كلَّ شيء لدى خروجهما.

فلم أُضِع أيَّ وقت. أخذتُ أنقل الجثث إلى المُختبر واحدةً تلوَ الأخرى ووضعتُها في الخزان الذي كانت سَعته بالكاد تتَّسع لها. وكان موت الرجل الأول المُفاجئ قد حيَّرني بعض الشيء، لكنني حين رفعته كان تفسير موته واضحًا بما يكفي. كانت الضربة القوية التي تعرَّض لها الرأس بزاوية مائلة قد تسبَّبت في خلع الرقبة من مكانها. ومن ثمَّ يتبيَّن أنَّ المربات يُعَدُّ أداة قوية في نهاية المطاف.

ثم طمستُ بحرصٍ تامٍّ كلَّ الآثار الطفيفة الناتجة عن نقل الجثث إلى المُختبر، لكنني تركت السكين الذي استخدمه الرجل الأخير منهم على البساط. ثم غيَّرت رداء نومي ونقعتُ الجزء العلوي المُلطَّخ بالدماء من رداء النوم الذي كنت ألبسه في المُختبر، وضمَّدت الجُرح في صدري وارتديتُ المبذل، ثم فتحت باب المنزل الأمامي وأغلقتُه بقوة وصعدتُ إلى الطابق العلوي ومعي شمعة.

كان باب غرفة الخادمة مفتوحًا والغرفة خاوية. فطرقت باب حجرة الطاهية، فجاءت صرخة خافتة.

وتساءل صوتٌ بالداخل: «مَن الطارق؟»

فكان ردي: «هذا أنا» — وهو ردٌّ غبي بالمناسبة، لكنهما بالطبع كانتا تُميِّزان صوتي. فُتِح الباب وخرجتِ المرأتان، وكانتا ترتديان كامل ثيابهما لكنهما كانتا في حالةٍ من الاضطراب وشاحبتَين بشدة.

سألت الخادمة: «هل هناك خَطْبٌ ما يا سيدي؟»

فأجبت: «نعم. أظنُّ أن سرقة قد وقعت. استيقظتُ في أثناء الليل وظننتُ أنني سمعت صوت إطلاق نار، لكنني أرجعت الأمر إلى أنني كنتُ أحلُم وعدتُ إلى النوم. هل سمعتْ إحداكما شيئًا؟»

فقالت الطاهية: «ظننتُ أنني سمعتُ صوت مُسدس يا سيدي، وكذلك تظنُّ سوزان. لهذا أتت إلى هنا.»

فقلت: «إذن لم يكن الأمر حُلمًا. كما أنني سمعت الآن بوضوح صوتَ الباب الأمامي وهو يُغلَق، فنزلت إلى الطابق السُّفلي ووجدتُ الموقد مُشتعلًا والخزنة مفتوحة.»

صاحت سوزان: «يا إلهي! آمُل أنه لم تتمَّ سرقة شيء.» (كانت لُغتها سيئة كثيرًا بالنسبة لخادمة تعمل في مستوًى مرموق.)

فقلت: «هذا ما أريد منكما أن تعرفاه. انزلا إلى الأسفل وانظرا في الأرجاء. لا يوجد أحدٌ الآن.»

نزلتِ الخادمتان في ابتهاج، كلٌّ منهما تحمل شمعة، ولا شك أنهما كانتا تشعران بتلهُّف لرؤيةِ ما حقَّقه أصدقاؤهما من نجاح. كانت أولى الآثار على وجود متطفِّلين هي بقعة دماء كبيرة عند أسفل الدَّرج جفلت منها سوزان كما يجفل الجواد. وكانت هناك بقعة أخرى بالقُرب من باب الشارع، كما كان هناك سكين اللص على البساط، وقد أمسكتِ الطاهية بالسكين ثم أسقطته وهي تُطلق صيحة خافتة. ففحصت السكين ووجدت أن مقبضه محفورٌ عليه الحرفان «جي بي».

فعلَّقتُ قائلًا: «يبدو أن اللصوص اختلفوا فيما بينهم. لكن هذا الأمر لا يعنينا. لنرَ ما حدث للخزنة.»

دلفنا إلى غرفة الطعام وأخذَتِ المرأتان تنظران بتلهُّفٍ إلى الخزنة المفتوحة؛ لكن ورغم أنَّ كلتيهما كرَّرتا أمنياتهما بأنه «لم تتمَّ سرقة شيء»، فبالكاد استطاعتا إخفاء خيبةِ أملهما حين رأتا أن محتويات الخزنة كانت سليمة. تفحَّصت المفتاح المزيَّف الرخيص من دون أن أبديَ تعليقًا لكنني نظرتُ إليهما نظرةً أعتقد أنهما فهمتا مغزاها؛ ثم فحصتُ

حقيبتَين كبيرتَين مصنوعتَين من السجاد لم يكن بأيٍّ منهما شيء سوى الأدوات المُستخدَمة في السرقة.

قلتُ لهما (من دون أن تكون لديَّ أي نيَّة لفعل ذلك): «أعتقد أنَّ عليَّ الاتصال بالشرطة.»

فأجابت سوزان: «لا أرى فائدة من ذلك يا سيدي. فقد رحل اللصوص ولم يسرقوا شيئًا. لن تفعل الشرطة بعد أن تأتي سوى أن تقلب المكان رأسًا على عَقب وتُبدِّد وقتك من دون فائدة.»

وبهذا تكون سوزان سلودجر قد قدَّمت الاقتراح الذي كنتُ أنتظره تمامًا؛ فهي تعي وجودَ المفتاح الزائف. وبالطبع لن يُجديَ إن جاءت الشرطة إلى المنزل مرةً أخرى بهذه السرعة. فتظاهرتُ بأنني مُعجب كثيرًا بفطنتها، وفي نهاية المطاف قرَّرت أن «أدع الفتنة نائمة». لكن سوزان لم تكن تعرف كم تغرق الفتنة في نوم عميق كالموت.

وكان من الضروري أن أذهب لزيارة تاجر العظام في الصباح للحصول على ثلاثة هياكل عظمية مناسِبة أستخدِمها بدائلَ وَفْقًا لخُطتي. كان من الضروري تمامًا فِعل هذا. فالإيصال والفاتورة اللذان سأحصل عليهما منه مقابلَ الهياكل العظمية البشرية الثلاثة هما تذكرتِي نحو الأمان. إلا أنني كنتُ حزينًا لضرورة فِعل هذا. فمن المؤكد أنني بمجرَّد أن أخرج من المنزل، ستذهب إحدى الخادمتَين الحقيرتَين لتستفسر عن أصدقائها؛ وحين يُعرَف أن اللصوص مختفون، قد تحدُث مشكلة. فلا يمكن للمرء أبدًا أن يتوقَّع تصرفات النساء أو يحسب لها. وصحيح أنني لم أكن أعتقد أن بإمكان إحداهما دخول المُختبر عَنوة. لكن لا يزال الاحتمال قائمًا بأن تفعل إحداهما أو كلتاهما ذلك. فإذا ما حاولتا فِعل ذلك، فستكون الفأس قد وقعت في الرأس.

رغم ذلك، كان يتعيَّن عليَّ الذهاب، ومن ثمَّ انطلقتُ بعد تناول الإفطار وفي جيبي شريط القياس وورقة مُدوَّن فيها القياسات. ومن حُسن الحظ أنَّ التاجر كان قد استقبل لتوِّه شحنةً كبيرة من الهياكل العظمية من ألمانيا (الله وحدَه يعلم من أين يحصل أولئك المُورِّدون الألمان على بضاعتهم)؛ لذا كان أمامي عددٌ كبير من الهياكل لأنتقيَ منه؛ وحيث كانت الهياكل صغيرةً إلى حدٍّ ما — أظنُّ أنهم جميعًا كانوا فرنسيين — لم أجد صعوبةً في إيجاد الهياكل المناسبة لعيناتي، التي كانت جميعها دون القامة المُتوسِّطة، كما هو حال معظم المُجرمين.

لدى عودتي، وجدتُ أن الخادمة خارج المنزل، «تتسوَّق» كما أوضحت الطاهية. لكنها سرعان ما عادت، وبمجرَّد أن رأيتها عرفتُ أنها كانت «تستفسر سرًّا». فقد كان سلوكها

هي والطاهية غريبًا للغاية. وكانتا في غاية القلق والاكتئاب؛ وكانتا تنظران إليَّ بنفورٍ واضح وخشيةٍ أكثرَ وضوحًا. كانتا تتنقَّلان في أرجاء المنزل، في صمتٍ وقلق؛ وأظهرتا رغبةً مُثيرة للريبة في أن تُبقياني على مرأًى منهما طوال الوقت، ومع ذلك كانتا تُهرعان خارج الغرفة التي أكون فيها حين أقترب.

كانت الخادمة هي الأكثر انزعاجًا. كانت ترمقني بعينِها على الدوام حين تخدمني على الطاولة، ويُصيبها الفزع إنْ أنا تحركتُ فجأة. وكان مما حدث أنها أسقطت وعاءَ تقديم الحساء فقط لأنني نظرت إليها بانتباه؛ وكانت تُخطئ باستمرار في صبِّ النبيذ في كأسي وتسقط نبيذ الكلاريت على مفرش الطاولة؛ وحين اختبرتُ نصل سكين تقطيع الدجاج الذي أصبح ثلمًا بدرجةٍ ما، هُرعت إلى خارج الغرفة ورأيتها تُراقبني من شقِّ الباب.

وقد أصابتها صدمةٌ قوية لدى وصول الهياكل «البديلة» من التاجر بعد ذلك بيومَين. كنتُ في حجرة الطعام حين وصلت الهياكل، وقد سمعتُ ما جرى من خلال الباب الذي كان مفتوحًا؛ ومما لا شك فيه أن الحادثة لم تمرَّ دون وقوع شيءٍ مُثير للضحك.

أتى الحمَّال إلى الباب الأمامي وإلى سوزان التي فتحت له الباب، وتحدَّث إليها بانعدام الكلفة المعتاد ممَّن يعملون في مهنته.

فقال لها: «إليكِ الصناديق الثلاثة التي طلبها سيدُك. إنها تبدو ذات مظهر غريب. لا يُصادف أن سيدك يعمل في مجال نبش القبور، أليس كذلك؟»

أجابته سوزان بحدة: «لا أعرف ماذا تقصد.»

فعاود الرجل الكلام: «ستعرفين قصدي حين ترين الصناديق. هاكِ هي الثلاثة. صناديقَ كبيرة. أين ستضعونها؟»

أتتني سوزان من أجل التعليمات، فوجَّهت أنَّ عليهما أخذها إلى المتحف، وكنتُ قد تركتُ بابَه غير موصَد لأجل هذا.

لا شك أنَّ مظهر الصناديق كان جنائزيًّا، ليس من حيث شكلها وحسب، بل ولونها أيضًا؛ ذلك أنَّ التاجر قد أمرَ بطلائها باللون الأسود، ويبدو أنه اختار توقيتًا سيئًا. وقد زاد سلوكُ الحمَّالَين المبتسمَين من حدة الأجواء الجنائزية، فقد حملا كلَّ صندوقٍ على كتفيهما كالتابوت، وتقدَّما نحو المتحف بخطواتٍ جنائزية بطيئة؛ وحين غبتُ عن أعينهما — لكن كان لا يزال بإمكاني سماعهما — سمعت الحمَّال المتقدِّم، الذي كان ظريفًا بعضَ الشيء، يُصفِّر لحنَ المسيرة الجنائزية في الأوراتوريو «سول» بصوتٍ خفيض.

في تلك الأثناء، وقفَت سوزان سلودجر في الرَّدهة وكان وجهها شاحبًا كشمعة مصنوعة من الشحم الحيواني. وأخذَت تُحدِّق في الصناديق الطويلة السوداء باندهاش

يُخالطه الخوف، ولم تنبس ببنت شفة حتى حين سألها الحمَّال الظريف عن وجهة «أخينا الفقيد العزيز». إذ كانت واجمةً تمامًا.

حين غادر الحمَّالان وجَّهتها أن تأتيَ إلى المتحف وتُساعدني في تفريغ محتويات الصناديق، وقد رفضت ذلك رفضًا قاطعًا إلا إنْ ساعدَتْها الطاهية. لم يكن لديَّ اعتراض على هذا بالطبع، وحين ذهبت سوزان إلى المطبخ لتحضِر زميلتها، اتخذتُ مكانًا لي خلف باب المختبر تمامًا ووقفت أنتظر ما سيحدث. كان كل صندوق مُغطًّى بغطاءٍ ذي مفصَّلات ومُثبَّت بخُطَّاف صغير، بحيث لا يجد المرء صعوبةً في التأكد من محتويات الصندوق حين يقطع الحبال التي تربطه.

أتت المرأتان بخطواتٍ سريعة عبْر الرَّدهة، فكانت الطاهية تُثرثر بابتهاج فيما التزمت الخادمة الصمت؛ لكنهما توقَّفتا عند باب المتحف ولم تدخلاه، وصاحت الأولى قائلة: «يا إلهي! ما هذا؟»

هنا تقدَّمتُ من مكاني وقلت لهما: «هذه صناديقُ لعيناتٍ من أجل المتحف. أريد منكما أن تَحُلَّا الحبال. هذا كل شيء. وأنا سأخرِج المحتويات بنفسي.» قلت هذا وعدتُ إلى المختبر، لكن في أقل من نصف دقيقة، سمِعت سلسلةً من الصرخات، وأخذت المرأتان تسارعان نحو الرَّدهة حتى اختفتا تحت الدَّرج.

بعد هذا زاد الوضع سوءًا أكثرَ من ذي قبل. إذ ظلَّت هاتان المرأتان تُلازمانني ملازمةً تامة، وذلك رغم خوفهما الواضح مني. وكان هذا غير مناسب بالمرة؛ لأنني ظللتُ منشغلًا للغاية من كثرة الأعمال، وما زاد الطين بِلة هو أنني تلقيتُ من متجر جامراك ضبعًا ميتًا (من دون طلب مني — لكن تعيَّن عليَّ أن أحتفظ بالحيوان) كان مُصابًا بالتهاب العظم المُشوَّه. كانت عينة الضبع جيدة ومفيدة كونها توفِّر سببًا لانشغالي الكبير؛ لكنها أُضيفت إلى أعباء الأعمال وجعلتني لا أطيق التعطيل والمقاطعة.

وكان لجناح المتحف مدخلٌ خاص به في شارعٍ جانبي وهو مُخصَّص لتسليم الطلبات (مثل عينة الضبع هذه)، وقد أمدَّني هذا بقدرٍ من الارتياح؛ لأن باستطاعتي الخروج من الباب الأمامي للمنزل والاندساس في المتحف من المدخل الجانبي. لكن سرعان ما اكتشفَت سوزان هذا المدخل، ومنذ ذلك الحين وهي لا تتوقَّف عن الطرق على باب الرَّدهة لترى إن كنتُ بالداخل. لا أعرف ما كانت تظن. إذ كانت امرأةً جاهلةً وغبية، لكني أعتقد أنها ربطت بطريقةٍ ما عملي في المختبر باختفاء أصدقائها.

أصبح هذا التجسُّس الدائم على أموري أمرًا لا يُطاق في نهاية المطاف، وكنتُ على وشْك أن أطرد هاتين الوقحتَين حين حدثت واقعةٌ ما وضعت حدًّا للحالة الراهنة للأمور.

كنت قد خرجتُ من الباب الأمامي ودخلت المتحف من المدخل الجانبي، لكن وفي غفلةٍ مُثيرة للدهشة تركتُ باب الرَّدهة غير موصد؛ وما كدتُ أرتدي مئزري لأشرع في العمل حين سمعت أحدَهم يدخل الرَّدهة. ثم جاء صوت طرق خافت على باب المختبر. لم أُعِر الأمر اهتمامًا، لكنني انتظرتُ لأرى ما سيحدث. تكرَّر الطَّرق مرتَين بصوت أعلى في كل مرة من التي سبقتها، لكنني لم أحرِّك ساكنًا. ثم وبعد برهة، سمعتُ صوتَ شيءٍ معدني يدخل في قُفل الباب.

فقرَّرتُ أن أضع نهايةً لهذا الأمر. فخبَّأت العينة التي كنت أعمل عليها في هدوء، وأخذت شبكةً كبيرة لصيد الفراشات كانت معلَّقة على مسمار (كانت زوجتي الراحلة مهتمة بحرشفيات الأجنحة). وبهدوء بالِغ تسللتُ على أطراف أصابعي إلى الباب وفتحته فجأةً. كانت سوزان سلودجر واقفة وفي يدها دبوسُ شَعر، وكانت مشلولة تمامًا لِما بها من رعب. وفي لحظة، قبل أن يتسنى لها وقتٌ للعودة إلى الواقع، كنتُ قد وضعت شبكةَ صيد الفراشات على رأسها.

أعادها فِعلي هذا إلى الواقع. فاستدارت وجرَت هاربةً في طيش وتهوُّر وهي تصرخ صرخةً حادة، حتى إنها نزعت الشبكة عن مِقبضها. رأيتها وهي تُهرع على طول الرَّدهة والشبكة على رأسها، فكانت تبدو وكأنها عروس شرقية؛ وسمعتُ صوت باب المنزل الأمامي يُغلَق بقوة، ثم بعدها وجدتُ الشبكة على البساط المفروش عند الباب. لكنَّ عيني لم تقع على سوزان سلودجر مرةً أخرى أبدًا.

كما تركت الطاهية المنزل في اليوم نفسه، وقد أخذت معها مُتعلقات سوزان. كان هذا الأمر باعثًا كبيرًا على الارتياح. فقد خلا البيت الآن لي وحدي، وكان بإمكاني العملُ من دون مُقاطعة أو من دون الشعور بالانزعاج لأن هناك مَن يتجسَّس عليَّ. أمَّا ثمرةُ عملي، فقد ذكرتُها كاملة في الفهرس؛ ومن هذه المغامرة يُمكنني أن أقول لزوَّار متحفي: «إذا كنتَ تبحث عن نصبٍ تذكاري، فانظر من حولك»، بحسب تعبير النقش المعروف.»

كان هذا هو سردَ تشالونر حول حصوله على العينات التي تحمل الأرقام ٢، و٣، و٤. وقد تطرَّق إلى أوصاف العيِّنات التي حضَّرها بتفصيل جافٍّ ودقيق في الفهرس، بحسب قوله، وكانت بعض التفاصيل مُثيرة للاهتمام بحق؛ على سبيل المثال، حقيقة أن «جمجمة العينة رقم ٤ تجمع بين تطاول الرأس بدرجةٍ كبيرة (٦٧,٥) وسَعة قحف لا تزيد عن ١٥٢٣ سنتيمترًا مكعبًا.» بالتأكيد كان هذا هو ما قد يتوقَّعه المرء من سلوكه.

لكن بالنسبة للقارئ العادي، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف كانت حالة تشالونر الذهنية؟ أكان مخبولًا؟ أكان خبيثًا وشريرًا؟ أم مجرد أن وجهة نظره غير

تقليدية؟ إنني أميل إلى الأخيرة بعد تفكيرٍ طويل. من الواضح أنه كان يرفض اعتبارَ المُجرمين بشرًا مثله، وكان يعدُّ نفسه فاعلَ خيرٍ للمجتمع بالتخلُّص منهم. وربما كان محقًّا.

أمَّا المتعة المختلَّة التي وجدَها في عملية قتل المُجرمين، فلا يسعني سوى القول إنَّ الرجال السليمِي العقل يجِدون متعةً في قتل الحيوانات البريئة — مثل الزرافة — التي ليس لهم بها حاجة؛ وهناك رجال عقلاء آخرون يسافرون خارج بلادهم ويقتلون — بطرق بربرية — رجالًا آخرين غرباء عنهم لدَيهم شخصيات لها تقديرها وليس بينهم خلاف. يُطلِقون على هذه الممارسة لفظ الحرب، ويبدو أنهم يستمتعون بها. لكنَّ القتل واحد في كل الحالات؛ ومن المؤكَّد أن حياة فلاح أجنبي أهمُّ من حياة مجرم إنجليزي.

لكن هذا مجرد قول عرَضي وعابر، ولا شك أن الكثيرين سيُعارضونه.

الفصل الرابع

هدايا الصُّدفة

ينبغي بترتيبات الوصاية للأشخاص الذين يتميزون بغرابة الأطوار أن تحيل للموصَى لهم من وقتٍ لآخر ملكية بعض الأشياء العجيبة جدًّا. أذكر هنا رجلًا نبيلًا عجوزًا وهب لقريبٍ له من بعيدٍ ما جمعه طوال حياته بصورة عشوائية؛ اشتملت القائمة على مدفع ميداني عتيق، وجَمل مُحنط، وديدان شريطية معبَّأة في زجاجات، وسيارة إطفاء ومنبر كنيسة وتجهيزات حانة فندق صغير. ويُمكنني كذلك ذِكر مواقف أخرى مشابهة. لكن من المؤكد أنه لا يُوجَد موصًى له وجد نفسه يمتلك إرثًا أعجبَ مما أوصى به لي صديقي الراحلُ تشالونر حين نقل لي ملكيةَ رفات نحو دزينتَين من المُجرمين المَيِّتين.

كانت هذه الوصية ستصبح فريدةً تحت أي ظرف من الظروف، لكن ما زادها تفرُّدًا هو الحميمية الغريبة التي ترسَّخت بيني وبين هؤلاء الموتى. بالنسبة للمراقب العادي، فإنَّ هيكلًا عظميًّا في صندوقٍ بمتحف أو بإحدى مدارس الفن لا ينقل أيَّ إحساسٍ حي بالإنسانية. فهو لا يرى إلا بشكلٍ مُبهم أن هذا الجسم العظمي كان فيما مضى شخصًا حقيقيًّا، مثله، كان يسير بالشوارع ويرتدي الملابس، يُحب ويكره، ويفرح ويحزن، وله أصدقاء وأحباب ووالدان وربما كان له أطفال، أي باختصار أنه كان على قيد الحياة. فهذا الشيء مجرد عيِّنة عظمية؛ مجرد عمل تشريحي.

أما هذه الهياكل الخاصة بتشالونر فهي مختلفة إلى حدٍّ كبير. فعندما كنتُ أسير بطول الغرفة الطويلة وأنظر في تلك الصناديق الكبيرة، أواجه أشخاصًا حقيقيِّين. كان الهيكل رقم ١ رجلًا يُدعى جيمي آرتشر، الذي حاول سرقة «الإبريق اللعين». وكان الهيكل رقم ٣ هو اللص فريد؛ إذ يُمكنني تمييزه من خلال الشق الموجود في ضلعه الخامس الذي أحدثته الرصاصة التي أطلقها صديقه. وكان الهيكل رقم ٢ هو الرجل الذي أطلق تلك الرصاصة، والهيكل رقم ٤ هو جو الذي «قُتل في الظلام». كنت أعرفها جميعًا. كان

أرشيف المتحف العجيب قد أخبرني كل شيءٍ عنها؛ وأمَّا بقية هذه المجموعة الرهيبة التي كانت لا تزال غريبة لديَّ فإنَّ ذلك المُجلَّد المكتوب بدقةٍ وإتقان والمجلَّد بجلدٍ روسي الذي تركه لي تشالونر، سيُخبرني عنها أيضًا.

مرَّت بضعة أيام قبل أن أتمكَّن من استكمال قراءتي لذلك الكتاب الصغير المُثير للعجب، وكان ذلك في أمسيةٍ كنت متفرِّغًا فيها. إذ ارتديتُ خفيَّ بعد أن دقَّت الساعة معلنةً العاشرة، وضبطتُ الإضاءة وسحبتُ كرسيًّا بمسندَين بالقرب من مدفأة المكتب وفتحت الكتاب على الموضع الذي يحمل مظروفًا كنت قد وضعته في آخر مرة قرأته فيها. كان عنوان الصفحة «الملابسات المصاحبة للحصول على العينتَين ٥ و٦»، وجاء السرد كالآتي:

«عند وضع الخطط المدروسة بعناية فائقة موضعَ التنفيذ، فمن المُحتمل اكتشاف عيوب غير متوقَّعة. ولم تكن خطَّتي الدقيقة للإيقاع باللصوص استثناءً من ذلك. إنَّ فكرة توظيف خَدَم غير أمناء بصورة واضحة كطُعمٍ لإغراء اللصوص للإتيان إلى منزلي كانت فكرةً مُمتازة وتُلبي كل توقُّعاتي. لكنها كانت تنطوي على عيبٍ لم أنتبه له. فاللصوص أنفسهم حين يُختزلون إلى حالةٍ مناسِبة لعرضهم في صندوق عرض، يكونون غير مؤذين تمامًا. فلا يُخشى منهم أن يُدلوا بتصريحات طائشة. لكن بالنسبة للخَدَم — والنسوة منهم بصفة خاصة — كان الوضع مختلفًا تمامًا. فقد انطلقوا من تحت سقف بيتي لينشروا الشكَّ والريبة بشأني في أماكنَ ينبغي أن تسودها عني الثقة التامة والمِصداقية. وكم كان هذا السهو مؤسفًا للغاية! أما الآن وقد فات الأوان، فقد رأيت بوضوح تامٍّ أنه ما كان ينبغي لهؤلاء أن يُفارقوني أبدًا. كان حريًّا بي أن أُضيفهم هم أيضًا إلى المجموعة.

لم يمرَّ وقتٌ طويل حتى بدت عواقبُ هذا الخطأ واضحة وجلية. إذ كنتُ قد استبدلت امرأتَين خائنتَين للأمانة، خيانة لا يرقى إليها الشكُّ، بالطاهية والخادمة السابقتَين، وكنتُ أعقد عليهما آمالًا عظيمة بالطبع. لكن لم يحدُث شيء. كنت أسمح لهما بالتعامُل بحرية مع الأواني الفضية، وكنتُ أعطيهما مفتاح الخزنة من وقتٍ لآخر، ولَّمعتُ الأساور والقلائد المُزيَّفة أمام أعينهما، وما زلت لم أحصل على أي نتيجة. صحيح أنَّ عدد الملاعق الفضية كان يتقلَّص وأن الشمعدانات أو رشَّاشات الملح كانت «تعلن عن غيابها» بين الحين والآخر؛ وأن فواتير التجَّار كانت تصير غير معقولة، وأن الشاي الذي نستهلكه في أسبوع كفيلٌ أن يضعضع قدرة كلٍّ من في بيت فرسان الهيكل الصالحين المُناصرين للامتناع عن شرب الخمر على الهضم. لكن كان هذا هو كل ما يحدُث. فلم يكن يظهر أي أحدٍ من

الطامحين إلى الحصول على التكريم بالمتحف. وقد صار المربات مُغبَّرًا من قلة الاستخدام؛ وبقِيَت الخزنة التي في غرفة الطعام مهملةً ولا يمسُّها أحد، وأمَّا جهاز الإنذار ضد اللصوص، فكنت أضطر إلى الوقوف عليه بنفسي بعد مرور فتراتٍ زمنية محدَّدة لضمان أنه يعمل.

كنت قد قرَّرت بالفعل التخلُّص من هاتَين المرأتين حين وفَّرتا عليَّ عناء الأمر. إذ أمرتهما أن تَصحباني إلى المختبر لتنظيف الفرن، فوجدت منهما رفضًا قاطعًا وقد صارتا شاحبتَين؛ ورأيتهما بعدها بنصف ساعة تُسلِّمان متعلقاتهما إلى رجلٍ معه عربة يد خارج المنزل. من الواضح أن أحدهم أخبرهما شيئًا عن ممارساتي.

أما الطاهية والخادمة اللتان كانتا خلَفًا لهما فكانتا سجينتَين فيما مضى ببساطةٍ ووضوح. كانتا حقيرتَين ومُخادعتَين وكسولتَين وسكِّيرتَين في بعض الأحيان. لكن بالنسبة لوظيفتهما الفعلية، فلم يكن هناك طائل من ورائهما. كانتا تشربان الويسكي الخاص بي، وتلتهمان مئونتي وتوزعان منها، وتسرقان منقولاتي، وذات مرة أدركتهما تتجوَّلان في المتحف حين تركتُ بابه مفتوحًا في غفلة مني؛ لكنني لم أجد منهما أيَّ منفعة بشأن خُطتي.

صحيح أنني قد جاءني زائر واحد أثناء فترة خدمتهما، وهو مُحتالٌ صغير وضيع وكالح، تسلَّل إلى منزلي من نافذة غرفة الغسيل؛ لكنني أعتقِد أنه ليس بينه وبينهما صلة، وإلا كان سيدخل منزلي بطريقةٍ مناسبة أكثرَ وكان سيستخدِم مفتاحًا مزيفًا بدلًا من العتلة ليفتح الخزنة. كان مخلوقًا ضئيلًا وبائسًا، وعملية الإيقاع به غير مُثيرة للاهتمام إلى حدٍّ كبير؛ لأنه بعد أن عضَّني مرتَين، انهار كدُمية مُهترئة وحملتُه إلى الخزان وكأنه قرد.

رغم هذا لا ينبغي لي أن أُبالغ في احتقاره بغير وجه حق؛ لأنه كان حتى ذلك الوقت العيِّنة الوحيدة التي تُمثِّل «سِمات الإجرام» التقليدية. كان شَعره كثًّا ووجهه غير مُتماثل بصورةٍ بارزة، وكانت أُذناه مثل تلك التي أشار لومبروسو إلى أنها شائعة في المُجرمين؛ بارزتَين ولهما نتوءات داروينية كبيرة وتكادان تخلوان من الشحمات.

مع ذلك، وأيًّا كانت الجوانب المُثيرة للاهتمام فيه، كان الرجل يمثِّل صيدًا ضالًّا. فقد قادته المصادفة كما قد تقود الآخرين من نوعيتِه على مدار السنوات. لكن هذا لن يُحقق أغراضي. كانت الأرقام هي ما أريد وما خطَّطت له؛ وأدركت بإحباط شديد وعميق أن خطتي قد أخفقت. فقد انتهت مصادر إمدادي بالتجهيزات الأنثروبولوجية. باختصار، «هزمني» مجتمع المُجرمِين.

لم تكن هزيمتي هذه مجرد ظنٍّ مني. إذ حصلتُ على أدلة مباشِرة وغريبة جدًّا عليها بمجرد أن انتهيت من تجهيز العينة رقم ٥. كنتُ عائدًا إلى المنزل ذات مساء وكنت أقترب من مُحيط المنزل حين انتبهت إلى رجلٍ ضئيل رثِّ الهيئة بدا وكأنه يتبعني. فأبطأت خطواتي قليلًا لأسمح له بأن يتجاوزني أو يمرَّ بجواري، وحين كنت على بُعد خطواتٍ قليلة من الباب الجانبي (مدخل المتحف) حاول الاقتراب منِّي وخاطبني بصوتٍ أجشَّ.

«يا هذا.»

فتوقَّفتُ ونظرت إليه بإمعان؛ فوجدته قد اضطرب. فسألته: «هل تُحدثني؟»

اقترب أكثر، لكنه لم ينظر لي في عيني، ثم أخذ يتلفَّت يمينًا وشمالًا، ثم أجاب: «نعم، أُكلمك يا هذا.»

فسألته: «ماذا تريد؟»

اقترب أكثرَ من ذي قبل وقال بنبرةٍ خشنة خفيضة: «أريد أن أعرف ما حدث وما فعلتَ بابن خالتي بيل.»

فقلت: «ابن خالتك بيل. هل هو أحدٌ أعرفه؟»

فكان ردُّه: «لا أعلم إن كنت تعرفه، لكني رأيتُه يدخل إلى منزلك ولم أرَه يُغادر قط مرة أخرى، وأريد أن أعرف ما حدث وما فعلتَ به.»

والآن كان هناك شيء مُثير للاهتمام. كنت قد لاحظت بالفعل شيئًا مألوفًا في وجه الرجل. وقد فسَّر لي سؤاله ما رأيت. من الواضح أن ابن خالته بيل هو العيِّنة رقم ٥ في السلسلة الأنثروبولوجية. في واقع الأمر، كان وجه الشبَه بارزًا للغاية. كان النموذج الواقف أمامي الآن — مثل ابن خالته بيل — كائنًا ناقص النمو، له الأنف المُعوجُّ نفسه، والوجه غير المُتماثل نفسه وأذنان مُشابهتان لأذنَيه؛ أذنان كبيرتان مُسطَّحتان بارزتان من رأسه كمقبضَي أمفورة، لهما نتوءات داروينية ملحوظة وإطار عديم الشكل وشحمة غير مُكتملة. كان لومبروسو سيُحبه كثيرًا. وكانت صورة الرجل ستُمثِّل مصدرًا مبهجًا لأغراض الشرح والتوضيح، كما أنه — كما تراءى لي فجأة — سيمثِّل عيِّنة مرافقة مُمتعة للغاية للعيِّنة رقم ٥.

قلت له وهذه الفكرة الجديدة في رأسي: «ابن خالتك بيل هذا. أهو ابن أخت أمك مباشرةً؟» (بعض التفاصيل الخاصة بالوراثة تُضيف كثيرًا لقيمة العينة وقُدرتِها على أن تكون أداة تعليمية.)

«وبافتراض أنه كذلك. ماذا بعدُ؟ أريد أن أعرف ما حدث وما فعلتَ به.»

فسألته: «ما الذي يجعلك تعتقِد أنني فعلتُ به شيئًا؟»

«عجبًا، لقد رأيته وهو يدخل منزلك لكنني لم أرَه قط وهو يخرج.»

فاعترضت قائلًا: «لكن أيها الرجل الطيب، هذا منطقٌ في غاية السوء. إن كنت رأيته حين دخل، فثمة افتراض منطقي أنه دخل و...»

قاطعني صاحبنا قائلًا: «رأيته بأمِّ عيني»، وكأن هناك وسائل أخرى للرؤية.

لكنني استطردت: «لكن حقيقة أنك لم ترَه يخرج لا تؤسِّس لافتراض أنه لم يخرج. فربما خرج دون أن يُلاحظه أحد.»

«كلَّا، لم يخرج. لم يخرج البتة. رأيته يدخل و...»

«لقد قلت هذا من قبل. أيُمكنني أن أسألك عن طبيعة عمله؟»

أجاب صديقنا بشيءٍ من التردُّد: «طبيعة عمله كانت خاصة.»

«فهمت. هل دخل المنزل من الباب الأمامي؟»

«كلا، لم يفعل. لقد دخل من نافذة غرفة الغسيل.»

«في المساء بلا شك، أليس كذلك؟»

فكانت إجابة الرجل: «الثانية صباحًا.»

فقلت: «آه! دخل المنزل من نافذة غرفة الغسيل في الثانية صباحًا لعملٍ خاص به. هكذا الأمر إذن! في الواقع وكما ترى، المنطق السليم في هذا الموقف يقول بأنه إذا دخل ولم يخرج، فلا بد وأنه لا يزال في الداخل.»

فوافقني الرجل قائلًا: «هذا ما أعتقده تمامًا.»

«لا بأس إذن. في هذه الحال، ربما ترغب أن تدخل وتُلقي نظرةً وترى إن كنت تستطيع أن تجده.» وأخرجتُ مفتاحي وأشرتُ له نحو باب المتحف أدعوه للدخول.

فصاح الرجل وهو يتراجع بسرعة إلى الشارع: «كلَّا لن تفعل. لن تُدخلني إلى هناك، أرفض ذلك مباشرة.»

«إذن ماذا تريدني أن أفعل؟»

ردَّ قائلًا: «أريد أن أعرف ما حدث وما فعلتَ بابن خالتي بيل. رأيته يدخل و...»

فقاطعته وقد نفد صبري: «أعرف. قلت هذا من قبلُ.»

أضاف الرجل: «اسمَع يا هذا. من أين حصلتَ على كل تلك الهياكل العظمية؟» لا شك أن أحدهم تحدَّث إلى هذا الصعلوك الضئيل.

أجبته: «لا يُمكنني التطرُّق إلى أسئلة من هذا النوع.»

فردَّ قائلًا: «كلَّا، لا أعتقد أنك تستطيع؛ لكنني سأُخبرك بما أظن أنه حدث وما فعلتَ ببيل. لقد أدخلته إلى منزلك وقضيتَ عليه. هذا هو ما أعتقد. وأخبرك أن الأمر لن يمرَّ. حين يدخل رجل إلى منزلٍ ليُنجز عملًا غير عنيف، فإنه يتوقَّع أن يلقى القبض عليه إذا ما صادفته الشرطة. لكنه لا يتوقَّع أن يُقضى عليه. هذا ليس عدلًا، ولن أقبل به.»

«إذن ماذا تقترح أن نفعل؟» هكذا تساءلتُ ببعض الفضول.

فأجاب ذلك المُتشرِّد الضئيل بغطرسة: «أقترح أن أدَعَ القانون يأخذ مجراه. سأُطلِع الشرطة على هذا الأمر.»

وهنا استدار بسرعةٍ واندفع يمشي مُبتعدًا وهو يُجرجر قدمَيه بالطريقة المعهودة من أبناء فئته. ودخلت أنا إلى المتحف من الباب الجانبي وتقدَّمتُ لأفحص العينة رقم ٥ باهتمام متجدِّد. فقد كان التشابُه بينهما لافتًا. كان بالإمكان تتبُّع التشابُه بينهما حتى في الجمجمة وفي مقاسات الهيكل العظمي بصفةٍ عامة، في حين كان التشابُهُ بينهما في الرأس الجاف الصغير واضحًا بصورة بالغة. أسِفتُ كثيرًا على عدم قبوله لدعوتي بالدخول. إذ كان سيُصبح فائقَ القيمة باعتباره عيِّنةً مرافقة توضِّح التشابُه الجسدي في العائلات الإجرامية.

انشغلتُ كثيرًا بالتفكير في محادثته وتهديده المُثير للسخرية. بالنسبة له، يمثِّل الهجوم على المنازل لسرقتها ممارسةً رياضية مشروعة تحكمها قوانينُ مُعينة. لاعبوها هم اللص وصاحب المنزل على الترتيب، يُخاطر فيها الثاني بمُمتلكاته والأول بفترةٍ مُعينة من حريته الشخصية؛ وقواعد اللعبة مُلزِمة لكليهما على حدٍّ سواء. كان هذا مفهومًا أجدرَ أن يُجسَّد في أوبرا كوميدية؛ ومع ذلك، ورغم أن الأمر قد يبدو غير قابلٍ للتصديق، فإنَّ هذا المفهوم عن الجريمة هو المقبول في يومِنا هذا وهو الذي يتصرَّف المجتمع على أساسه.

كان التهديد الذي نطق به صاحبنا الضئيل له وقْعُ المسرحيات الهزلية الكبرى، ومن ثمَّ يُمكنني أن أقرَّ بأنني أخذت أتدبَّره. فكرة أن يتقدَّم اللص بشكوى ضد صاحب المنزل لإعاقته عن تنفيذ مهامِّه الخاصة قد يتفتَّق عنها ذهن الكاتب الراحل دبليو إس جيلبرت الغريب الأطوار. فانقلابُ الأمر الغريب رأسًا على عقب جعلني أضحك كثيرًا حين تذكَّرت لقائي بالرجل في الأيام القليلة التي تلته؛ لكن بالطبع، لم أتخيَّل قطُّ أن يُحاول الرجل فعليًّا أن يُنفِّذ تهديده.

يمكنك إذن أن تتخيَّل دهشتي حين أدركتُ أنه لم يتقدَّم بالشكوى وحسب، بل وتحرَّكت عناصر إنفاذ القانون — على الأقل بصورة مبدئية.

نزلت عليَّ تلك المفاجأة كالصاعقة بعد ثلاثة أيامٍ من لقائي بالرجل ابن خالة العينة رقم ٥. كنت جالسًا في مكتبي أقرأ كتاب تشيفرز بعنوان «الجرائم في حق الأشخاص» حين دخلت عليَّ الخادمة ومعها بطاقة زيارة. «رجل نبيل يرغب في رؤيتي ليُحدثني في أمور علمية خاصة.»

نظرت إلى البطاقة. كانت تحمل اسم «السيد جيمس رامتشايلد»، وهو اسمٌ لم يكن مألوفًا لي. كان الأمر غريبًا للغاية. فلو كان الرجل زميلًا من الأوساط العلمية لراسَلَني ليُحدِّد موعدًا ولأطلعني على هدف الزيارة. فنظرتُ إلى البطاقة ثانية. كانت مطبوعة بحروفٍ مطبعية وليست عن طريق الحفر، كما هو معتاد، وكانت تحمل عنوانًا في طريق كيننجتون بارك. كانت تلك معلوماتٍ مهمة ومُثيرة للريبة بدرجة طفيفة. وشعرت وكأنني أشم رائحة مسافرٍ أتى عابرًا الأطلنطي؛ مسافرٍ له ميول تجارية.

قلت للخادمة: «رافقي السيد رامتشايلد إلى هنا»، فخرَجَت وعادت بعد فترة قصيرة وبرفقتها رجل طويل ضخم الجسم يبدو عليه الطابع العسكري إلى حدٍّ ما.

كان من الممكن أن أرفع صوتي بالضحك، لكنني لم أفعل. إذ لم يكن من الحكمة فعل هذا، وبالتأكيد لم يكن ليُعَدَّ من الأدب أيضًا. لكنني ضحكتُ في نفسي بينما أعرض على زائري الجلوس. «الخبرة تُعلِّم!» كنت قد رأيت عددًا من ضباط الشرطة ذوي الثياب المدنية في الشهور القليلة الماضية، والرجل الذي يقف أمامي يُمثِّل عينة مثالية منهم حتى ولو كان من دون الحذاء الطويل الذي يرتديه. فتجهَّزت لشيءٍ مُمتع.

شرع زائري يقول: «لقد سمحتُ لنفسي بزيارتك يا سيد تشالونر لأطرح بعض الأسئلة بشأن ... الهياكل العظمية.»

فأومأت بجِدية وكتمت ضحكةً بداخلي. كان الرجل بسيطًا، هذا المدعو رامتشايلد. «بشأن الهياكل العظمية!» يا له من تعبير يستخدِمه رجل عِلم! إنه مخلوق ساذج بكل تأكيد! ذو طبيعة طفولية بحق، إن جاز التعبير.

وأكمل يقول: «فهمتُ أنك تملك مجموعةً شهيرة من ... الهياكل العظمية.» فأومأتُ له ثانية. بالطبع لم أكن أملك شيئًا من هذه الشاكلة. فمجموعتي كانت خاصة وصغيرة. لكن لم يكن لهذا أي أهمية. واختتم الرجل كلامه قائلًا: «لذا جئتُك أسألك إن كنت تسمح أن أراها.»

فسألته: «كيف سمعتَ عن مجموعتي؟»

«أتى صديقي السيد ... السيد وينتربوتوم من كامبريدج على ذكرها.»

فقلت: «آه، أذكر وينتربوتوم جيدًا. كيف حاله؟»

أجاب المُحقِّق: «إنه بأفضل حال، شكرًا لك»، وقد بدا عليه الاندهاش الشديد؛ ولم يكن اندهاشه هذا من دون سبب، فقد رأيت أنه ارتجل هذا الاسم من دون شكٍّ وأنه وليد اللحظة.

«هل هناك فرع مُعيَّن من فروع المجال تهتمُّ به بصفة خاصة؟» هكذا سألته، عامدًا ألا أمنحه زمام المبادرة.

أجابني: «لا. لا، ليس على وجه الخصوص. الأمر أني فكَّرت في الشروع بجمع مجموعة خاصة بي إن لم يكن الأمر باهظ الكلفة. لكنك تملك مُتحفًا دائمًا هنا، أليس كذلك؟»

«بلى. تعالَ وألقِ نظرة.»

نهض الرجل بخفَّة ورشاقة وتقدَّمتُه عبْر حجرة الطعام إلى جناح المتحف، ولاحظتُ أنه حريص جدًّا على ملاحظة التفاصيل الإنشائية للمنزل، ولو لم يكن يعرف الكثير بشأن عِلم العظام. وقد نظر إلى الخزنة نظراتٍ طويلة؛ إذ أخفق خشب الماهوجني المُغلَّف لواجهتها في إخفاء طبيعتها عن العين الخبيرة، وانتبه إلى الباب الهائل الحجم الذي يُمثِّل مدخل جناح المتحف، وإلى قُفل ييل الذي يوصده. وفي المتحف أخذت عينه تتقلَّب بين الهياكل العظمية البشرية الخمسة الموضوعة في الصندوق الكبير بطول الجدار، لكنني اقتدتُه في الاتجاه المعاكس نحو الصندوق الذي يحوي مجموعتي المُثيرة للفضول من عينات هياكل الحيوانات الأدنى العظمية المشوَّهة وغير الطبيعية.

ثم قلت في إعجابٍ وانشراح: «هاكَ هو كنزي الصغير. أهناك عيِّنة تود أن نخرجها وتفحصها؟»

نظر الرجل بلامبالاة في الصندوق وغمغم قائلًا إنَّ «العينات كلها مثيرة للاهتمام بشدة»، ولاحظتُ مرةً أخرى عينَه وهي تتقلَّب نحو الصندوق الكبير عند الجهة المقابلة. وكنتُ أمدُّ يدي إلى شيهمٍ يُعاني تصلُّبَ مِفصل الركبة حين استجمع هو شجاعته ليقول مباشرة: «في الواقع، أنا مُهتم في الأساس بالهياكل العظمية البشرية.»

فأعدتُ الشيهم إلى مكانه وسرتُ إلى الصندوق الكبير عند الجدار. وقلت معتذرًا: «يؤسِفني أنني ليس لديَّ المزيد لأريك إياه. ما هذه إلا باكورة المجموعة، كما ترى؛ لكن لا تزال هذه العينات موضع اهتمامٍ كبير. ألا تجدها مثيرة للاهتمام؟»

من الواضح أنه كان يجدها مثيرةً للاهتمام، ذلك أنه أخذ يتأمَّل التواريخ المدونة على الركائز الصغيرة باهتمامٍ عميق وعلَّق في النهاية قائلًا: «أرى أنك دوَّنت تاريخًا على كل عينة منها. فإلامَ يُشير ذلك؟»

أجبته: «هذه تواريخ حصولي على هذه العينات.»

«أوه، بالفعل.» وأخذ يتأمَّل العينة رقم ٥ تأملًا طويلًا. اعتقدت أنه يحاول تذكُّر تاريخٍ أمدَّه به ابن خالة العينة رقم ٥ وأنه يرغب في الاطلاع على مفكرته.

فقلت: «تفاصيل العينات أطولُ من أن أتمكن من تدوينها على هذه البطاقات، لكنني دوَّنتها بالتفصيل في الفهرس.»

فسألني الرجل بحماس: «أيمكنني الاطلاع على هذا الفهرس؟»

«بكل تأكيد.» ثم أتيت بكتاب صغير مخطوط باليد — ليس الفهرس المرفق بالأرشيف، بل نسخة زائفة أعددتُها في حال طرأ أمرٌ ما كما حدث في هذه الحالة — وأعطيته له. فتح الرجل الكتاب بتوقٍ شديد، وذهب إلى مدخلات العينة رقم ٥ على الفور، وبدأ يقرأ الوصف بصوتٍ عالٍ وقد بدا عليه الإحباط.

«رقم ٥. هيكل عظمي لذَكَرٍ ذي أصلٍ تيوتوني يُظهِر علامات بارزة على التخلُّف. الجمجمة غير مُتماثلة وإلى حدٍّ كبير متطاولة.» (كرَّر الرجل المقابل الإنجليزي للكلمة الأخيرة ثم سكت فجأةً وقد احمرَّ وجهه. فهي كلمة طويلة ونطقها يبعث على الشعور بالإحراج.) ثم قال وهو يغلق الفهرس: «حسنٌ، مثير جدًّا للاهتمام، ولافت جدًّا. بل لافت إلى أقصى حدٍّ. أرغب كثيرًا في هيكل عظمي كهذا.»

فعلَّقت قائلًا: «أنت أفضل حالًا بالهيكل العظمي الذي تملكه.»

فعاجلني بالرد: «أوه، لم أقصد ذلك. بل قصدت أني أرغب في امتلاك عينةٍ مثل الرقم ٥ هنا من أجل مجموعتي المقترحة. والآن كيف يُمكنني الحصول على مثلها؟»

فقلت وأنا أُمعن التفكير: «في الواقع، هناك عدةُ طرق.» ثم توقَّفت عن الحديث ونظر هو إليَّ مُترقِّبًا. فأكملت ببطءٍ: «يمكنك على سبيل المثال أن تتزوَّد بوَهَقٍ وتقوم بنزهة في شارع وايتشابل هاي ستريت.»

فصاح الرجل بانفعال: «يا إلهي، أتقصد حقًّا أن تقول ...»

فقاطعته: «بكل تأكيد. ستجد الكثير والكثير. أمَّا أنا، وحيث إنني لا أتمتَّع بمِثل هذا القوام الرائع بصفة استثنائية الذي تتمتَّع أنت به، فعليَّ أن أتَّبع خُطَّة أبسط ومكلفة أكثر وهي شراء عيناتي من التجار.»

فقال يوافِقني: «هكذا الأمر إذن، واضح جدًّا.» وكان محبَطًا بصورة عميقة ويميل إلى الاستياء والغضب. «بالطبع كنتَ تمزح بشأن الوَهَق. لكن هل تُمانع أن تُعطيني عنوان التاجر الذي حصلتَ منه على هذه العيِّنة؟» ثم أشار مرة أخرى إلى عينة بيل.

ظنَّ الرجل أنه حاصرني؛ وكان هذا سيحدُث بالفعل لو كنت أقل حرصًا وحذرًا. فباركت لنفسي على التمتُّع بالحكمة والتبصُّر اللذَين جعلاني أقتني هذه الهياكل الزائفة. والآن كنتُ أملك زمام الأمر برُمَّته.

سألته: «تلك العيِّنة؟» وأنا أُطالع التاريخ على الركيزة؛ ثم أضفت: «أظنُّ أنني حصلتُ عليها من هامرستاين. لا شكَّ أنك تعرف متجره في حي سيفن دايلز. إنه رجل ذو أعمال واسعة. لقد حصلتُ على معظم العينات العظمية منه.» ثم أحضرتُ ملف الفواتير وقلَّبت الصفحات على مهل، بينما أخذ هو يقضم شفتَه في تلهُّف. وأخيرًا وجدتُ الفاتورة المُسدَّدة وقرأها هو بصوتٍ عالٍ وبتعبيرٍ عن الإحباط يُثير السخرية.

«مجموعة كاملة من العظام البشرية الفاخرة، مفاصلها مربوطة بأفضل الأسلاك النحاسية والمسامير اللولبية، مع توفير زنبركَين للفك السُّفلي، وقضيب دعم قوي من الحديد. كل العظام مضمونة لتكون من نفس الشخص. ٥٫٣٫٤ جنيهات إسترلينية.»

كان عنوان الفاتورة يقول: «أوسكار هامرستاين، تاجر عظام، شارع جريت سانت أندرو، لندن، الرمز البريدي، دبليو سي»، ومؤرَّخة بتاريخ الرابع من شهر فبراير لعام ١٨٩١.

دوَّن المُحقِّق الاسم والعنوان في مفكِّرة لها جلد أسود وتبدو رسمية، وقارن التاريخ بالآخر المكتوب على الركيزة الخاصة ببيل واستعدَّ للرحيل.

فقلتُ له وأنا أتوقَّع أن يزور صديقنا هذا السيد هامرستاين: «هناك شيء واحد ينبغي أن أوضِّحه لك؛ عندما تحصل على العينات من التجار، فإنَّها لا تكون دائمًا بحالةٍ تسمح بعرضها بالمتحف فيما يتعلَّق باللمسات الأخيرة. فلونها عادةً ما يكون سيئًا وربما تكون عليها بقعٌ من الشحم. إن كان هذا هو الحال، فسيتعيَّن عليك تفكيكها وتنظيفها بالبنزول، وإذا لزم الأمر، نقعُها وتبييضُها»، ثم اختتمتُ بنبرة جادة وأضفت: «لكن بغض النظر عن كل ذلك، كن حذرًا عند استخدام الصودا المكلورة وإلا فستفسد مظهر العظام وتجعلها هشَّة. وداعًا!» ثم صافحتُه كثيرًا ورحل هو عابسًا وخائب الأمل.

وطوال المدة التي قضاها معي، تسبَّبت عبثية الموقف في إحياء تلك الروح اللعوب بداخلي — إذ كانت هذه هي حالتي المزاجية العادية حتى وقعَتْ على رأسي المُصيبة الكبرى

التي حلَّت بي. لكن رحيله تركني مكتئبًا بعض الشيء؛ لأن زيارته كانت بمثابة علامةٍ على انهيار مُخططي في نهاية المطاف. فحتى إن كان المجرمون يرغبون في إمداد مجموعتي الأنثروبولوجية، لا يكون بإمكاني تنفيذُ طرائقي تحت عيون الشرطة المُتيقظة والمستنكرة.

إذن ما الذي ينبغي فِعله؟ كان هذا هو السؤال الذي أخذتُ أكرِّره على نفسي. بالطبع لم تُواتِني مطلقًا فكرة أن أتخلَّى عن نشاطاتي. فقد ظللتُ على قيد الحياة من أجل غاية واحدة: ألا وهي البحث عن الرجل الذي قتل زوجتي وانتزاع ما يجب عليه دفعه. في البداية كانت المجموعة التي أجمعها مجرَّد حصيلة ثانوية؛ ورغم أنها كانت تستحوذ عليَّ تدريجيًّا حتى إنها أصبحت غاية في حدِّ ذاتها، فإنها كانت لا تزال غاية ثانوية. فاكتشاف مكان هذا الصعلوك هو قِبلتي التي لا ينبغي لأي عقبات أو صعوبات أن تصرفني عنها.

وبالصدفة البحتة، جاءتني الإشارة التي أرشدتني في نهاية المطاف إلى التطرق إلى أصعدة جديدة للبحث. فبعد أيامٍ قليلة من زيارة المُحقِّق تلقيتُ خطابًا من أحد الأصدقاء القليلِين المُتبقِّين لي، اسمه الدكتور جرايسون، وكان فيما سبق يزاول الطب في لندن، لكنه عاد إلى موطنه الأصلي بفعل التقدُّم في العمر والشيخوخة، وهي قرية شوم بالقُرب من روتشيستر. طلب مني جرايسون أن أقضيَ معه يومًا، حيث سيتسنَّى لنا التحدُّث عن بعض الأمور التي كان كِلانا يُبدي اهتمامًا بها؛ وحيث كنت الآن متفرغًا، قبِلت دعوته لكنني رفضتُ أن أبيت ليلتي بعيدًا عن منزلي ومجموعتي.

كان الأمرُ الهامُّ في ذلك الوقت أنني فكَّرت قبل الذهاب في نوعية السلاح الذي سأحمله معي. قبل ذلك، ما كنتُ لأفكر في تسليح نفسي من أجل رحلةٍ بسيطة بالقطار؛ لكن الآن، وجود القطار يعني وجودَ لص — مثل واقعة ليفروي والسيد جولد المسالم جدًّا — ويمكن للنفَق الطويل الذي يقطعه القطار بالقُرب من قرية سترود أن يكون مسرحًا لفاجعةٍ تقع في القطار. وكان اختياري للسلاح في نهاية المطاف أمرًا مُثيرًا للاهتمام أيضًا. إذ كنت أرفض تمامًا فكرةَ حمل مُسدس دوَّار. فهو سيُحدِث ضوضاء لا محالة. ونزاعي مع المُجرمين هو نزاع شخصي لا ينبغي لأي أحدٍ من الخارج أن يتدخَّل فيه. وكنتُ أميل إلى المربات الذي كنت قد اكتسبتُ الآن مهارةً في التعامُل معه، لكن كان من الصعب التنقُّل به، وفي نهاية المطاف وقعَ اختياري على عصًا مُسيَّفة رفيعة جدًّا، ومعها برجمية آلت إليَّ من أحد عملائي بعد أن جرَّبها على رأسي.

وفي نهاية المطاف، لم يقع أيُّ خَطْب. إذ دلفت إلى عربةٍ فارغة من الدرجة الأولى، وحين كان القطار على وشْك المغادرة، اندفع رجل قويُّ البِنية إلى داخل العربة وأغلق

الباب بعُنف، فرمقتُه بنظرات يُخالطها الارتياب وانتظرتُ ما ستئول إليه الأحداث. لكن لم يحدث شيء. فقد جلس الرجل متكومًا في زاويةٍ من العربة، وأخذ يُراقبني وقد أبقى تركيزه على مِقبض جرس الإنذار فوق رأسه؛ لكنه لم يأتِ على فِعل أي شيء. وحين خرجنا من النفَق الطويل كان الرجل شاحبًا كالأشباح، وقفز من القطار على رصيف سترود تقريبًا قبل أن يبدأ القطار في إبطاء سرعته.

أنزلتُ حقيبتي من على الرفِّ وخرجتُ خلفه وأنا أبتسم من رعونتي. كان تفكيري في المُجرمين يتحوَّل إلى هوسٍ يتحتَّم عليَّ أن أحذَر منه ما لم أُرِد أن أنهيَ أيامي في مأوًى للمجانين؛ وكانت تلك حقيقة قد غُرِست في ذهني أكثرَ حين رأيتُ رفيق العربة — الذي كان قد رآني لتوِّه — «يُهرع» على رصيف المحطة ويتقدَّم بسرعة وينظر خلفه في قلق. ولمَّا قرَّرتُ أن أُخرِج هذا الموضوع من رأسي، رحتُ أسير ببطءٍ في المدينة الصغيرة وذهبتُ إلى طريق لندن؛ ورغم أنني، وأنا أمرُّ بحانة فالستاف واجتزتُ جادز هيل، واتتني ذكرياتٌ عابرة عن الأميرِ هنري والرجال الذين يرتدون البقرم، مع اقتراحاتٍ لاحقة عن عربةٍ تجرُّها خيول تكافح لصعود التل في الظُّلمة ورجالٍ مُلثَّمين يتسلَّلون على طول الضفتَين نحو الطريق الغائر، فقد حافظت على هدوئي. وكانت الحقيبة ثقيلةً بعض الشيء — إذ كانت تحوي طردًا كبيرًا من المصابيح التي أتيتُ بها من منطقة كوفنت جاردن التي كان جرايسون قد طلبَها مني — ورغم هذا، استحسنت الانحراف عن الطريق السريع والشرود في الحقول واتِّباع السُّبل والمسارات التي أذكرها جيدًا. كان كلُّ ما حولي مألوفًا لي؛ لأنني كنت آتي أنا وجرايسون قبل سنواتٍ حين كان لا يزال يزاول الطب، إلى ضيعته الصغيرة في إجازاتِ نهاية الأسبوع، وعادةً ما كنتُ أمكث أنا أسبوعًا أو نحو ذلك أتجوَّل في الريف بمفردي. ومن ثمَّ كنتُ أعرف كلَّ شِبر في هذه الأرجاء، وكنت شغوفًا للغاية بإحياء درايتي بها لدرجةِ أنني تأخَّرتُ عشرين دقيقة على موعد الغداء.

وقد قضيت يومًا سارًّا بحقٍّ بصحبة جرايسون (الذي كان عاكفًا على دراسةِ الجوانب التاريخية لبعض الأمراض)، وكنتُ سأمكثُ لساعةٍ متأخرة أكثر. لكن بحلول الثامنة والنصف تقريبًا — كنَّا قد تناولنا العشاء في السابعة — بدأ جرايسون يتململ وفي النهاية قال مُعتذرًا:

«لا تأخذك الظنون بأني لا أحتفي بزيارتك يا تشالونر، لكن إن كنتَ لن تبيت ليلتك فمن الأفضل أن تذهب الآن. ولا تتَّبع طريق جادز هيل. بل سِرْ حتى هايم والحَقْ بالقطار من هناك.»

فسألته: «وما خَطْب طريق جادز هيل؟»

«ليس به أيُّ خَطْب بالنهار، لكنه خطير للغاية في الليل. لطالما كان ذلك الطريق غيرَ آمِن، وهو كذلك بصفةٍ خاصة في هذه الأيام. إذ انتشرت مؤخرًا حوادثُ كثيرة للسطو على الطريق السريع. بدأت تلك الحوادث حين كانت عربات البضائع هنا في الخريف الماضي، لكن يبدو أنَّ بعض أولئك البلطجية من منطقة إيست إند قد استقرُّوا في الجوار. لقد رأيتُ أشخاصًا أشكالهم غريبة للغاية، حتى في هذه القرية؛ هم أغرابٌ على ما يبدو، من النوع الذي قد تُصادفه عند ستيبني ووايتشابل.

والآن، كن صالحًا واذهب إلى هايم، قبل أن يُخيِّم الظلام تمامًا على الأرجاء.»

لستُ في حاجة إلى أن أقول إنَّ وجود الغرباء لا يخيفني، لكن ولأن جرايسون كان متململًا بحق، لم أُبدِ اعتراضًا وانطلقتُ في سبيلي على الفور. لكنني لم أتوجَّه إلى هايم مباشرة. كان القمر ساطعًا، وبدت القرية جذَّابة فعلًا. وقد صنعت الأشجار وفوَّهات المداخن وسقوف الجملون والسقوف المصنوعة بالقش أشكالًا داكنة سائغة للناظر أمام السماء الصافية، وسقطَتْ بَقَعٌ من الضوء الفضي بعرض الطريق على الحواجز الخشبية والواجهات المقاوِمة للطقس. رحتُ أسيرُ على طول الشارع الصغير، أحمل الحقيبة التي صارت الآن فارغةً وخفيفة وأتبادل التحيات مع القرويِّين المُتناثِرين، حتى وصلتُ إلى السكة التي تنعطف باتجاه طريق لندن. فتوقَّفت هنا عند بقعةٍ خضراء مثلَّثة الشكل، ونظرتُ بصورة تلقائية في ساعتي وقد رفعتها نحوي تحت ضوء القمر. وكنتُ على وشْك أن أعيدها مكانها حين جاء صوتٌ يسألني:

«كم الساعة أيها السيد؟»

فرفعتُ عيني بسرعة. كان الرجل الذي حدَّثني يجلس على ضفة الطريق تحت الوشيع وفي مكانٍ مُظلم جدًّا حتى إنني لم ألحظ وجوده. ولم يكن بإمكاني كذلك رؤيته جيدًا الآن، وإن كنتُ قد لاحظت أنه يتناول شرابًا مرطِّبًا من نوعٍ ما؛ لكنَّ صوته لم يكن يُوحي بأنه مِن كِنت، ولا بأنه إنجليزي حتى؛ بدا أن الصوت يُرسِّخ لنبرةٍ جشَّاء وغير مألوفة، من لهجة مَن يقطنون شرق لندن.

أخبرت الرجل بالوقت وسألته إن كان الطريق — وكنت أشير إلى طريق الحيد — سيؤدي بي إلى هايم أم لا. كنت أعرف بالطبع أن هذا الطريق لن يقودني إلى هايم، ولم يكن لديَّ أدنى فكرة عن سبب سؤالي هذا له. لكنه أجاب بسرعة كافية قائلًا: «أجل. على طول هذه الطريق مباشرة. أتريد الذهاب إلى المحطة؟»

فرددتُ عليه بالإيجاب، وأضاف هو: «سِرْ مباشرةً على هذه الطريق مسافةَ ميل ونصف الميل وسترى المحطة أمامك مباشرةً.»

كان هذا توجيهًا خاطئًا واضحًا من جانبه. ويبدو أنه مقصود أيضًا؛ لأن ملابسات الأمر تنفي إمكانية وجود خطأ. كان الرجل يُرسلني عمدًا — وأنا الغريب كما يبدو — في طريقٍ جانبي مُنعزل يؤدي إلى قلب الريف. فماذا كان هدفه؟ لم أكن أشكُّ في هدفه كثيرًا، فسرعان ما ستتأكد صحة هذا الشك.

شكرتُ الرجل على المعلومة وانطلقتُ في الطريق بوتيرةٍ مُتمهِّلة؛ لكن حين قطعتُ مسافة صغيرة، باعدتُ بين خطواتي من أجل زيادة سرعتي من دون التأثير على إيقاع خطواتي. وبينما أنا أسيرُ، رحتُ أفكر في نوايا صاحبنا واعتقدتُ باهتمامٍ وشيءٍ من الاندهاش أنني لستُ خائفًا منه. كنت أشتبه أنه قاطع طريق، فردٌ من العصابات التي حدَّثني عنها جرايسون، وكان عليَّ أن أتقدَّم على هذا الطريق غير المطروق بدافع الفضول المجرَّد لأرى إن كان قاطعَ طريق فعلًا أم لا.

وصلتُ إلى بوابةٍ عند مدخل طريقٍ ترابي، وهنا توقَّفت أتسمَّع. جاء صوت وقْع أقدام على الطريق من خلفي؛ خطوات سريعة لكنها ليست حادة ولا متعجِّلة؛ بل تميل لأن تكون منتظمة ومُختلسة. تسلَّقتُ البوابة بهدوء واتخذت موقعًا خلف جذع شجرة دردار وسط الوشيع. واقتربت الخطوات بسرعة. ثم سرعان ما ظهر شخصٌ عند منعطف الطريق تحت إضاءة ضوء القمر، شخص يتقدَّم بسرعة ويلازم الظلال. راقبتُه من خلال الوشيع الكثيف وهو يقترب ويتكشَّف رجلًا ذا مظهر غير طبيعي ويحمل عصًا غليظة لها مِقبض.

وقف الرجل في مقابل البوابة، واستطعت من خلال ظلِّه أن أرى أنه نظر عبْر الحقول الفضيَّة الممتدة على طول الوادي وأخذ يستمع، لكنه لم يفعل ذلك أكثر من بضع لحظات. ثم أكمل تقدُّمه مرة أخرى بوتيرة بين المشي السريع والعدْوِ البطيء.

وبمجرد أن غادر الرجل، خرجتُ من مكاني وشرعت أسيرُ على الطريق الترابي. ولا بد أنَّ جسمي كان بارزًا بوضوحٍ أمام الحقول الجرداء ومرئيًّا من طريق الحيد. لكنني لم أُسرِع المشي. تقدَّمتُ بهدوء على المنحدر السهل لمسافة ثلاثمائة ياردة تقريبًا حتى شعرتُ بالأرض تزداد انحدارًا من تحتي؛ وهنا توقَّفت ونظرتُ خلفي قبل أن أهبط مع الطريق.

كان ثمَّة رجلٌ يجتاز البوابة.

رحتُ الآن أسير بسرعةٍ أكبر حتى اعتليتُ قمة تلٍّ آخر، ثم نظرت خلفي مرة أخرى. فوجدت جسم الرجل بارزًا عند الحافة العلوية للتل، وقد بدا داكنًا في مواجهة السماء المضاءة بنور القمر. والآن كان الرجل يتقدم مسرعًا في ملاحقةٍ صريحة.

فأسرعتُ في خُطاي ونظرتُ من حولي. كان الليل ساكنًا وبهيجًا، وكانت الحقول غارقةً في ضوء فضي والظلال الرمادية الخافتة تكتنِف المرتفعات المُشجَّرة، ومن قلب تلك المرتفعات التمعت نافذة وحيدة مضاءة، بدَت كبقعةٍ من الحميمية المتورِّدة. ومن مزرعةٍ نائية جاء صوت نُباح كلب حراسة خافتًا بفعل المسافة، وفيما بعد ذلك بمسافة كبيرة، جاء صوت باخرةٍ كانت تتسلَّل في النهر نحو المرسى المُتلألئ.

ثم وصلتُ إلى بقعةٍ ينقسِم فيها الطريق. كان أحد قسمَيه مسارًا مطروقًا بكثرة يؤدي إلى ممرٍّ يُفضي في نهاية المطاف إلى طريق لندن؛ وكنت أعرف أن القسم الآخر منه مطروقٌ بدرجةٍ أقل، ويؤدِّي إلى منجم طباشير قديم، تستريح فيه عربات المزارع أثناء شهور الشتاء في كهوف غامضة. توقَّفت هنا برهةً وكأن بي تردُّدًا. كان الرجل خلفي الآن بمسافة تقلُّ عن مائة ياردة وكان يسير بأسرعِ ما يُمكنه. فاستدرت ونظرت إليه، وبدا أنه تردَّد، ثم بدأتُ الجري على الطريق المؤدِّي إلى منجم الطباشير.

لم تَعُد نية الرجل مُستترة الآن. إذ بمجرد أن انطلقتُ في الجري، جرى هو الآخر يتبعني لكنه لم يُنادِ عليَّ لكي أتوقَّف. فافترضتُ أنه يعرف إلى أين يؤدي هذا المسار. لكن إن كانت غايته مُحددة، فغايتي أنا أيضًا كذلك. وانتبهت مرةً أخرى بشيءٍ من الاندهاش إلى أنني لا أشعر بعصبية. فاحتكاكي بطبقةِ المُجرمين لم يدَع فيَّ سوى شعور بالازدراء والعداء. ولم يَرِد في بالي قطُّ أنَّ قتْلَ أحدِهم إياي قد يُمثِّل إمكانية عملية. لم أكن مُهتمًّا سوى بإغوائه ليُقدِّم لي ذريعة مناسبة لأن أقتُله. لذا جريت وأنا أتساءل إن كان مطاردي له شَعر حلقي؛ وأتساءل إن كان من المُمكن أن أجد ضالتي في هذا المكان المنعزل وبهذه الطريقة الجزافية؛ وكنتُ واعيًا بمشاعر السرور الحادة واللعوب التي تنتابني دائمًا عندما أخرج لصيدِ أعداءِ جنسي. لأنني كنتُ الآن أصطاد الرجل الذي يجري خلفي، ويظن هذا الشيطان أنه هو مَن يصطادني.

وحين اقترب المسار من منجم الطباشير، كان به منحدرٌ مفاجئ. فجريتُ بين كتلتَين من الأجمات في مساحةٍ نمَت فيها الحشائش في القعر مُجتازًا صفَّ الكهوف التي كانت العربات مُستترةً فيها حتى هذا الوقت، ثم أكملت طريقي حتى انتهى المسار إلى نطاقٍ

من التلال الصغيرة عند خليجٍ مِن نوعٍ ما يُحيط به جرفٌ خلَّف الزمن عليه آثاره. هنا التفتُّ ووضعتُ حقيبتي ووقفت مواجهًا لُمطاردي.

وقلت بنبرة حادة: «تراجَع! لماذا تتعقَّبني؟»

فتوقف الرجل ثم أخذ يتقدَّم نحوي ببطء. وقال: «اسمع يا سيد، لا أريد أن أوذيك. لستَ في حاجة لأن تخافني.»

فقلت: «إذن، ماذا تريد؟»

فقال بنبرة واثقة: «سأُخبرك. أنا رجل مسكين، صحيح؛ ليس لديَّ ساعة، ولا أموال، ولا أستطيع العمل. وأنت رجل ثري. لديك ساعة جميلة جدًّا — لقد رأيتها — وأقول إنك لديك ما هو أكثر منها بكثيرٍ في المنزل. أعطني تلك الساعة هديةً، هذا ما ستفعله؛ وأي مبلغ صغير معك. افعل هذا وسأدَعك تمضي بسلام.»

«وماذا إذا لم أفعل؟»

«إذن سيجد بعض أولئك الفلاحين رجلًا ميتًا في منجم الطباشير. لا تحاول أن تصرخ. فليس هناك أحد في هذا المكان لمسافة ميل. لذا ناوِلني تلك الساعة وأفرغ جيوبك اللعينة.»

فقلت: «هل أفهم من هذا أن ...» لكنه قاطعني بوحشية قائلًا:

«أوه، أطبِق فمك وسلِّمني أشياءك! أتسمعني؟» ثم تقدَّم نحوي مُهدِّدًا، وهو يُمسك بهراوته من طرفها الأصغر، لكن حين أصبح على بُعد بضع خطوات مني، دفعتُه بالطرف السفلي من عصاي دفعةً مفاجئة في مَعِدته عند منطقة الضفيرة الشمسية. اندفع الرجل نحو الخلف وهو مشدوهٌ ويعوي — فأطلق صيحةً من أعماق حنجرته — ووقف يلهث ويفرك بطنه. وبينما هو يتعافى من أثرِ الضربة، انطلق في نوبةٍ من السِّباب والشتم، وأخذ يُحاوطني بحركاته في حذَرٍ ويحاول أن يستجمِع توازن هراوته استعدادًا لتوجيه ضربة قوية.

وقال وهو يتحيَّن الفرصة: «انتظِر حتى أفرغ منك. سأُعاقبك على هذا. سأقتلك. سأُشوِّه خلقتك حين أنتهي منك — آآأه!» كان سبب الصيحة الأخيرة التي أطلقها أنني أصبتُه بالطَّرف السفلي لعصاي في صدره، وقد ارتدَّ نحو الخلف مُبتعدًا وهو يصيح.

حافظ الرجل على مسافةٍ كبيرة بيني وبينه، لكنه ظلَّ يدور حولي ويكيل لي السِّباب. لكنه لم يكن يملك أدنى فكرة عن كيفية استخدام نوع العِصي الذي أستخدِمه، في حين أنني اكتسبتُ المهارة من التدرُّب على المَغاوِل في صالة الألعاب الرياضية. بين الحين

والحين، كان الرجل يرفع هراوته ويُهاجمني، لكنني كنتُ أسدِّد له ضربةً حادة تحت ذراعه المرفوعة في الهواء، فأُرسله متقهقرًا ومبتعدًا بينما يصيح صيحته المعهودة.

كان افتقاره إلى المهارة يُجرِّد عراكنا من كثيرٍ من الإثارة. وأظنُّ أن الرجل نفسه شعر بهذا؛ لأنني رأيته يسترق النظر حوله وكأنه يبحث عن شيء. ثم وقع بصره على حجر صوان كبير غير مُحدَّد الملامح وكان على وشْك أن يلتقِطه؛ لكن وبينما كان ينحني ليلتقِطه، أرسلتُ عصايَ بقوة كبيرة باتجاهه فولَّى وهو يصيح من الألم.

أدركتُ الآن فجأةً أنه قد نال كفايته. أدركتُ هذا في الوقت المناسب لأقف حائلًا بينه وبين مدخل منجم الطباشير. كان لا يزال يُهاجم بوحشية شديدة، لكن أعصابه كانت قد انهارت. فأخذ يبتعِد عني، وبينما تبِعته عن كثَب حاول عدة مرات أن يُراوغني ويدخل فتحة المنجم.

ثم قال أخيرًا: «اسمع أيها السيد، ألقِ لي بأشيائك وسأدعك تذهب بسلام.»

«تدعني أذهب!» أخذتُ أضحك ساخرًا، لكنني ظللتُ راسخًا في مكاني. ورغم هذا كان الموقف غير مُريح. إذ لا يمكن الاستمرار في إلحاق الأذى برجلٍ مهزوم، ومن الصَّعب أن أرفض استسلامه. على الجانب الآخر، لم تكن مسألة أن أُخلي سبيل هذا الرجل مطروحةً للنقاش أو مُمكنة. فقد أتى إلى هنا مُستعدًّا لقتلي من أجل ساعة بائسة وبعض الفكَّة. إنَّ العدالة وواجبي تجاه رفاقي البشر يُحتِّمان عليَّ تصفيته. أضِف إلى ذلك، إذا تركته يهرب، ما الذي سيحدث؟ كانت الحقول من حولي مليئة بأحجار الصوان الكبيرة. من المؤكَّد منطقيًّا أنني لن أُغادر هذه الأرجاء وأنا على قيد الحياة.

وبينما أقف مُترددًا، أثبتُّ ما كنتُ أخاف منه بطريقةٍ عملية. إذ ارتد الرجل للخلف، ثم انحنى فجأةً وأمسك بحجر صوان كبير، ورغم أنني راوغتُه بسرعة وهو يلقي بالحجر نحوي وتفاديتُ أن يُصيبني بكل قوة، فإنني صدمتُ جانب رأسي، فلم أجد بُدًّا من أن نصل بسرعة إلى تسويةٍ لهذا الموقف. فجريتُ نحوه وحملته على التقهقر حتى ثبَّتُّه في مدخل أحد الكهوف مقابل إحدى العربات. وهنا غيَّر الرجل تكتيكه فجأة. إذ أدرك أخيرًا أن هراوته التي لا يستطيع العِراك بها لن تُجدي نفعًا في وجه عصًا أستخدمها أنا بمهارةٍ وأضرب بها كالمِغْوَل، فألقى الرجل هراوته من يده وفجأةً لمع ضوء القمر على نصل سكينٍ عريض. كانت المسألة هنا قد اختلفت. إذ أصبح الرجل الآن حذرًا ومُتيقظًا وسكينه في يده، بينما يده اليُسرى ممدودة وعلى استعدادٍ لأن ينتزع مني عصاي. كانت تلك خُطَّة

أكثر فاعلية بكثير؛ لكنه لم يكن يعلم أن عكازي القوي يشمل على نصل سيفٍ قوي مصنوع في مدينة طليطلة الإسبانية.

ضغطتُ بإصبعي على الزرِّ القابل للضغط في عصاي المُسيَّفة ورُحت أرقبه. بين الحين والآخر كان الرجل يُهاجمني بسكينه، وحين أنكزه فأُبعده عني، كان يحاول انتزاع العصا. وكرَّر محاولاته مراتٍ ومراتٍ وكاد يُفلح، لكنني كنتُ أسرع منه قليلًا، فسقط على العربات وهو يشهق ويُطلق السِّباب واللعنات. ثم وقعت النهاية بفجائية محتومة. إذ اندفع الرجل نحوي شاهرًا سكينه. فأوقفته بوخزة قوية في صدره؛ لكن قبل أن أتمكَّن من سحب العصا بسرعةٍ مرةً أخرى كان قد أطبق عليها بيدِه وهو يصرخ من الفرح. فدفعتها دفعة أخرى وضغطت على الزر تاركًا غمد السيف في يده. وقبل أن يُدرك الرجل ما حدث، انطلق نحوي وهو يلوِّح بسكينه، حتى أصبح عند نصل السيف. لا بد وأنني اندفعتُ للأمام، رغم أنني لم أكن واعيًا بذلك، لأنه حين ارتد نحو الخلف كان مقبض السيف في صدره.

كان الأمر قد انتهى وأنا ما زلت لا أُدرك تمامًا أن المرحلة الأخيرة قد بدأت. وفي لحظة، كان ذلك البائس القاتل قد انزوى فأصبح كومةً هامدة. كان موته سريعًا ورحيمًا. وبحلول الوقت الذي انتهيتُ فيه من تنظيف النصل وإعادته إلى مكانه في غمده، كانت آخر ارتجافات جثته قد توقَّفت. وقفتُ ونظرت إليه، وشعرت بقشعريرة خيبة الأمل وانتهاء الأمر بصورة غير مُثيرة. فقد انتهى الأمر بسهولة شديدة.

والآن، وحيث وصلنا إلى الخاتمة، عادت أفكاري إلى الغاية النهائية لمساعيَّ. هل مِن الممكن أن يكون هذا الرجل هو البائس الذي أبحث عنه؟ لم يبدُ أن هذا مُرجَّح، لكن ينبغي أن أضع هذا الاحتمال في الاعتبار. كان أول ما عليَّ فِعله يتعلَّق بشَعره. فانحنيتُ فوقه وقطعتُ خُصلة كبيرة من شَعره بمقصِّ الجيب الخاص بي ووضعتُها في مظروف من أجل فحصها مُستقبلًا. ثم أخرجت دفتري الصغير وضغطتُ بأصابعه على بعض الصفحات الفارغة. إذ مثَّل جلد أصابعه بديلًا مقبولًا عن الحبر، ويمكن إتمام العمل على استخراج البصمات في المنزل لاحقًا.

ثم برزَتْ أمامي مسألةٌ أكثر صعوبة. كنت بالطبع أرغب في إضافته إلى مجموعتي؛ لكن بدا أن هذا مُستحيل. فأنا طبعًا لن أستطيع أخْذَه معي. لكنني لو تركتُه في العراء، فسيجده بعض الناس وسيدفنونه ومن ثمَّ يضيع على العلم عيِّنة مثالية. كان هناك شيء واحد فقط يُمكنني القيام به. كان وسط منجم الطباشير يُمثِّل مساحة كبيرة تُغطيها

نباتات القرَّاص والأعشاب الكبيرة الأخرى. على الأرجح أن قدَمًا لم تطأ هذا المكان طَوال سنوات؛ لأن نباتات القرَّاص التي يبلُغ طولها أربع أقدام أو خمسًا تكفي لأن تُبقي الأطفال الشاردين بعيدًا. والآن كانت نباتات الربيع تزدهر بسرعة. فإن أخفيتُ الجثةَ في وسط تلك المساحة العشبية، فإن الأعشاب سرعان ما ستُغطيها وتُخفيها تمامًا. ثم تقوم العناصر الطبيعية بالجزء الأصعب من عملي. حيث ستخرج الحشرات الآكلة للجِيَف والهوام الأخرى وتُنجز العمل مع الهواء والرطوبة والبكتيريا، ويُمكنني العودة في الخريف وجمْع العظام وهي جاهزة من أجل عرضها في المتحف.

شرعتُ في تنفيذ هذه الخطة البديلة. فنقلتُ الجثةَ إلى وسط المساحة المُغطَّاة بالعشب، وغطيتُها بالقليل من الأغصان والمواد الأخرى المختلفة من القمامة. أصبحت الجثة الآن خفيةً عن الأنظار، وكنتُ على وشْك الالتفات والمغادرة حين تذكَّرت فجأةً الإعداد الجاف لرأسه، الذي ينبغي أن يكون مُصاحبًا لهيكله العظمي. من دون ذلك الرأس، لن تُصبح العينة مُكتملة؛ ومن شأن عينة غير مكتملة أن تخرِّب السلسلة برُمَّتها. فأخذتُ أفكِّر قليلًا. رأيتُ أنَّ من المُثير للشفقة أن أُخرِّب اكتمال هذه السلسلة من أجل مشكلةٍ بسيطة كهذه. وكان معي حقيبة حجمها معقول وكمية من الورق البُني المُقوَّى الذي كانت المصابيح ملفوفةً فيه. فلِمَ لا أستخدِم ذلك؟

في نهاية المطاف، قرَّرتُ أنني لا ينبغي أن أُخرِّب السلسلة. ولستُ في حاجة لوصف التفاصيل الواضحة بشأن تلك العملية البسيطة. وحين خرجتُ من منجم الطباشير بعد ربع ساعة، كانت حقيبتي تحوي المادة اللازمة لعمل رأسٍ مُحنَّط.

ثم سرعان ما اتجهت إلى المسار المألوف لي وانطلقتُ بخطوات سريعة لألحق بالقطار المتأخِّر المُتجه إلى جريفز إند. كان المسير طويلًا وباعثًا على السرور، وإن كانت الحقيبة ثقيلةً بصورة غير مريحة. وتسليتُ بالتفكير في عصابة قطَّاع الطرق التي ذكرها جرايسون. سيكون موقفًا غريبًا بحقٍّ لو أنني التقيتُ بعضهم وسرقوا مني حقيبتي. كانت الاحتمالات التي فتحتها هذه الفكرة مُسليةً كثيرًا وظللتُ منشغلًا بها حتى وصلت في الأخير إلى محطة جريفز إند، وقد أدخلني الحارس إلى إحدى عربات الدرجة الأولى حين كان القطار قد بدأ التحرك للتو. كنتُ أُفضِّل لو كنت في عربة فارغة، لكن لم يكن أمامي خيار؛ وحيث كانت الزوايا الثلاث مشغولة، جلستُ أنا في الزاوية الرابعة. وكان الرفُّ الذي فوق مقعدي يحمِل حقيبةً لها حجمٌ مُشابه تقريبًا لحجم حقيبتي، على ما يبدو أنها مِلك

كاهنٍ يجلس في الزاوية المُقابلة لي، لذا تعيَّن عليَّ أن أضع حقيبتي في الرفِّ الذي فوق رأسه هو.

رحتُ أشاهده طوال الرحلة وهو جالس في مواجهتي يقرأ صحيفة «تشيرتش تايمز» وتساءلت عن كيفية شعوره إذا عرف ما تحويه الحقيبة التي فوق رأسه. على الأرجح أنه كان سيضطرب كثيرًا؛ لأن الكثير من رجال الدِّين هؤلاء يؤمِنون بأغرب الأفكار من العالم القديم. وكان الرجل على وشْك أن يعرف أيضًا؛ لأن القطار حين توقَّف في محطة هيثر جرين وكان على وشْك أن يُباشر رحلته، انتفض الرجل من مكانه فجأةً وصاح يقول: «رُحماك بروحي يا قدير!» ونتش حقيبتي من على الرفِّ واندفع خارج القطار وإلى الرصيف. فأمسكتُ أنا بحقيبته في الحال وجريتُ خلفه بينما بدأ القطار يتحرَّك، وناديتُ عليه أن يقف. «مهلًا! يا سيدي! لقد أخذتَ حقيبتي.»

فأجاب بسخط: «كلَّا على الإطلاق. أنت مُخطئ.» وبينما أنا أُمسك بحقيبته أخذ يقلِّب بصره بين الحقيبتَين، وراعَني أنه ضغط على قُفل حقيبتي وفتحها على آخرها.

كم تتسبَّب المُصادفات الصغرى في تحوُّل مُجريات الأحداث الكبرى! لولا وجود الورق البُني في حقيبتي، لتحوَّل الأمر إلى كارثة. لكن ما حدث أنه بمجرد أن وقعت عينه على ذلك الطَّرد الملفوف بالورق، أعطاني حقيبتي بابتسامةٍ متكلَّفة تنمُّ عن الاعتذار وأخذ حقيبته. لكن بعد ذلك، ظللت ممسكًا بحقيبتي حتى أصبحتُ بالقُرب من مُختبري.

كانت خيبة الأمل المعهودة بانتظاري حين فحصتُ الشَّعر وبصمات الأصابع. لم يكن هو الرجل الذي أسعى خلفه. لكنه يُمثِّل إضافةً مقبولة إلى «سلسلة الأنثروبولوجيا الجنائية» في متحفي، ذلك أنني ذهبتُ بالفعل لجمع عظامه من حقل نباتات القرَّاص الكبير في منجم الطباشير في وقتٍ مبكر من شهر سبتمبر التالي، وقد وضعتها في الصندوق الكبير الذي بطول الحائط بعد أن بَيَّضتُها وربطتها معًا على النحو اللازم. لكن كانت هذه العينة تحمل قيمةً أخرى وإن كان بصورة غير مباشرة. إذ استشفَفْتُ منه دلالةً نافعة أرشدَتْني إلى مجال بحثٍ جديد ومُثمر.

(انظر الفهرس، الأرقام ٦أ، و٦ب.)»

الفصل الخامس

نواتج فرعية

الإدخال التالي في «أرشيف المتحف» أظهر صديقي هامفري تشالونر في ملابسات كانت غير معقولة تمامًا لي. فحين أتذكَّر ذلك الرجل المُتعلِّم والمثقَّف كما كنت أعرفه، أجد من المُستحيل أن أتخيَّله وهو يعيش في التخوم الحقيرة والبائسة بدرجة لا توصَف لحي اليهود في لندن، وهو مُستأجِر لمحلٍ بائس وصغير في شارع جانبي من شوارع منطقة إيست إند. لكن يبدو أن هذه كانت حاله في وقتٍ ما — دعني أقتبس ما كتب بكلماته الخاصة، التي لا تحتاج إلى تعليقاتٍ من جانبي لإبرازِ ما بها من غرابة.

«الأحداث المرتبطة بحيازة العيِّنات رقم ٧ و٨ و٩ في السلسلة الأنثروبولوجية:

نحن مخلوقات تصنعها الظروف. فالصدفة البحتة التي قادت ذلك الخسيس المجهول إلى منزلي وسط سكون الليل وأفضت بزوجتي إلى حتفها على يدَيه الأثيمتَين دفعت أيضًا ذلك المجرم الآخر (رقم ٦ من السلسلة الأنثروبولوجية) لأن يتعقَّبني حتى منجم الطباشير المنعزل، وكان سيقتُلني لولا أنني ولحُسن الحظ توقَّعت نواياه. وهكذا وبالصدفة أيضًا، وجدت نفسي صاحب محلٍّ في أحد الشوارع الخلفية لمنطقة وايتشابل.

لنتتبَّع روابط الأحداث.

أول رابط كان زيارةً قمتُ بها في شبابي إلى موسكو ووارسو، حيث مكثت طويلًا بما يكفي لأكتسب معرفةً جيدة باللغتَين الروسية واليديشية. أما الرابط الثاني، فكان إخفاقَ خُطتي في جذب قاتل زوجتي — وكذلك مُجرمِين آخرين — إلى منزلي. إذ فاحت رائحة الفخ الذي نصبتُه لا بين المُجرمين وحسب، بل وبين رجال الشرطة أيضًا، حيث زارني أحدُهم في متحفي وقد بدا عليه شكٌّ واضح جدًّا فيما يتعلَّق بطبيعة عيناتي.

بعد زيارة المُحقِّق، كنتُ متفرغًا إلى حدٍّ كبير. وذلك الصعلوك المجهول كان لا يزال طليقًا. ينبغي أن يُعثَرَ عليه، وينبغي بي أن أجِده أنا، بما أن الشرطة لا تستطيع ذلك.

لكن كيف يمكن تحقيق هذا؟ كان المُحقق قد خرَّب كل خططي تمامًا، ولبعض الوقت، لم أستطِع وضْعَ أي خططٍ أخرى. ثم بعد ذلك جاء ذلك النذل القذِر الذي حاول قتلي في منجم الطباشير؛ ومن كلماته الهجينة، التي كانت بلهجة كوكنية تشوبها لهجةٌ أجنبية، واتتني لمحة غامضة. إن لم يكن بإمكاني إغواءُ المُجرمين إلى عالمي، فكيف سيكون الحال إن أنا استطلعتُ عالَمهم؟ كنت أعرف المنطقة الأجنبية في لندن معرفة تامَّة؛ لأنها بدت دومًا مُثيرة للاهتمام منذ زيارتي إلى وارسو، واستنادًا إلى تقارير الشرطة، بدَت ميدانَ صيدٍ حقيقيًّا ومفرِحًا لصيد الضليعِين في الإجرام.

من ثمَّ قادني شعوري بالجزع إلى التجوُّل بصورةٍ يومية تقريبًا في تلك المنطقة الغريبة شرقِي ألدجيت، التي تَبرُز فيها أسماء أجنبية وغير مألوفة على واجهات المتاجر، والتي كُتب فيها أيضًا كل إشعارٍ عام أو خاص بحروف عبرية. كنت أرتدي أكثرَ ثيابي رثاثةً وأتجوَّل ساعةً تلوَ الأخرى ويومًا تلوَ الآخر عبر الشوارع والأزقة الرمادية والكئيبة، أُطالع عيونَ المارِّين الأوروبيين الشرقيين الصغيرة اللامعة ووجوههم العريضة وأتساءل في نفسي إن كان أيٌّ منهم هو الرجل الذي أبغي.

وذات مساء، وبينما أنا عائد نحو المنزل عبْر المنطقة التي تقبع في الجزء الخلفي من شارع ميدلسكس، انتبهتُ إلى بطاقةٍ كبيرة مُعلَّقة على باب محلٍّ مغلق. كان ثمَّة عمود قذِر خاص بالحلاقين يشي بطبيعة العمل الذي كان يجري في هذا المكان، أما البطاقة فكانت تحمل التفاصيل — التي كانت مكتوبة بحروف عبرية جميلة بل وأكاديمية حتى. كنت قد توقفت لقراءة البطاقة، وقد وجدت شيئًا من الاستمتاع في التعارض بين الكتابة الشرقية العسيرة الفهم والإشارات العملية لـ «الموقع الممتاز» و«تجهيزات المحل واسمه»، وذلك حين خرج عليَّ من داخل المحل رجلان. كان أحدهما يُمثِّل صورة مثالية لليهودي الإنجليزي؛ إذ كان أنيقًا ومُمتلئ الجسم ويبدو عليه الثراء؛ أما الآخر فكان أجنبيًّا بلا شك.

وقف الرجلان جانبًا ليُتيحا لي أن أستمرَّ في قراءتي، وبينما كنتُ على وشْك أن أنصرف، خاطبَني أكثرهما أناقةً وكان بلسانه لثغة.

«هذه فرصة جيدة يا سيدي. محل صغير لن يُكلِّف شيئًا. لن يجري حسابك على اسم المحل أو تجهيزاته. إنه عمل تجاري جاهز، ولن تدفع شيئًا سوى الإيجار.»

وتدخَّل الرجل الثاني في الكلام قائلًا: «أجل، هذا المحل يُعتبر منجمَ ذهب صغيرًا؛ والمقابل الذي ستدفعه زهيد.»

كان الموقف عبثيًّا. وكنتُ قد بدأت أهزُّ رأسي وأنا أبتسِم حين استطرد اليهودي بحماس:

«صدِّقني يا سيدي، هذه فرصة نادرة. هذا عملٌ تجاري من الدرجة الأولى ولن تتكلَّف شيئًا مقابل اسم المتجر.» ثم أضاف وهو يحاول حملي على القَبول: «تعالَ وألقِ نظرةً في الأرجاء.»

أظن أنني فضوليٌّ بطبيعتي. على أي حال، أنا واثق أن الفضول لرؤيةِ ما يبدو عليه أحد الأماكن في وايتشابل هو وحدَه ما دفعني لاتباع الرجلَين والدخول إلى المحل المُظلم ذي الرائحة العفنة. لكن بمجرد أن وقعت عيناي على التجهيزات والملحقات الحقيرة، لمعت في ذهني فكرة نيِّرة حقًّا.

سألت: «لماذا رحل آخِر مَن استأجر المحل؟»

فأمسك اليهودي بتلابيب معطفي وهتف يقول:

«كان آخِر المُستأجِرين أحمقَ. لقد تورَّط مع المُجرمين. أعدَّ طاولة روليت في القبو وسمح لهم بالمجيء والمقامرة بغنائمهم. من الغباء فِعلُ هذا، لكن لعلمك، لقد أبلى بلاءً حسنًا قبل أن ينتهي أمره. أترى، ستحصل على ذلك من دون مقابل.» وكانت نبرته متعاطفة.

فسألت: «وما الذي حدث في نهاية المطاف؟»

«أغارت عليه الشرطة. فقد وشى أحدهم به.»

فقلت: «ربما كانت واحدة من النسوة هي مَن وشت به.»

فاندفع الرجل الآخر يقول بنبرة حادة: «أوه! هذا صحيح! بالطبع كانت واحدة من النسوة! هن السبب دائمًا. أولئك النسوة الملعونات، هنَّ سبب كل مصيبة!» ثم ضرب على الطاولة بقبضته، وبعد أن وقعت عينه على عين الرجل اليهودي، تراجَع فجأة وصمت على الفور.

وانتقلنا من المحل إلى الغرفة الصغيرة في الجهة الخلفية، وكان بالغرفة باب يُفضي إلى القبو الكبير عبر مجموعةٍ من درجات سُلَّمٍ حجري غاية في الخطورة. كان القبو مضاءً بنافذة شبكية من الباحة الخلفية، التي تتصل أيضًا بالقبو من خلال مجموعةٍ من الدَّرجات وباب. بعد ذلك استعرضنا الباحة نفسَها، التي كانت عبارة عن حيِّز مُغلق صغير ومرصوف له باب يُفضي إلى زقاق، وفي الوقت الراهن كان بها برميل جَعة فارغ، وعربة يد ذات عجلتَين تخصُّ بنَّاءً، وقطة ميِّتة.

سألني الرجل اليهودي قائلًا: «أترغب في رؤية الحجرات بالطابق العلوي؟» وقد فهمتُ أن اسمه ناثان. فأومأت في شرودٍ وتبِعته على الدَّرج، وقد انتابني انطباعٌ عام بأن القذارة مُتفشِّية في المكان. وكانت الحجرات العُليا لا تُثير اهتمامي بعد الذي رأيته بالأسفل.

قال السيد ناثان حين عُدنا مرة أخرى إلى المحل: «والآن، ما رأيك؟»

لم أُجِب عن سؤاله مباشرةً. فلو فعلت، لسبَّبتُ له صدمة. لأنني أظنُّ أن المكان مثاليٌّ تمامًا بالنسبة لأغراضي. تأمَّل إمكانياته وحسب! كنت أبحث عن مُجرم يُمكنني تحديد هويَّته من شَعره. وها هو ذا محل حلاقة في قلب حيٍّ يعجُّ بالمُجرمين، وكان هذا المحل يُمثِّل مؤخَّرًا مأوًى لهم. من المؤكد أن هؤلاء المُجرمين سيعودون. حينها يُمكنني فحص شَعرهم على مهل — ثم هناك القبو. أكرِّر أن المكان كان مثاليًّا تمامًا.

فقلت: «أظن أن المكان يُناسبني.»

فابتسم لي السيد ناثان ابتسامةً عريضة. وقال: «بالطبع ستكون هناك حاجة للمراجع، أو لإيجار مقدَّم.»

فأجبته: «أعتقد أن إيجارَ عامٍ مقدَّمًا سيفي بالغرض، أليس كذلك؟» وحينها كاد السيد ناثان يطير من الفرح. وقد غادرتُ بعد ذلك بدقائق قليلة وأنا المُستأجر من السيد صامويل ناثان (باسمٍ مستعار هو سايمون فوسبر)، على أساس أن أدفع الإيجار المقدَّم نقدًا وأن يُنظِّف هو المكان ويضع على واجهة المحل اسم فوسبر.

أتممتُ سريعًا استعداداتي للأنشطة الجديدة التي سأتطرق إليها. فعيَّنت لمنزلي في بلومزبيري قيِّمًا وهو رقيب أول متقاعد، وكان الرجل صموتًا صمتًا لا يُقارن. وأوصدتُ أبواب جناح المتحف واحتفظت بالمفاتيح. وأخذت عدة دروس في الحلاقة من أحد الحلاقين في منطقة إيست إند. ودفعت الإيجارَ المقدَّم، وأرسلت مجموعةً من أثاث حجرة النوم إلى مكاني الجديد في شارع سول بوايتشابل، ولم أحلق ذقني لعشرة أيام أو نحو ذلك، ثم تسلَّمت ملكيَّة المحل.

في البداية كانت زيارات الزبائن قليلة ومتباعدة. كان خضريٌّ متجول أو سائق عربة خيول يأتي إليَّ بين الحين والحين، لكن في معظم الأحيان كان المحل ساكتًا وفارغًا. لكن هذا الأمر لم يُصبني بالجزع. إذ كان لديَّ الكثير من التجهيزات التي عليَّ القيام بها وكذلك الخُطط التي عليَّ تنفيذها. على سبيل المثال، كان هناك الدَّرج الخاص بالقبو؛ وهو مجموعة من الدَّرج الحجري الشديد الانحدار الذي لا يوجَد به درابزين يحمي سالكه.

كان ذلك الدَّرج في غاية الخطورة. لكنني حين علَّقت حبلًا في السقف واستخدمتُه في قطع الدَّرج أصبحت قادرًا على نزول مجموعة الدَّرج بأكملها بأمان. وتعلَّقت الاستعدادات الأخرى بوضع خزنة حديدية في الغرفة الخلفية (وفوقها مرآة صغيرة) وشراء صفيحة من شحم العربات الصلب وبعض البراميل الكبيرة. وقد اشتريتُ هذه البراميل من صانع براميل في شكل ألواحٍ وأطواق، وجمعتها في شكل براميل في القبو أثناء أوقات فراغي المطوَّلة.

وقد ازدادت أعداد زبائني تدريجيًّا في تلك الأثناء. فتباينوا من الخضري المتجول والعامل، غير المؤذِين، إلى الزبائن الأكثرِ صلةً بمجالي؛ في واقع الأمر، لم أكن قد أكملتُ استعداداتي كلها بعدُ حين حصلتُ على أول المكاسب غير المتوقَّعة.

كان الوقت هو مساء يوم أربعاء. وكنت أكاد أنتهي من حلاقة ذقن عامل ضخم الجسم يبدو عليه من مظهره أن له خلفيةً عسكرية، وذلك حين انفتح الباب بهدوءٍ شديد ودلف رجل في منتصف العمر رثُّ الثياب وجلس. كانت حركاته صامتة — بل تكاد تكون خفيَّة ومستَرَقة؛ وحين جلس، أمسك بجريدة، استطعتُ أن أراه من خلفها وهو يسترق نظرات ماكرة ومُريبة إلى الرجل الذي يجلس على كرسي الحلاقة. وبعد أن انتهيتُ من حلاقة ذقن الرجل، نهض هو ليرحل، فاختفى الوافد الجديد تمامًا خلف جريدته.

ثم سألني حين خرج: «مَن هذا الرجل؟»

فأجبته: «لا أعرفه، لكن استنادًا إلى يده، أرى أنه عامل.»

فقال زبوني: «يبدو أقرب إلى شرطي.» ثم اتخذ مجلسه على الكرسي الخالي وقال باقتضاب: «سأقص شَعري»، وبعدها انطلق لسانه أكثر.

فقال: «هل أخذتَ مكان بولينسكي؟»

أومأتُ له في المرآة التي أمامنا (إذ كان بولينسكي هو السابق عليَّ) وأردف هو يقول: «إنه يقضي عقوبة الآن، أليس كذلك؟»

كنت أعلم أنه في السِّجن فوافقتُه، بعدها سألني صاحبي:

«هل عرَّج عليك بونجو بعدُ؟»

لم أكن قد سمعتُ ببونجو من قبلُ بطبيعة الحال، لكنني شعرتُ أنني لا ينبغي أن أبدوَ بمظهر مَن لا يعلم. كان من الأفضل أن أبتكر شيئًا.

فقلت وأنا أطيل التفكير: «بونجو، بونجو. أهو الرجل الذي كان مع جو بارتلز في تلك العملية ... تلك العملية كما تعلم؟»

فقال صاحبنا: «كلا، لا أعلم. ومَن هو جو بارتلز هذا؟»

«أوه، كنت أظنك تعرفه؛ لكن إن كنتَ لا تعرفه فمن الأفضل ألا أبوح بالمزيد. فأنا لا أعرف مَن تكون أنت.»

«أنت لا تعرف مَن أكون. سأُخبرك إذن. أنا سبوتي بامبر، من سبيتالفيلدز، هذا هو أنا. الآن ها أنت ذا بتَّ تعرفني.»

حاولت حفْظَ اسمه في ذهني (وكانت بشرة السيد سبوتي تُشير إلى أن اسمه الأول ينطبق عليه إذ كانت كثيرة البقع)، ولا بد أن انتباهي زاغ قليلًا؛ إذ صاح زبوني فجأة: «تبًّا! ما هذا؟! لم آتِ لأحلق شَعري تمامًا. لقد أتيتُ لأقصَّ شعري.»

اعتذرتُ له وعُدت بالمحادثة إلى بولينسكي.

قال بامبر: «كان الرجل ماكرًا. كان ماكرًا أكثرَ من اللازم. لم يشبع وأراد المزيد. أراد الحصول على كل شيءٍ مقابل لا شيء. هذا هو سبب الوشاية به ...» وهنا التفَت سبوتي وهو يهزُّ رأسه قائلًا: «لماذا تنظر إليَّ بهذا الشيء؟ رأسي ليس صغيرًا بهذا الشكل.»

كان «ذلك الشيء» هو عدسة كودينجتون المكبِّرة، كنت أفحص شَعر كل زبون من أجل تحديد هُويته. لكنني لم أخبر السيد بامبر بهذا الأمر. وكان تفسيري مبهمًا وملتبسًا، لكن بدا أنه اقتنع به.

وقال: «في الواقع، أنت رجل مُريب. كما أنك تتحدَّث كرجلٍ من طبقة رفيعة.» فنبَّهت نفسي إلى ذلك الأمر وعزمتُ على دراسة اللهجة المحلية. وفي خلال ذلك شرحت له قائلًا: «لم أكن حلاقًا طوال حياتي.»

أجابني سبوتي وهو يلوي رقبته لينظر إلى قفاه في المرآة وقال: «أعتقد هذا فعلًا. تبدو كمن يُطلق عليهم المرء هاويًا.» ثم وقف ونظَّف نفسه وقدَّم نصف كراون، فأخذتُ أفحصه بعنايةٍ قبل أن أُعطيه الباقي. حينها أخرجتُ من جيبي حَفنة من العملات المعدنية المُتنوِّعة، اثنين سفرن، وبضع عملات فضية وأخرى نحاسية. أنا عادةً لا أحمل نقودي مختلطة بهذه الطريقة المُهملة، لكنني تبنَّيتُ هذه العادة منذ وصولي إلى المحل لخدمة غاية محدَّدة؛ وقد وجدتُ الآن مبررًا لِما فعلت في نظرة الجشع الشديد التي أضاءت وجه سبوتي لدى رؤيته للعملات في يدي.

انتقيت الباقي من بين العملات على مهل وسلَّمته له، ووقف هو ثوانيَ قليلة كان من الواضح أنه يُفكِّر فيها تفكيرًا طويلًا. وفجأةً دسَّ يده في جيبه وقال: «أعتقد أيها السيد أنك لا تملك ورقةً نقدية بخمسة جنيهات يُمكنك أن تُعطيني إياها مقابل خمسة سفرنات؟» ثم أخرج خمسة سفرنات، فأخذتُها منه ورُحت أفحصها بعناية.

فقال سبوتي: «أوه، إنها سليمة»، بينما أنا أقلِّبها وأزنها في يدي. وكانت كذلك فعلًا.

قلت له: «أعتقد أنَّ بإمكاني إعطاءك ورقةً نقدية من فئة خمسة جنيهات إذا ما انتظرت لحظات»، وحين التفتُّ لأدخل إلى الغرفة الخلفية، جلس سبوتي في الكرسي في شيء من التباهي.

وقد واربتُ البابَ خلفي ولكن لم أُوصِده. كان هناك مصباح غازي صغير في الغرفة الخلفية وعلى ضوئه فتحتُ الخزنة، وأخرجت منها دُرجًا، وأخذت من الدُّرج حَفنة من الأوراق النقدية ورُحت أقلِّب فيها؛ فعلت كل ذلك بتمهُّل بينما عيني على المرآة المُعلَّقة فوق الخزنة. كانت المرآة تعكس الباب من خلفي. كما كانت تعكس صورتي أيضًا، لكن وحيث كان الضوء في ظهري، كان وجهي مُستترًا في الظلمة. وبمجرد أن فتحت الخزنة، انفتح ببطء وهدوء الباب من خلفي بضع بوصاتٍ وظهرت عينُ أحدهم. اخترت ورقةً من بين حَفنة الأوراق، وأعدتُ الباقي إلى الدُّرج وأغلقت الخزنة وعُدت ببطءٍ إلى الباب. وحين عاودتُ دخول المحل، كان سبوتي جالسًا في الكرسي كما تركته، وكأنه تمثال مصري منحوت من الحجر.

ليس لديَّ أدنى شكٍّ أن سبوتي بامبر قهقه من البهجة حين خرج من عندي. يروق لي هذا الرأي، وأن أرى أن السعادة كانت متبادلة. فأنا لن يفهم مشاعري سوى صياد صبور رأى بعد طول صبر غير مُثمر:

طوف صنارته أو فلينتها يغوص في الماء
مع عضات حماسية من سمك الفرخ النهري أو السمك الأبيض أو سمك الدايس.

لقد ابتلع سبوتي الطعم. سيعود ثانيةً، ولن يكون وحيدًا … أو هكذا كان رأيي على الأقل. ذلك أن فحصي العاجل لشَعره أقنعني بأنه ليس الرجل المجهول الذي أسعى في إثره؛ ورغم أنه سيُمثِّل إضافة جيدة إلى مجموعة العينات في الصندوق الطويل في المتحف، فإنني كنت مُهتمًّا أكثرَ بالرفقة التي أعتقد أنه سيُحضرها معه. وكانت الغبطة التي انتابتني إزاء هذه الزيارة الثانية شديدةً لدرجة أنني أغلقتُ المحل من فوري وأمضيتُ بقيةَ المساء أتدرَّب على استخدام المربات وعلى القفز من فوق دَرَج القبو باستخدام الحبل الكبير الذي علَّقته.

لم أنم تلك الليلة إلا قليلًا. وكإجراءٍ احترازي خاصٍّ ضد الإخفاق، تركت الباب الخلفي غيرَ مُوصَد وأحجمتُ عن غلق باب القبو الخارجي كذلك؛ غير أنَّ ذلك لم يَنتج

عنه سوى أنني استيقظتُ في الواحدة صباحًا بفعل رجل شرطةٍ متطفِّل وبَّخني بشدَّة على إهمالي. بخلاف ذلك، ظللتُ وحيدًا ولم يأتِ أحد ليُبدِّد عُزلتي. ومضت الليلة الثانية بنفس الطريقة المُملة، فصرتُ منزعجًا وجزعًا؛ ولمَّا مضت الليلة الثالثة من دون ظهور إشارة على إتيان أحدِهم للزيارة، أصبحتُ مضطربًا بشدة.

كان اليوم الرابع هو يوم سبت، وفي وقتٍ متأخِّر من المساء — حيث كانت نهاية عطلة السبت — تحوَّل محلِّي إلى أرض جوشان. وقد استمتعتُ بالمحادثات التي كانت تدور بين الزبائن والتي كان مُعظمها باللغة اليديشية — والتي تظاهرتُ بأنني جاهل بها تمامًا — حتى شارف موعد الإغلاق. حينها وبينما كان المحل يفرُغ من زبائنه، بدأت آمالي ومخاوفي تعودان إلى الحياة معًا.

كنتُ على وشْك البدء في إغلاق المكان حين انفتح الباب بهدوءٍ وتسلل رجل إلى المحل. فقفز قلبي في صدري من الابتهاج. كان الرجل هو سبوتي بامبر.

ولم يكن وحيدًا. لم يكن وحيدًا على الإطلاق. إذ دلف رجُلان آخران إلى المكان بنفس الطريقة المُتسللة، وبعد أن نظر كلٌّ منهم إلى الآخر وجالوا في أرجاء المكان بأعيُنهم، نظروا جميعًا إليَّ. بالنسبة لي، رُحت أنظر إليهم باهتمامٍ عميق، خاصة إلى شَعرهم. بدَوا جميعًا وكأن عبارة «معتاد الإجرام» قد كُتِبت على وجوههم. كانوا من النوع المُمتاز باعتبارهم مادةً أنثروبولوجية.

افتتح السيد بامبر المحادثةَ بينما تتردَّد نظراته عليَّ وعلى الباب.

وقال: «اسمع، يا سيدي، لقد أتَينا من أجل شيءٍ صغير. أنت تعرف أن بولينسكي كان يقوم ببعض الأعمال؟»

أجبته: «أجل، والآن هو يقضي العقوبة.»

ردَّ سبوتي: «أعرف، لكن ينبغي بالمرء أن يقبل بالأمر حلوِه ومُرِّه. لن تكون اللقمة سائغةً دائمًا. وأنت تعرف أن بولينسكي كان شديد الحماقة.»

وقال أحد الرجُلَين الآخرَين وهو يقترب مني: «الأمر كما سأطرحه عليك الآن. أيمكنك أن تتعرَّف إلى الشيء المُزيف الذي قد يبدو مثل الشيء الأصلي لكنه ليس كذلك؟»

وحيث إنني لم أكن أملك أدنى فكرة عما يقصده ذلك الرجل، أخذت أُماطل.

فقلت له: «لم أرَ شيئًا بعد.»

فنظر الرجل خلسةً نحو الباب ثم دسَّ يده في جيبٍ داخلي وأخرج ساعةً ذهبية بها سلسلة كبيرة مربوطة بها، أراني إيَّاها للحظةٍ ثم أعادها إلى مكانها.

وقال: «هذا هو الشيء الصغير، وقبل أن تُقدِّم سعرك، يمكنك الاطلاع عليه ورؤية إن كان أصليًّا. لكن ليس في الخارج هنا كما تعلم. إننا نقوم بأعمالنا في الداخل حيث لا يمكن لشُرطي أن يرانا من النافذة.»

كشفتُ خطَّتهم في لحظة، وعمومًا وافقت عليها، وإن كان وجود ثلاثة في وقت واحد يُعَدُ أكبر مما كنت أرغب فيه. إذ سيتطلب التعامل معهم قدرًا كبيرًا من الحذر.

فقلت له: «سأدخل وأنظر إن كانت الأمور على ما يُرام»، ثم انسحبت إلى الغرفة الخلفية وأوصدت الباب من خلفي في هدوء.

بمجرد أن دخلت، أسرعت في إنجاز استعداداتي البسيطة. فبعد أن وضعت المربات في سلةٍ أسطوانية طويلة بالقُرب من باب القبو، فتحت باب القبو وعقدتُ الحبل في موضع يُمكنني منه إمساكُه بسهولة. ثم أخرجتُ من الخزانة صفيحةَ الشحم وباستخدام سكينٍ كبير نشرت طبقةً سميكة من الشحم على الدرجات الأربع العُليا من سُلَّم القبو. وبينما أنا مُنهمك فيما أقوم به، أخذت أتأمَّل خُططي بسرعة ولكن بقدْر كبير من الرِّيبةِ أيضًا. فالاحتمالات أكبر مما كان ينبغي بي القبول بها. كما أنني ليس لديَّ أدنى شكٍّ بشأنِ ما تنطوي عليه نيَّة هؤلاء الرجال. فأنا أعرف بامبر، وهو لن يُجازف بأن يترك لي فرصةً لأُبلغ عنه. ونيَّة هؤلاء الرجال كانت «القضاء عليَّ»، كما كانوا سيُعبِّرون عنها، وكان سؤالي الجوهري الآن هو: كيف يُخطِّطون للقضاء عليَّ؟ على الأرجح أنهم سيتفادون استخدامَ الأسلحة لِما تُسبِّبه من ضوضاء، لكن إن حملوا عليَّ حملةً واحدة ومعهم سكاكينهم فستكون فرصة نجاتي مُتناهية الصِّغر.

ينتابني الآن شعورٌ بأنني فاضلتُ بين هذه الاحتمالات بصورة موضوعية إلى حدٍّ كبير، وكأنني كنتُ مجرَّد مُتفرِّج. وكان هذا هو الحال بالفعل. الأمر أنني تخلَّيت عن فكرة الانتحار منذ وقتٍ طويل، لكنني ظللتُ على قيد الحياة من أجل مبدأ لا بدافع رغبةٍ شخصية مني. فكان اعتراضي على أن يُقضى عليَّ هو مجرد اعتراض نظري على قتلِ أي عضوٍ جدير بالمجتمع على يد تلك الهوام البشرية. لكن إن كانت هناك حاجة لأن يُقتَل ذلك الشخص، فإنني لا أُبالي إن كان مَن سيقع عليه الفعل هو أنا أو أي شخصٍ آخر. لم يكن لي مصلحة شخصية بالمسألة. ومن ثمَّ حين فتحتُ الباب وأشرت إلى الرجال الثلاثة ليدخلوا إلى الغرفة، لم أكن أُعاني أيَّ إحساسٍ بالعصبية أو القلق، وإن كنتُ مرتابًا من المسألة.

كانت الأفضلية التي منحني إيَّاها عدمُ انفعالي على هؤلاء الحقراء الثلاثة واضحةً للغاية حين دلفوا إلى الغرفة؛ لأنهم كانوا جميعًا يرتجفون ويختلجون لشدةِ ما بهم من

انفعالٍ وإثارة. ولا عجب في ذلك. فالرجل الذي تُهمُّه حياتُه أكثرَ من أي شيء آخر على وجه هذه الأرض يُمثِّل له دخولُه حجرةَ المقصلة مشكلةً كبيرة. وبمجرد أن دخل ثلاثتُهم، قام أحدهم، وكان قريبَ الشبَه إلى كونه يهوديًّا بولنديًّا، فأوصد الباب؛ ثم اجتمعوا من حولي وكأنهم قطيعُ ضباع.

تراجعتُ أنا نحو الزاوية بالقُرب من باب القبو، وكنتُ أتحدَّث إلى ثلاثتهم واحدًا تلوَ الآخر أثناء تراجُعي؛ ثم تقدَّم اليهودي على طول الجدار شيئًا فشيئًا ليأتيَ خلفي. فأدركتُ أن عليَّ أن أنتبِه إلى هذا الرجل، ورحتُ أرقبه؛ لم أكن أنظر إليه، بل جعلته في هامش مجال رؤيتي. إذ، كما هو معروف، المنطقة المُحيطة بشبكية العين شديدة الحساسية إلى انطباعات الحركة وإن كانت بليدةً تجاه انطباعات الشكل.

وقد مثَّلت تعليقاتي عن الخطورة التي ينطوي عليها تعامُل الرجال المحترمين مع الأشياء المسروقة إشارةَ بدءِ السيد بامبر بالكلام.

فزمجر الرجل قائلًا: «أشياء مسروقة. مَن قال شيئًا عن وجود أشياء مسروقة؟ ماذا تقصد أيها الحلَّاق اللعين!» ثم تقدَّم نحوي متوعدًا وذقنه ممدَّد نحو الأمام وعلى وجهه أمارات عبوس شديد.

في اللحظات القليلة التالية، حصدتُ ثمارَ تدريباتي الشاقَّة في صالة الألعاب الرياضية على فنون الجوجتسو والملاكمة بالأسلوب الفرنسي. كان تقدُّم بامبر بمثابة الإشارة بالنسبة لي. وكنتُ قد رأيت يد اليهودي تنسلُّ تحت ذيل سُترته. ثم أتى على حركة سريعة — وكذلك فعلتُ أنا. إذ التفتُّ بحركةٍ خاطفة ورشيقة وأمسكت بمعصمِه بطريقةٍ تسبِّب خلْعَ مِفصل مرفقه، وبينما أستدير، ضربتُ صدر سبوتي بامبر برجلي ضربةً في غاية العُنف. أدهشتهم جميعًا حركاتي السريعة. صرخ اليهودي وألقى بالسكين، وأخذ يترنَّح بشدة على باب القبو الذي عاد إلى وضعه بفعل مفصَّلاته المزيَّتة جيدًا. وقد طار بامبر نحو الخلف وكأنه كرة قدم مركولة، وبينما هو يتَّجه نحو الرجل الثالث مثل كرة مدفع، اصطدم كلاهما بالآخر وهوى كلٌّ منهما على الأرض. فدفعتُ اليهودي عبْر الباب المفتوح، وأطلقتُ معصمه، ثم تبِع ذلك صوت انزلاق مصدره سُلَّم القبو وانتهى بصوت سقوطٍ خفيض.

لقد تغيَّر الموقف تمامًا في تلك اللحظات القليلة. عرفت أن اليهودي أصبح مستبعدًا من القتال، وأصبحت الاحتمالات الآن معقولة. فبالنسبة للرجُلَين الآخرين، ومع أنهما وقفا بسرعةٍ على أقدامهما مرةً أخرى، فإنهما ظلَّا على مسافة منِّي، وكان بامبر بصفةٍ خاصة

يُعاني بعضَ الصعوبة في التنفُّس. فأمسكتُ بالمربات ووقفت مواجهًا لهما. ولو كنت سريعًا بما يكفي، لأجهزتُ عليهما من دون أن أجد صعوبة. لكنني لم أفعل. إذ أدركتُ مرةً أخرى تلك الحالة الذهنية الفريدة التي أشرتُ إليها في مواضعَ أخرى والتي تنتابني في وجود مُجرِمَين عنيفَين؛ المتعة القوية التي أجدها في العراك الجسدي، والتي لا أستطيع فهمُها تمامًا حين أكون في حالتي الذهنية الطبيعية. اندفع الدم في أرجاء دماغي بفعل تلك المُتعة القوية حتى أخذت أذناي تطنَّان؛ ومع ذلك ظللتُ محافظًا على رباطة جأشي، فكنتُ منتبهًا ومتيقظًا وهادئًا.

ومن ثمَّ، حين حاول المُجرم الثالث أن يجريَ نحوي ومعه سكين كبير له غمد، طرحتُ يدَه جانبًا باستخدام المربات وأخرجته من نطاق حركاتي بضربة قوية من قبضتي اليسرى. لكن في تلك اللحظة لاحظتُ بامبر يحاول باهتياجٍ أن يسحب شيئًا من جيبه الخلفي؛ شيئًا لم يكن سكينًا بالتأكيد. وكان الوقت قد حان لتغيير الأسلوب. فقبل أن يتمكَّن النذل الثالث من الاقتراب مني ثانيةً، انطلقت كالسهم نحو الباب المفتوح وأمسكتُ بالحبل، وفي لحظةٍ كنت أتأرجح فوق الدَّرج ونزلت إلى ظلمة القبو.

أثناء تأرجُحي كنت قد درتُ نصف دورة حول نفسي، وبينما أنا أنزل، رأيت الرجل وهو مُمسك بسكينٍ في يده وقد أتى عبر الباب يُطاردني. كان أكثر شجاعةً من سبوتي، لكنه كان أقلَّ منه حكمة. ففي أثناء فورة المطاردة، اندفع الرجل من فوق العتبة على الدرجة العُليا الزلِقة، وفي لحظةٍ كان يتهاوى على الدَّرج وكأنه جوال بطاطس مقلوب. سقط الرجل على اليهودي المُمدَّد، وبينما هو يقوم ويُعدِّل نفسه وكان مذهولًا مما حدث له، هويتُ بضربةٍ بالمِربات على رأسه مع الأسف. كانت نهاية قتالي معه فاترة، لكن كان لا يزال هناك مُسدس بامبر الدوَّار الذي عليَّ التعامل معه.

لكي أكون منصفًا بشأن السيد بامبر، لم يكن الرجل متهورًا. في الواقع، كان الرجل متواريًا عن الأنظار حتى إنني بدأتُ أخشى أن يكون قد هرب، وحيث لم يكن من الأمان أن أذهب نحو الأعلى وأتحقَّق بنفسي، بدأتُ أتظاهر ببعض الأشياء التي من شأنها أن تُشجِّعه على الخروج.

رحتُ أصيح: «أوه! اتركني! اترك يديَّ وإلا سأتصل بالشرطة!»

وكان لهذا التظاهر التأثير المرغوب. إذ ظهر سبوتي بامبر عند الباب الذي كان مضاءً بإضاءة خافتة، يحمل مُسدسه مصوَّبًا ويُحدِّق بحذَر في الظلمة.

عاودت التظاهُر، ثم انسحبت إلى أظلم الزوايا وأخذت أعبثُ بالأرضية المصنوعة من الطوب مُحدِثًا جلبة.

فتساءل بامبر المُحتاط قائلًا: «هل أمسكتَ به يا ألف؟» وكان يميل نحو الأمام ويخطو فوق العتبة. ظللتُ أتظاهر وأزيد من الضوضاء في زاويتي وأخذتُ أصنع أصواتَ نخرٍ ولُهاث وأنا أصيح: «أقول لك دعني!» «أهًا! هل تستطيع الإفلات؟» ونحو ذلك. فتقدَّم بامبر خطوةً أخرى نحو الأمام ومدَّ عنقه ونادى يقول: «أرسِله إلى هنا يا ألف حتى أستطيع أن …»

ولم يكمل الرجل جملته. كنت أراه وقد طارت ساقُه فجأة من تحته، ثم وقع المسدس الدوَّار مُحدثًا قرقعةً على الأرض، وبعد أن سقط سبوتي نصف الدَّرج، هوى على حافة الأرضية المرصوفة بالطوب.

وبينما هو ينهض ويتنفَّس بصعوبة، وضعتُ المِربات في الجيب الكبير لمئزري وقفزت عليه. صاح الرجل صيحةَ ذُعر وأخذ يكافح كالمجنون ليُحرِّر نفسَه من قبضتي، في حين اقتدتُه بعيدًا عن المسدس الذي يُمثِّل خطرًا كبيرًا. في البداية كان به من القوة ما مكَّنه من القتال معي لبعض الوقت، ثم وبينما نحن ندور في أرجاء القبو، يجرُّ بعضنا بعضًا ونتدافع ونتراكل ونتصارع، وجدتُ أن ذلك العراك العضلي القاسي مُبهجٌ بدرجةٍ غريبة. من الواضح أن هناك بعض الوجاهة في فكرة «الحياة البسيطة» الموجودة في المُجتمعات البدائية التي يكون فيها كل رجلٍ هو المسئول عن حماية نفسه والدفاع عن حقوقه.

لكن نوبة التحفيز الجسدية هذه انتهت فجأةً. إذ سرعان ما انتهى بنا الحال بالقُرب من سفح السُّلم، وهنا تعثَّر سبوتي في جثة الرجل الثالث المُنبطح على الأرض. فتهاوى نحو الخلف بضعَ خطوات وأطلق صيحةً قوية، ثم وقعْنا معًا فوق الرجل اليهودي. فأجهز هذا الأمر على ما به من قوة. لقد انهارت أعصابه وأصبح مذعورًا بصورةٍ مُطلقة لَمَّا رأى الجُثتَين الهامدتَين. توقَّف الرجل عن القتال وأخذ ينشج طالبًا الرحمة.

لم يكن الأمر سارًّا. فما دام القتال حاميًا ومُتقدًا، كذلك بقي دمي حاميًا بفعل الغرائز المُنتعشة من الأسلاف البدائيِّين المَنسيِّين منذ فترة طويلةٍ. لكن ومع أول صيحةٍ طلبًا للرحمة، خبا كل انتعاشي وابتهاجي وبدأتِ المشاعر المُتحضِّرة تُعلن عن وجودها. سأخسر لو تردَّدت. شعرت مع كل غمغمةٍ بائسة منه بأنني أصير أضعف. كان ثمة شيء واحد فقط عليَّ أن أفعله، وقد فعلته — باستخدام المربات.

يتَّسم الوصف بالكلمات بالبطء في مقابل الحركة في الوقت الفعلي. حيث لم يستغرق كلُّ ما وصفته لك من أحداث إلا دقائق قليلة. وحين فتحت باب الغرفة الخلفية ووجدتُ عامل حفر يغلب على شكله النُّعاس وينتظر ليحلق ذقنه، أدركت باندهاش كبير كم كان مقتضبًا وسريعًا ما حدث.

قلتُ وأنا أتوق لأن أعرف إن كان الرجل قد سمِع أيَّ شيءٍ غير اعتيادي: «آمُل أنك لم تنتظر طويلًا.»

فأجاب الرجل: «كلَّا، لقد دلفتُ لتوي. لم أكن أتوقَّع أن أجد أبوابك مفتوحة.»

وجلس الرجل على الكرسي وأكثرتُ أنا من الرغوة على وجهه، فصرتُ أستمتع بالتعامُل مع تلك الرغوة النظيفة. وقد أدهشتني حماقة زُوَّاري الراحلِين أنهم تركوا باب المحل مفتوحًا، وتبيَّن لي مجددًا كم يتحلى العقل الإجرامي بالضَّعف. كانوا قد افترضوا أن الأمر كلَّه سينتهي في لحظات، ولم يتَّخذوا أيَّ تدابير وقائية تجاه ما هو غير مُحتَمل. هؤلاء هم «معتادو الإجرام» الذين لا تستطيع آلة القانون المُكلَّفة التعاطي معهم! لا ريب أن هناك حمقى طيبين كُثرًا إلى جوار الحمقى المُحتالين!

أغلقتُ المحل بعد أن رحل زبوني، واستغرقت وقتًا في الاستحمام وتناوُلِ وجبة عشاء كبيرة. إذ إن أمامي الكثير من العمل الذي ينبغي أن أُنجزه قبل أن أخلد إلى الفراش. كان لدي ستة براميل ذات حجمٍ مناسب، كان اثنان منها على شكل براميل مكتملة والبقية على شكل ألواحٍ وأطواق. كان ينبغي أن أصنع من تلك الألواح والأطواق برميلًا واحدًا على الفور، حيث من الضروري أن تجري تعبئة العيِّنات قبل أن يُصيبها «تصلُّب الموت» فيُصبح من الصعب التعامُل معها. ومن ثمَّ، انكفأت على العمل بعد تناول العشاء باستخدام المِطرقة والأداة العريضة الشبيهة بالإزميل التي يُدفع بها الطوق، ولم أتوقَّف حتى تحولَتْ حُزمة الألواح إلى برميلٍ مكتمل باستثناء الطوق العلوي ورأس البرميل.

كنتُ أتقدَّم في العمل بصورة منهجية. فصببتُ في أحد البراميل ربع جالون من الماء ورحتُ أبلل الجزء الداخلي منه جيدًا، وذلك من أجل أن ينتفخَ الخشب فتُسدَّ جميع الثغرات. ثم وضعت فيه اليهودي، في وضعية جلوس، وشعرتُ بالارتياح لَمَّا رأيت أن العينة تشغل حيزها بصورةٍ جيدة. لكن عقبة صغيرة أعلنت عن نفسها هنا. إن مركز جاذبية البرميل المملوء بمادة مُتجانسة يتطابق مع مركزه الهندسي. أمَّا البرميل الذي يحوي يهوديًّا قتيلًا، فإن مركز الجاذبية سيكون مختلفَ المركز. هذا البرميل لن يتدحرج بصورةٍ متماثلة؛ ويمكن لهذا الأمر أن يؤدي إلى فتح تحقيق. رغم ذلك، كان الحل بسيطًا. كان صاحب المحل السابق معتادًا أن يُغطيَ أرضية المحل بنشارة الخشب، وقد قادتني عادات زبائني الغريبة إلى الاستمرار في تلك المُمارسة. كان ثمة سلة كبيرة في زاوية من القبو، وكان ما بها يُمثِّل وسيلةً لإكساب محتويات البرميل تماثلًا مصطنعًا. فعبَّأت كمية من نشارة الخشب حول العينة، ووضعتُ غطاء البرميل وأنهيت التعبئة عبر ثقب السدادة.

ولَّما وضعت السدادة في مكانها، جرَّبت دحرجة البرميل على أرضية القبو ووجدت أنه يتحرك من دون شذوذ ملحوظ في حركته.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين انتهيتُ من العمل وأصبحت البراميل الثلاثة جاهزة للنقل. وبعد استحمامٍ طويل آخر، ذهبتُ إلى الفِراش، وبفضل العمل الجسدي الشاق حظيتُ بنومٍ هانئ.

في اليوم التالي كان هناك بعض التأخير لأنه يوم الأحد، حيث سيكون من الحماقة لفتُ الانتباه عن طريق دحرجة البراميل في الشارع في حين أنَّ الناس كلهم في إجازة وراحة. رغم ذلك، عرَّجتُ على منزلي في بلومزبيري وأوعزت إلى الرقيب الأول أن بعض الطرود قد تكون في طريقها للوصول في اليوم التالي. وأضفت: «وعلى الأرجح أنني سأكون في المُختبر أُنجز بعضَ الأعمال يوم غد، فإذا سمعتني أتحرَّك في الأرجاء فاعلم أنه أنا وأنَّ كل شيءٍ على ما يُرام.»

لمس الحارس قبَّعته — وكان دائمًا ما يرتدي قبعةً في داخل المنزل — من دون أن ينطِق بكلمة. كان الرجل أقلَّ مَن رأيت في حياتي كلامًا وفضولًا.

وحين تجوَّلتُ قليلًا في أرجاء المختبر وقمتُ ببعض التجهيزات، رحلت بعد أن خرجتُ من مدخل المتحف. أردتُ من ذلك أيضًا أن يعتاد الحارس على هذه الزيارات والاختفاءات العرَضية غير المُعلن عنها. ثم رجعت إلى وايتشابل في سيرٍ بطيء وأنا أتأمَّل خُططي لنقل البراميل. في البداية كنتُ قد فكَّرت في أخذها إلى مكتب تسلُّم بضائع بيكفورد. لكن كان الأمر ينطوي على بعض الخطر، وإن كان يُعَدُّ بعيدَ الاحتمال. فإذا ما سقط أحد البراميل بطريق الخطأ، لا شك أنه سينفتح، ثم ... لم أكن أعارض أن أُقتَل بصفةٍ خاصة، لكنني كنتُ أعارض بشدة أن أُرسَل إلى مستشفى برودمور للأمراض العقلية. لذا قرَّرتُ أن أنقلها بنفسي بمساعدة عربة البنَّاء التي كنتُ قد سمحتُ لمالك المكان بالإبقاء عليها في باحتي. لكن هذه الخطة كانت تشتمل على التنكُّر بشكلٍ ما؛ سيكون كافيًا لو تنكَّرتُ بشكلٍ طفيف؛ لأنَّ الهدف من التنكُّر هو مجرَّد منع الغرباء من التعرُّف عليَّ عرَضًا.

والآن، كنت قد وجدتُ بين حاجات بولينسكي السابقِ عليَّ مجموعةً من مساحيق الألوان والطلاءات الشحمية ومعجون للشَّعر ومادة صمغية كحولية وموادَّ أخرى سلَّطت الشكوك على طبيعة نشاطاته. ولدى عودتي إلى المحل أجريتُ بعضَ الاختبارات باستخدام تلك المواد وذُهلت لَّما وجدت أن تعبيرات الوجه تعتمِد على علاماتٍ فارقة بسيطة. على سبيل المثال، اكتشفتُ أنَّ وضْع شريط لاصق من الحرير على منتصف الجبهة — بحيث

يمكن إخفاؤه تحت القبَّعة — والمستخدم في إخفاء الهالات وعيوب البشرة يُغيِّر زاوية الحواجب ويُغيِّر تعبيرات الوجه تمامًا، وأن لمسة خفيفة من اللون الأرجواني على الأنف من شأنها أن تغيِّر من ملامح الوجه كليًّا. كان هذا الأمر مثيرًا للاهتمام بحق؛ وحيث كان يساعدني على التخلُّص من مشكلة واحدة فقط، ترك لي وقتًا لتأمُّل بقية خُططي، وقد ظللتُ على هذا الحال حتى توقَّعت كل أمر طارئ وأعددتُ له.

وفي وقتٍ مبكر من صباح يوم الإثنين خرجت واشتريت أربعة ألواح تحميل خشبية قوية — اثنين طويلَين واثنين قصيرَين — ولفَّة حبل، ورافعة مكوَّنة من بكرتَين تُعرف في أوساط البحارة باسم «هاندي بيلي»، وزوجًا من مقابض البراميل. وباستخدام الألواح الخشبية والحبل صنعتُ مزلجتَين للبراميل، فاستخدمتُ المزلجة الطويلة في القبو والقصيرة في تحميل البراميل على عربة اليد. وبعد أن وضعتُ المزلجة الطويلة في مكانها، زيَّتُّها بالزيت وعلَّقت الرافعة فوق طرَفها العلوي، وأضفت المقابض إلى البراميل وسرعان ما رفعتُ البراميل الثلاثة وأصبحَتْ جاهزةً في الممر الذي يفضي إلى الفناء الخلفي. وبمساعدة المِزلجة القصيرة والرافعة، وضعتُها على عربة اليد وثبَّتُّها بإحكامٍ في مكانها باستخدام الحبل القوي ثم تخلَّصت من المزلجة والرافعة وأصبحتُ مستعدًّا للانطلاق. ثم دلفت إلى المحل ووضعت الشريط اللاصق اللازم على جبهتي ودهنتُ أنفي قليلًا، وبعد أن وضعتُ في جيبي قطعةً من الشريط اللاصق وفرشاة الطلاء، ارتديت أكثرَ معاطفي رثاثةً ووشاحًا على رقبتي واعتمرت قبَّعتي وضغطتها على رأسي حتى تُغطِّي الشريط اللاصق على جبهتي. ثم خرجت وأنا أدفع العربة في الزقاق، وبعد ذلك أوصدت البوابة الخلفية وانطلقت في رحلتي.

سرتُ عبْر الشوارع المزدحمة وأنا أجر العربة من خلفي، فانطلقتُ نحو الغرب متفاديًا الشوارعَ الرئيسية وما بها من زحامٍ كبير، وذلك حتى وجدتُ نفسي في طريق ثيوبالد عند نهاية شارع ريد ليون. هنا بدأت أنظر في الأرجاء بحثًا عن مَن يمكن أن ينوبني في هذا العمل؛ وسرعان ما وقعَت عيني على رجلٍ قوي البِنية كان مغتمًّا ويتَّكِئ على عمودٍ ويحاول تدخينَ غليون فارغ. كان من الواضح أن الرَّجُل ليس من معتادي التسكُّع في الشوارع. اعتقدتُ أنه عاملٌ لا يجد عملًا، ولما وجدتُ أنه سيخدم أغراضي ناديتُ عليه.

«أتريد عملًا يا أخي؟»

انتبه الرجل من فوره. «ألديك عمل يا أخي. أنا أريد عملًا. ما المهمة؟»

«أن تجرَّ هذه العربة حتى المنزل رقم ٦أ بشارع بلومزبيري وتُوصِّل البراميل.»
فكان سؤاله الحتمي: «كم ستدفع؟»
«سيُعطيك صاحب المهمة نصف كراون إذا ما طلبتَه منه.»
«وبكم سأحتفظ أنا من ذلك؟»
«أوه، لن نختلف بشأن هذا. عليَّ القيام بمهمة أخرى وإلا لكنتُ سأوصلها بنفسي. قم أنت بتوصيل البراميل ... وكن حريصًا عليها. فهي مُمتلئة بالمستحضرات الكيميائية الثمينة ... ولاقِني هنا عند العاشرة وسأوكل لك عملًا آخر. هل كل شيء واضح لك؟»

وضع صاحبنا الغليون في جيبه وتفل في يدِه. وقال: «أعطني تلك العربة»؛ وحين سلَّمته عمود الجر، انطلق بوتيرةٍ جعلتني سعيدًا أنني ربطتُ البراميل بحبلٍ قوي.

تركت الرجل يتقدَّم الطريق ثم تبِعته بعدها بحذَرٍ من مسافةٍ، وجعلت الرجل نصب عينيَّ حتى صار ضمن نطاق بضع مئات من الياردات من منزلي. ثم انطلقت بسرعة في منعطف جانبي، واتخذت طريقًا مختصرًا عبْر أحد الميادين، ولما وصلتُ إلى مدخل المتحف دلفتُ إليه باستخدام مفتاح قُفل ييل.

لم أستغرق سوى دقيقةٍ واحدة في إزالة قبَّعتي ومعطفي الطويل وكنزتي وإزالة الشريط اللاصق وغسل أنفي. وكنت قد جهَّزت مئزرَ العمل في المختبر وقلنسوة ضيقة مصنوعة من القطيفة ونظارة، وما كدتُ أرتديها جميعًا وأتقمَّص جِديَّة تنمُّ عن الولع بالدراسة حتى دقَّ الجرس. نظرت في مرآةٍ صغيرة معلَّقة على الحائط فشعرت بالارتياح من التغيُّر الجذري في مظهري وخرجتُ إليه بكل ثقةٍ وفتحت باب الشارع. كان الرجل يقف على عتبة الباب ولامس قبَّعته في توتُّر وهو يُطالع وجهي الجاد.

ثم سأل قائلًا: «أهذه البراميل تخصُّك يا سيدي؟»

أجبته بنبرة عميقة مُنمَّقة: «نعم، سأساعدك في إدخالها.»

أحضرنا العربة إلى الرصيف ووضعنا عمودَ القيادة على العتبة، وثبَتُّ أنا المزلجة في المكان المناسب بينما حلَّ مساعدي وثاق البراميل. وفي غضون دقائق قليلة كنا قد أنزلنا البراميل على المزلجة ورأيتها وهي في مكانٍ آمن في الرُّواق فشعرت بالارتياح. لقد انتهَت أخيرًا صعوبات النقل ومخاطره.

أعطيتُ لمساعدي نصف الكراون الذي طلبه على استحياء، وزدتُه شلنًا «لأجل الجِعة» ثم ذهب الرجل في سبيله جذِلًا. بعدها عُدت إلى المُختبر ولصقتُ شريطًا جديدًا ودهنت قليلًا من الطلاء الزيتي على أنفي وعاودتُ ارتداء ملابسي الرثَّة. وحين خرجت إلى الشارع

كانت العربة قد اختفت بالفعل، فأصبحتُ في حِلٍّ لأن أذهب إلى اللقاء مع الرجل من دون أن يُلاحظني أحد، وسرعان ما قابلت صاحبنا، ثم استعدتُ العربة بعد أن أكرمته بشلنٍ آخر.

لدى وصولي عند المحل في وايتشابل، ثبتُّ رسالة على النافذة تفيد بأنني «متغيب للقيام ببعض الأعمال». ثم ارتديتُ ثيابًا لائقة وأفرغت محتويات الخزنة في حقيبة يدٍ ووضعت فيها أيضًا الإزميل، وأوصدتُ المكان وانطلقتُ إلى محطة ألدجيت. كانت غايتي الأولى هي متجر السيد هامرستاين، تاجر العظام، الذي ابتعت منه ثلاثة هياكل عظمية بشرية مُنسَّقة وحصلتُ على الفواتير المدفوعة الشديدة الأهمية؛ وبعد أن اتخذتُ كلَّ التدابير الاحترازية التي تُمليها عليَّ الحصافة والبصيرة، ذهبت إلى منزل بلومزبيري، ودلفتُ من باب المتحف ودحرجتُ البراميل إلى داخل المختبر وشرعت في تفريغ العينات.

ظللتُ منشغلًا بإتمام العمليات المبدئية حتى ساعة متأخرة جدًّا من الليل، أما بالنسبة للإجراءات النهائية فقد ظللتُ مشغولًا بها طَوال شهر؛ في تلك الأثناء كنت أعمل في محل الحلاقة طوال النهار وحتى الساعة التاسعة ليلًا، مُخصصًا وقت العمل في المختبر للاسترخاء بعد يومٍ من العمل المبتذل وغير المُمتع.

حين نظرتُ إلى الواقعة برُمَّتها، وجدتُها ناجحةً للغاية ومُثيرة كثيرًا للرضا — عدا شيءٍ واحد فقط. لم تكن أيٌّ عينة من العينات تملك شَعرًا حلقيًّا. كانت هذه العينات الكاملة في نهاية المطاف مجرَّد نواتج فرعية لَمسعاي. وكان النذل الذي أسعى إليه لا يزال طليقًا ومجهولًا. كانت مجموعتي لا تزال تفتقِر إلى الجوهرة الْمُتمِّمة.»

الفصل السادس

أثرُ الأفعى

إلى الآن وفي عرضي لأرشيف المتحف الخاص بهامفري تشالونر، أخذت المُدخَلات بترتيبها، ولم أحذف إلا التفاصيل التقنية التي قد لا تكون ملائمة للقارئ العادي. أما الآن، فإنني سأتجاوز عددًا من المدخلات. فعملية الحصول على العينات أرقام ٧ و٨ و٩ تُظهِر الطرائق التي اتَّبعها تشالونر والتزم بها في العموم أثناء فترة إقامته الطويلة في شرق لندن؛ ورغم أن هناك بعض الاختلافات العرَضية، فإنَّ قصص عمليات الحصول على هذه العينات متشابهةٌ بوجهٍ عام ممَّا يجعل إعادة سردها أمرًا مضجرًا ومُملًّا. أمَّا المدخل قبل الأخير، على الجانب الآخر، فهو من بين أكثرها إثارةً للفضول والاهتمام. وبغضِّ النظر عن الأحداث المُثيرة التي يسجِّلها، فإنَّ الضوء الجديد الذي يجري تسليطُه من خلاله على هذا اللغز الذي لم يجد حلًّا حتى الآن يجعله جديرًا بسرده كله — وهو الأمر الذي سأفعله الآن — مع مراعاة عمليات الحذف اللازمة التي أشرتُ إليها أعلاه.

«الأحداث المرتبطة بحيازة العيِّنتَين رقمَي ٢٣ و٢٤ في السلسلة الأنثروبولوجية.

في محل الحلاقة الصغير الخاص بي في شارع سول بوايتشابل، كان الوقت يمرُّ عليَّ — كما بدا لي — بسرعاتٍ مختلفة. في بعض الأحيان، كانت نبضات قلبي تتسارع ودمائي تسير بسرعة في عروقي. يحدُث هذا في الأوقات التي يكون لديَّ فيها زوَّار؛ وما لبثتُ أن أضفت هيكلًا عظميًّا جديدًا أو هيكلَين إلى صندوقي الطويل في المتحف. لكن كان ثمَّة فترات طويلة من العمل المُمل والسكون المُضجر حين أقص الشَّعر — وأفحصه من خلال عدستي — يومًا تلوَ الآخر وأنا أتساءل — بشأن اختياري للحياة عوضًا عن الانتقال طواعيةً إلى استراحةٍ أبدية — إن كنت قد اخترت الخيار الأفضل في نهاية المطاف. لأنه وفي غضون كل تلك السنوات الطويلة، لم يأتني زبون واحد له شَعر حلقي. بدا أنَّ هذه المطاردة الطويلة لا تُقرِّبني من ذلك الصعلوك المجهول، قاتل زوجتي الحبيبة. كان

لا يزال مُتواريًا عني بين تلك الجموع القذرة التي تموج بالأرجاء؛ أو ربما أن قبرًا بائسًا أصبح بالفعل ملاذًا أبديًّا له، تاركًا إيَّاي في مطاردةٍ متعبة ومضجرة لشبح عدوِّي.

إنني أخرج عن الموضوع. هذا السجل ليس تسجيلًا لمشاعري، بل هو تأريخ لمحتويات متحفي. دعنا نتناول العينتَين ٢٣ و٢٤ والملابسات البارزة للغاية التي حالفَني الحظ في ظلِّها للحصول عليهما. لكن أولًا، ينبغي لي أن أسرد واقعةً لم تتبيَّن أهميتها إلا ببروز هذه المناسبة، رغم أن هذه الواقعة حدثت قبل وقتٍ طويل.

ذات ظهيرة تُشجِّع على النُّعاس أتى إلى محلي رجلٌ ضئيل له مظهر رث، كان الرجل هادئًا ودمثًا، لكن مُحيَّاه كان جامدًا كالخشب، وكان هذا أمرًا غريبًا بصورةٍ خاصة؛ باختصار، كان الرجل نموذجًا لمن يُطلَق عليهم «معتادو السجون». عرفت نوعيةَ الرجل من أول لمحة؛ إذ أصبحت «ملامح مسجون الأشغال الشاقة» ظاهرةً مألوفة لي. قال الرجل إنه يريد حلاقةَ ذقنه وتغيير تسريحة شَعره الرسمية بدرجةٍ مفرطة إلى تسريحةٍ أقلَّ بروزًا؛ وبينما كنتُ أقوم بعملي كان الرجل يتحدَّث على نحوٍ ودود.

قال الرجل: «لقد رأيتُ بولينسكي قبل أسبوع أو اثنَين.»

فقلت متسائلًا: «رأيته حقًّا؟»

«أجل. في سجن بورتلاند. لقد وقع في مشكلة كبيرة. حاول أن يذهب إلى المستوصف لكنه لم يتمكن من ذلك. (قد تحتاج إلى معرفة أن «المستوصف» هو عيادة السجن.) أدركوا أنه يتمارَض. هذا هو أسلوب أولئك الأجانب الملاعين.»

«لم يستطِع خداع الطبيب إذن؟»

«كلَّا، لم يستطِع! لقد رأى الطبيب هذا النوع من الرجال من قبل. قال بولينسكي إنه يُعاني ألمًا في مَعدته، فقال الطبيب لا بد أن هذا بسبب حميَّتِه الغذائية الغنيَّة بالطعام، فقلَّل نصف حصته منه. صدِّقني، كان بولينسكي نادمًا على أنه تحدَّث.»

هنا، ولما أظهر زبوني رغبةً في الابتسام، أزحتُ شفرة الحلاقة لأسمح له بفعل ذلك. ثم استطرد هو قائلًا:

«أعرف هذا المنزل منذ سنواتٍ طويلة، قبل أن يأتي بولينسكي إليه، حين كان دردلر العجوز يملكه. اعتاد دردلر القيام بأنشطته في الطابق الثاني، وكنت أنا واثنان آخران من الصِّبية نعمل لصالحه — كنا نُخبِّئ البضائع المُزيفة كما تعلم. كان دردلر رجلًا ماكرًا وفذًّا بحق. كان هو مَن صنع ذلك الباب المنزلق في الجدار في واجهة الطابق الثاني.»

وهنا انتبهتُ بشدة لحديثه هذا. «باب منزلق؟ في هذا المنزل؟»

فصاح زبوني: «يا للعجب! أتريد أن تقول لي إنك لا تعرف بأمر هذا الباب؟»

أكدتُ بشدة للرجل بأنني لم أسمع به من قبل.

فغمغم قائلًا: «لا بأس، لا بأس. هذا الباب نافع جدًّا. اعتاد دردلر أن يحتفظ بأشكال تصميماته وبقية أشيائه بالأعلى، ثم وحين تكون هناك حملةٌ من رجال الشرطة، كان يُمررها عبْر الباب إلى المنزل المجاور — كانت السيدة جاكوب تستأجر الغرفة بالمنزل المجاور — ثم تأتي الشرطة ويُفتِّشون المكان، لكنهم بالطبع لا يجدون شيئًا. كان الباب يُمثِّل طريقةً منتظمة لخداع الشرطة. ويكون نافعًا أيضًا حين تكون مطاردًا. إذ يُمكنك اجتيازُ المحل وصعود الطابق الثاني وتجاوز الباب ثم تهبط الدَّرج بالمنزل المجاور وتخرج إلى الشارع عبْر الباحة الخلفية. لقد فعلتها بنفسي. مَن يستأجر واجهة الطابق الثاني الآن؟»

أجبته: «أنا. أنا أستأجر المنزل بأكمله.»

صاح صاحبنا الذي عرفت أنَّ اسمه تاولر: «بحق السماء! أنت ميسور الحال كثيرًا. أتريدني أن أريك هذا الباب؟»

عبَّرتُ عن سروري كثيرًا بذلك، ومن ثمَّ حين انتهَينا من الحلاقة والتشذيب، وخبَّأت أنا عينةً من شَعر السيد تاولر من أجل فحصها لاحقًا، صعدنا إلى واجهة الطابق الثاني وأراني هو الباب الخفي.

«إنه في هذا الدولاب، تحت صفِّ المشاجِب هذا. هذا المِشجب الجانبي هو المقبض. تمسك به هكذا، ثم تسحبه جهة اليمين.» كان فِعله يُساير قوله، وقد انزلق الثلث الأوسط من ظهر الدولاب نحو اليمين محدثًا صريرًا مرتفعًا، فظهرت فتحةٌ مربَّعة أبعادها قرابة ثلاث أقدام، خلفها كان ثمة لوح صلب المظهر به مِقبض صغير على الجانب الأيسر منه.

همس تاولر قائلًا: «هذا هو الجزء الخلفي من دولاب في المنزل المجاور. لو سحبت هذا المقبض نحو اليمين، فسينزلق الباب مثلما انزلق هذا. لكنني أعتقد أن هناك أحدًا في الغرفة المجاورة.»

كافأت السيد تاولر بنصف سفرن، وقد عدَّ هذا جُودًا كبيرًا من جانبي، ثم رحل وهو جذِل. بعد ذلك بفترةٍ قصيرة عرفت أنه «قُبض عليه ويقضي عقوبة» لعلاقته بـ «عملية» وقعت في كامبرويل؛ ثم اختفى الرجل تمامًا. لكنني لم أنسَ أمرَ الباب الجرَّار. لم يكن هناك استخدامٌ بعينِه يلوح أمامي، لكن الإمكانات التي يُمثِّلها الباب كانت واضحةً جدًّا حتى إنني قرَّرتُ أن أُبقيَ انتباهي الشديد على واجهة الطابق الثاني للمنزل المجاور.

ولم أُضطر إلى الانتظار كثيرًا. إذ سرعان ما أصبح الطابق بأكمله معروضًا للإيجار بفعل بطاقة عُلِّقت على الباب الأمامي، واستغللتُ أنا فرصةَ هدوء يوم الأحد لأستكشف المكان وأقوم بالترتيبات اللازمة. فتحتُ الباب المُنزلِق من جهتي ثم سحبتُ المقبض الثاني وفتحت الباب الآخر. أحدث كِلا البابَين صوتًا مرتفعًا لدى انزلاقهما وكانا يتطلَّبان رعايةً متأنِّية. دلفتُ عبْر الفتحة المربَّعة إلى الغرفة الخالية ونظرتُ في أرجائها، لكن لم يكن هناك الكثير، وإن كان المكان يعجُّ بالكثير من الروائح، ذلك أن النوافذ كانت مُغلقة بإحكام وفي مكان المدفأة كان ثمَّة موقد مُغلق يمنع أي إمكانية للتهوية. كان المكان لا يزال يعبق برائحة المستأجِرين السابقِين.

عدتُ من خلال الفتحة وشرعتُ في عملي. في البداية، نظَّفت بفرشاة خشنة حزوزَ البابَين من الأعلى ومن الأسفل. ثم طليتُ كلَّ حزٍّ بطبقةٍ سميكة من الطلاء المُكوَّن من الشحم والرصاص الأسود بعد أن خلطتُهما معًا وسخَّنتهما. وبتحريك الألواح للأمام والخلف مراتٍ كثيرة، توزَّع المُزلِّق وأصبح الرصاص الأسود يلمع حتى إنَّ الأبواب صارت تنزلق من دون أي صوت وبسهولة تامة. وكنتُ راضيًا بالنتيجة التي وصلت إليها حتى إنني فكَّرتُ في استئجار الغرفة بالمنزل المجاور، لكن قد يتسبَّب هذا في إثارة الشكوك — حيث إنني أملك بالفعل منزلًا كاملًا — فأحجمتُ عن ذلك؛ وبعد فترة قصيرة استأجرَت الطابَق أسرةٌ يهودية بولندية زادت من دخلِها عن طريق تأجير جزء من الطابق تأجيرًا مفروشًا.

والآن أتخطَّى فترةً من الوقت وأتطرَّق إلى ملابسات إحدى أكثر تجاربي حماسةً وإثارةً للاهتمام. في ذلك الوقت كان ثمَّة نغل ميكانيكي ابتكر المُسدس ذا المشط الأوتوماتيكي، ومن ثمَّ أتاح نوعيةً جديدة ورديئة من الإجرام. ولم يمرَّ وقت طويل حتى قام أحد المُجرمين باستخدام السلاح. مشهد الظهور الأول هو توتنهام، حين حاول اثنان من الروس البولنديين تنفيذَ عملية سرقةٍ غبية في الشارع وأخفقا. جرَت محاولة السرقة في وضح النهار وفي الشارع، وبعد أن أخفق النذلان، هربا وهما يُطلقان النار على كل إنسانٍ يلقيانه. في نهاية المطاف وقعا كلاهما قتلى — وكان أحدهما قد قتل نفسه — لكن بعد أن قَتلا شرطيًّا شجاعًا وطفلًا صغيرًا مسكينًا وجرَحا ما يربو عن اثنَين وعشرين شخصًا.

قرأت تفاصيل الأمر في الجريدة باهتمامٍ بالِغ وكان لديَّ قناعة بأن هذه ما هي إلا بداية. كان هذان الفاسدان المَسعوران ينتمِيان إلى نوعيةٍ من المُجرمين شائعة كثيرًا؛ نوعية المُجرمين السلافيِّين الذين لا يتمتَّعون بالعقل بما يكفي لأن يأخذوا حِيطتهم ولا بشجاعة

كافيةٍ لتحمُّل تبِعات النزاعات المسلحة. كنت أشعر بثقةٍ تامة أن المُسدس الأوتوماتيكي سيُخرج النذل إلى العلن؛ ولم أكن مخطئًا.

فذاتَ ليلة، لدى عودتي من جولةٍ للتفتيش عنه، قابلتُ حشدًا صغيرًا مضطربًا يرافِق ثلاثًا من عربات الإسعاف الخاصة بالشرطة. التحقتُ بالجمع وسرعان ما انعطفنا إلى طريقٍ عامٍّ صغير ومسدود وجدْنا فيه حشدًا صغيرًا آخرَ يبدو عليهم الاضطرابُ، وبعضَ رجال الشرطة المُرتبكِين. وكانت هناك عدة نوافذ مهشَّمة، وعلى الأرض ترقد ثلاثة أجساد. كان أحدهم ميتًا، والآخران مُصابين بإصاباتٍ بالغة، وكان ثلاثتهم أعضاءً في القوة الشرطية.

شاهدت سيارات الإسعاف وهي تُغادر حاملةً الضحايا، ثم التفتُّ لأسأل عن المعلومات من أحد المارَّة. لم يكن يعرف الكثير، لكن فحوى قصته — التي أكَّدتها الجرائد بعد ذلك — كان كالآتي: حدَّدت الشرطة موقعَ عصابة من اللصوص المُشتبه بهم، وأتى ثلاثة رجال شرطة إلى المنزل لإلقاء القبض عليهم. طرق رجال الشرطة البابَ الذي انفتح لهم بعد برهةٍ قصيرة. ثم أطلق أحدُ مَن كانوا بداخل المنزل النارَ على الفور على شرطي من الثلاثة فقتلَه، وهُرعت العصابة بالكامل وكانوا أربعةً أو خمسة إلى الخارج وهم يُطلقون النار على رَجُلي الشرطة الآخرَين من المسافة صفر، ثم جرَوا في الشارع وهم يُطلقون النار في جميع الاتجاهات كالمجانين. أصيب عددٌ من الناس، ومما يؤلِم أن عصابة الأوغاد بكاملها استطاعت الهروب في الأحياء الفقيرة المُحيطة.

كنت مهتمًّا للغاية بهذا الأمر وأشعر حتى بالإثارة لعدة أسباب. في المقام الأول، المجرمون الذين حدَّد سِماتهم لومبروسو يُوجدون هنا في نهاية المطاف، أولئك المجانين الأدنى من البشر، الفارغون من كل إدراكٍ ومن أدنى بصيصٍ للحسِّ الأخلاقي، الذين لا يصلحون لشيءٍ إلا لغرفة الإعدام بالغاز؛ والذين يبدو «معتادو الإجرام» الإنجليزُ بالنسبة لهم رجالًا نُبلاء متحضِّرين. من دون وجود عينةٍ أو اثنتَين من هذه النوعية، لن تكتمِل مجموعتي. ثم يأتي أمرُ قابلية التطبيق الواضحة لطرائقي على هذه الفئة من الجناة الآثمين؛ طرائق الاجتثاث الهادئة التي لا تتسبَّب في جلبة أو فوضى عامة ولا تنطوي على مجازفةٍ بالأرواح الغالية لرجال الشرطة. لكن وفيما يتجاوز هذه الأسباب، كان هناك سبب آخر لاهتمامي. كانت جريمة قتْل زوجتي جريمةً لا غايةَ من ورائها ولا ضرورةَ للقيام بها، ارتكبها نذل خسيس ينظر لحياة البشر على أنها شيء ليس له وزن أو قيمة. وكان ثمَّة تشابُهٌ في الملابسات التي بدت أنها تربط تلك الجريمة بهذا النوع من المُجرمين.

بل كان من الممكن حتى أن يكون أحد أولئك الأوغاد هو الشخص الذي أسعى خلفه منذ وقتٍ طويل.

خلقَت تلك الفكرة بداخلي روحًا جديدة من الحماس. فرُحت على الفور أتتبَّع المسار المُحتمَل لأولئك الهاربين، فجُلت بأعدادٍ لا تُحصى من الشوارع والأزقة، وكنت أُمعِن النظر في الأفنية البائسة، فكان الكثير من المُتسكعين ذوي المظهر المثير للريبة يجرون ويختبئون عند أقرب زاوية. بالطبع كان بحثي غير مُثمر. إذ لم يكن معي أيُّ دليلٍ ولم أكن حتى أعرف أولئك الرجال. كنت أُبدِّد انفعالي واهتياجي بالمشي.

رغم ذلك، وفي كل ليلةٍ بعد أن أُغلق محلي، كنت أنطلق في رحلة استكشافية، مدفوعًا بكمٍّ هائل من الضجر ونفاد الصبر؛ وفي أثناء النهار كنت أستمع باهتمامٍ إلى أحاديث زبائني باللغة اليديشية — وهي لُغة من المُفترَض أنني كنتُ جاهلًا بها تمامًا. لكنني لم أصِل إلى شيءٍ ولم أعرف شيئًا. فإما أن الهاربين كانوا مجهولين، أو أن التكتُّم الطبيعي الذي يتَّبِعه سكان المجتمع المحلي الأغراب هؤلاء يمنع أيَّ إشارةٍ إليهم، حتى ولو كانت فيما بينهم؛ وفي تلك الأثناء وكما ذكرت، كنت أجول بالشوارع كل ليلةٍ وحتى ساعات الصباح الباكر.

وذات ليلة، ولدى عودتي من واحدة من تلك الرحلات الاستكشافية في وقتٍ أبكرَ من المعتاد، وجدتُ مجموعة صغيرة من رجال الشرطة وحَفنة من العاطِلين مجتمِعين أمام المنزل المجاور لي. لم يكن هناك حاجة لأسأل عمَّا يحدث. كان اضطراب رجال الشرطة الملجوم ومُسدساتهم الدوَّارة في أحزمتهم يَشِيان بالقصة كلها. ستحدث مجزرة أخرى؛ وعلى الأرجح أني تأخَّرت على لعب أي دورٍ سوى دور المتفرج.

كان باب الشارع مفتوحًا ويتم إخلاء المنزل بهدوءٍ من ساكنيه من البشر. خرج السكان واحدًا تلوَ الآخر وهم يرتجفون ويتذمَّرون ومعهم أشياء صغيرة هي ممتلكاتهم التي تمكَّنوا من جمعها على عجل، واجتمعوا في مجموعةٍ صغيرة وبائسة على الرصيف. ففتحت باب محلي ودعوتهم ليدخلوا ويستريحوا بينما ذهب رسلٌ لهم يبحثون عن مأوًى لهم؛ لكنني ظللتُ بالخارج لأرى ما سيُثمر عنه الأمر.

وحين خرج آخر المُستأجرين، برز رقيب شرطة وأغلق باب الشارع بهدوء. أما بقيةُ رجال الشرطة فاتخذوا مواضعَ تُئويهم عند أبواب البيوت بعد تحذير المتفرجين أن يتفرقوا، ثم التفتَ إليَّ الرقيب.

وقال: «والآن يا سيد فوسبر، من الأفضل أن تبقى بالداخل إن كنتَ لا تريد أن تتعرض لإصابة. الأمور على وشْك أن تسوء.» ثم دفعني برفقٍ إلى داخل المحل وأغلق الباب.

وجدتُ المستأجِرين الذين تم إخلاؤهم يتحدَّثون وهم مُضطربون وكانوا في غاية التعاسة. لكنهم لم يكونوا متمردين. كان معظمهم من اليهود، واليهود شعبٌ حمول ومُستكين. فغليتُ بعض الماء في الإبريق الصغير الخاص بي وصنعتُ لهم قهوة — تناولوها شاكِرين — في أقداح الحلاقة؛ حيث كانت الآنية الفخارية التي أملكها محدودةً للغاية. وفي غضون ذلك أخذوا يُثرثرون وأخذتُ أنا أستمع.

قالت سيدة يهودية عجوز بلكنة يديشية: «أتساءل كيف عرفَت الشرطة أن هؤلاء الرجال يسكنون لديَّ. لا بد أن أحدًا قد أخبرهم بذلك.»

قال أحد المُستأجرين المُبعَدين وكانت مهنته تُثار حولها الشكوك: «أجل، لا بد أن أحد جواسيس الشرطة أوشى بهم. لا بأس بهذا. ليس من الصواب أن تُطلَق النار على الشرطة بهذا الشكل. فللشرطة عملٌ ينبغي لهم القيام به، مثلنا تمامًا. أنتِ تعرفين هذا يا سيدة كوسمنسكي، أليس كذلك؟»

قالت المرأة اليهودية: «بلى، هذا صحيح؛ لكن كان بإمكانهم السماح لي بأخذ أشيائي. غدًا هي ليلة الألعاب النارية. والآن خسرتُ أنا أموالي.»

فسألتها: «كيف ذلك سيدة كوسمنسكي؟»

«لأنني لن أتمكَّن من بيع تلك الأشياء التي اشتريتُها لأجل ليلة الألعاب النارية، الألعاب النارية والأقنعة والخشخيشات وأشياء أخرى للأطفال. لقد أنفقت عليها خمسةً وعشرين شلنًا. إنها في حجرتي بالطابق الثاني. طلبتُ من الشرطة أن أحضرها لكنهم رفضوا؛ لأنني بذلك سأُنبِّه الرجال في الحجرة الأمامية. لذا سأخسر أموالي لأنني لن أتمكن من بيعها.» وهنا انفجرت المرأة التعيسة الحظ في البكاء وتأثرتُ أنا كثيرًا بمحنتها حتى إنني عرضتُ على الفور أن أشتري كل شيء مقابل جنيهين، ولمَّا سمِعَت ذلك أخذت تنوح وتبكي أكثر، لكنها أخذت الثَّمن بسرعةٍ وتأهُّب ودسَّته في جيب داخلي عميق، وأظهَرَت وهي تدسُّ المال طبقاتٍ كثيرة للغاية من الملابس فكانت تبدو كماسحة قلمٍ عتيقةِ الطراز.

«آهٍ يا سيد فوسبر! أنت كريم للغاية مع كل المساكين، رغم أنك أنت أيضًا مسكين. لكنَّ المساكين هم أصدقاء المساكين»، وفي عرفانها هذا كانت على وشْك أن تُقبِّل يديَّ لولا أنني حرصت على دسِّها في جيبَي بنطالي.

وجاء رسول يقول إنهم وجدوا مأوًى لهم يُئْويهم في هذه الليلة، فرحل ضيوفي وهم يشكرونني كثيرًا ويدعون لي. ولَمَّا نظرتُ إلى الشارع، بدا هادئًا ومهجورًا عدا من رجل أو رجلَي شرطة طوَّافين، كان من الواضح أنهما سئما الاختباء في أماكنهما فقرَّرا الخروج والطواف خِلسة. لم أمكث لأراقبهما؛ لأن تعليق السيدة كوسمنسكي أطلق في ذهني سلسلةً من الأفكار التي يجِب تنفيذها على وجه السرعة. من ثَمَّ دخلت ورُحت أجول بالمحلِّ الفارغ.

كنت أعتقد أن الشرطة تنتظر ضوءَ النهار من أجل مهاجمة المنزل. كانت تلك فكرةً مجنونة لكنني كنتُ مقتنعًا أنهم لا يملكون خطةً غير هذه. وحين يدخلون إلى المنزل في مواجهة وابل من طلقات تلك المُسدسات الأوتوماتيكية، ستصير مذبحة هائلة! كان من المريع تصوُّر الأمر. لماذا يسمح القانون بتصنيع وبيع هذه الأدوات الوضيعة والجديرة بالازدراء؟ إن المُسدس هو السلاح الوحيد الذي ليس له استخدام مشروع. فالفئوس والسكاكين — وحتى البنادق، كلها أسلحة لها وظائف مشروعة. بيْدَ أن المسدس أداة تُستخدَم لقتل البشر. وليس له أي استخدامٍ آخر. إننا حين نجد أدواتٍ لاقتحام المنازل في منزل أحدهم فإننا نعتبر أنه لص. وبالتأكيد حين نجد رجلًا يحمل مُسدسًا فإنه يُدين نفسه بنيَّةِ قتلِ أحدهم.

لكن ربما كانت هناك خطةٌ معقولة أخرى تتَّبِعها الشرطة. كان هذا أمرًا ممكنًا، لكنه بعيدُ الاحتمال. إن رجل الشرطة البريطاني رجل رائع، فهو مِقدام كالأسد وعلى استعدادٍ لأن يسير إلى داخل فوَّهةٍ من الجحيم إذا ما اقتضى الواجب. لكن ينقُصه الوعي التكتيكي. وتكاد شجاعته نفسُها تنقلِب عيبًا، مما يجعله مُستهترًا بتوخِّي الحذَر اللازم. شعرتُ أن حُماتنا سيضحُّون بأنفسهم مرةً أخرى في مواجهة هؤلاء المَقيتين. وكان هذا أمرًا شاقًّا ومفزعًا. فهذه خسارة فظيعة للأرواح الغالية. ألا يمكن فِعل أي شيءٍ لمنع وقوع هذا؟

طبقًا لكلام السيدة كوسمنسكي، فإن «الرجال» كانوا في واجهة الطابق الثاني — في تلك الحجرة التي بها الباب المُنزلق. إذن يُمكنني على الأقل أن أراقبهم. سرتُ ببطءٍ إلى الطابق العلوي وأنا أصِرُّ على أسناني من شدة الغيظ والانزعاج. هذه التضحية غير ضرورية بالمرة. يُمكنني التفكير في عدة طرائق للتخلُّص من هؤلاء الصعاليك من دون المُخاطرة ولو بشعرةٍ واحدة من رأس إنسانٍ محترم. وها هم أولاء رجال الشرطة تحت تصرُّفهم كلُّ الموارد العلمية وفترة غير محدودة من الوقت ليعملوا على خُطتهم لكنهم يفكِّرون في القتال مع وجود كل هذه الاحتمالات ضدَّهم!

تسلَّلتُ إلى واجهة الطابق الثاني وباستخدام ضوءٍ من عود ثقاب، وجدت الدولاب. انزلق اللوح الداخلي — وهو الاسم الذي سأُطلقه على اللوح الذي من جهتي — من دون أي صوت. لم يَعُد الآن بيني وبين الغرفة المجاورة سوى اللوح الثاني، وقد تمكَّنت من سماعِ غمغمةِ مَن بالغرفة وصوتِ تحركاتهم بوضوح. لكنني لم أستطِع أن أُميِّز ما يقولون؛ وحيث كان سماعي لما يقولون مُهمًّا للغاية، فقد قررتُ فتْحَ اللوح الثاني. فأمسكت بالِمقبض وسحبته بإحكام وبالتدريج، وشعرت باللوح ينزلق في صمتٍ تقريبًا لبضع بوصات. على الفور أصبحَتِ الأصوات مُميَّزة وواضحة، كما أتت هبَّة هواء كريه وخانق عبر الفتحة، وتسرَّب شيءٌ من الضوء؛ فعرفتُ أن الدولاب من جهتهم مفتوح بصورة جزئية على الأقل.

جاء صوت أحدهم يقول بالروسية: «اسمع يا بيراجوف، لا داعيَ لهذا القلق. الشرطة تبحث عنا، لكنهم لا يعرفون شكل أي أحدٍ منَّا. يُمكننا المغادرة بأمان.»

فأجابه شخص آخر، وعلى الأرجح أنه كان صوت بيراجوف: «لستُ واثقًا تمامًا. قد يبوح ذلك الغبي الذي أجَّر لنا المنزل بالمزيد؛ ومَن يدري، بعض قومِنا قد يخونوننا. وأظنُّ أن تلك المرأة المدعوة كوسمنسكي نظرت إلينا نظراتٍ مُريبة.»

فصاح الآخر: «هراء! تعالَ واستلقِ يا بيراجوف. سنُغادر هذا المكان غدًا ونتفرَّق. وسنغيب لبعض الوقت حتى ينسَوا أمرنا. ضعْ مزيدًا من فحم الكوك في الموقد ودعنا نخلد إلى النوم.»

أتعجَّب بشدةٍ من مجموعة العوامل التي تُفضي إلى تطوُّر سببية الأحداث. تلك الكلمات الأخيرة التي نطق بها الشرير المجهول بدَت طفيفةً ولا يُؤبه لها؛ ومع ذلك، شكَّلت إطار شهادة وفاته. أنا نفسي لم أُدرك هذا بالشكل الكامل في حينها. فبينما أغلقتُ اللوح المنزلق وتراجعت، كنتُ مُدركًا أن سلسلةً من الأفكار النافعة كانت قد بدأت تنطلِق في ذهني. «ضعْ مزيدًا من فحم الكوك في الموقد ودعنا نخلد إلى النوم.» أجل؛ كانت هناك صلة واضحة بين فكرة «الموقد» وفكرة «النوم»، النوم الأبدي. هناك يكمُن حلُّ المشكلة.

نزلت الدَّرج ببطءٍ وأنا أتتبَّع الصِّلة بين فكرتَي «الموقد» و«النوم». كان الهواء المُثير للغثيان الذي تسرَّب من الغرفة المجاورة يُشير بإشاراتٍ واضحة إلى النوافذ الموصدة والتهوية المُنعدِمة. وكانت الليلة شديدة البرودة والقتلة يَقشعرُّون من البرد. من شأن تيار هوائي خلفي في ماسورة الموقد أن يملأ الحجرة بالغازات السامَّة ومن ثمَّ يختنق هؤلاء الأوغاد ببطءٍ وهدوء. لكن كيف سأفعل هذا؟ فكَّرتُ لحظةً في التسلُّق إلى السطح وسدِّ

المِدخنة من الأعلى. لكن كانت هذه خطة سيئة. إذ قد يراني رجال الشرطة ويرتكبون خطأً فادحًا بمُسدساتهم الدوَّارة. هذا بالإضافة إلى أن هذه الخطة ستفشل على الأرجح. فتوقُّف التيار الهوائي قد يُطفئ النار وتُنبِّه أبخرة الفحم الحادة أولئك الأشرارَ إلى الخطر الذي يُداهمهم. أخذت أتتبَّع سلسلة الأفكار وأنا أدلف إلى حجرة النوم وأُشعل المصباح الغازي؛ والتفتُّ أنظر في أرجاء الغرفة؛ ثم فجأةً وجدتُ حلَّ المشكلة.

في المدفأة كان ثمَّة موقد نحاسي صغير روسي الصنع؛ مجرَّد موقد صغير، أصغر من أن يحترق فيه أي شيءٍ سوى الفحم النباتي؛ لكني كنتُ قد اشتريتُ الفحم النباتي ووضعتُه فيه حيث إن الحصول عليه في شرق لندن كان أمرًا يسيرًا. حين تكون الحجرة جيدةَ التهوية، يكون استعمال هذا الفحم آمنًا تمامًا، وإلا فإنه يكون في غاية الخطورة؛ لأن أبخرة الفحم النباتي لا تُقدِّم أيَّ تحذير، فهي تتكوَّن من غاز ثاني أكسيد كربون خالصٍ وهو عمليًّا عديم الرائحة.

كانت خُطتي الآن واضحة تمامًا. كان الموقد له مقابض مصنوعة من الأسبستوس؛ وكان ثمة صندوق من الفحم النباتي بالقُرب من المدفأة، وفي الزاوية كان ثمة قطعة طويلة إضافية من ماسورة الموقد لم أكن أجد لها استخدامًا. صرتُ الآن أعرف فيمَ سأستخدِمها.

أوقدتُ الفحمَ النباتي في الموقد، وبينما هو يَحمَى، حملتُ قطعةَ ماسورة الموقد وصندوق الفحم إلى الطابق العلوي. ثم عُدت إلى الموقد، وكان الفحم النباتي الآن قد بدأ يتوهَّج. ثبتُّ قطعة الماسورة الإضافية ومددتُ يدي أتحسَّس دفق الهواء الساخن — أو بالأحرى دفق غاز ثاني أكسيد الكربون الساخن — وهو ينبعث من الفوَّهة. وضعتُ قطعةَ الماسورة أمام الفتحة ووجدت أنها ستُصبح ثابتة عند الحافة السفلية؛ ثم وبحذرٍ وبطءٍ شديدَين، سحبتُ اللوحَ المنزلق قرابة ستِّ بوصات. كان الأشرار لا يزالون يتنازعون على الموضوع نفسه؛ لأنني سمعت أحدهم يصيح:

«لا تكن أحمقَ يا بيراجوف. ستجذب الانتباهَ إلينا وحسب إن أنت أحدثتَ جلبة بالطابق السفلي.»

فكانت إجابته: «لا أعبأ؛ إنني قلق. لا بد أن أنزل وأرى أن كل شيءٍ هادئ قبل أن أخلد إلى النوم.» وهنا توقَّف الجدال بسبب صوت انفتاح الباب ثم انغلاقه، عدا سيلٍ من السِّباب واللعنات أطلقه الشخصان الآخران الباقِيان في الغرفة. لكن في غضون لحظاتٍ قليلة انفتح الباب بقوة وصاح بيراجوف:

«اخرُجا الآن! اخرُجا على الفور! المنزل فارغ! لقد تعرَّضنا للغدر.»

صاح الرجلان من الفزع استجابةً لذلك. إذ انفجرا في فورة هي مزيج من النحيب واللعن، وسمعتهما يتحركان في أرجاء الغرفة باهتياجٍ في خضم فورة الرعب التي تملَّكتْهما.

كرَّر بيراجوف يقول: «هيا! سنقتلهم جميعًا! سنقتل أولئك الخنازير، سنقتلهم جميعًا! سيتمكَّن بعضنا من النجاة. هيا!»

فقال أحد رفاقه مُتذمِّرًا: «ليس هناك طائل يا بيراجوف. إنهم في داخل المنزل. إنه كمين.»

صاح الرجل الثالث: «أجل، الأمور كما يقول بوريس. المنزل مُظلم وهم مختبئون بالداخل. أَوصدِ الباب ودعْهم يأتون إلينا؛ حينها سنقتُلهم — سنُبيدهم! — سنُهلكهم! — سنُدمرهم!» وانتهى الرجل إلى صيحةٍ حادة وفورة من النحيب الهيستيري.

فقال بيراجوف: «سأهرب أنا. هناك فرصة للهرب.»

صاح به الآخر: «ليس ثمة فرصة. عُد أيها المجنون!»

ثم أُغلِق الباب بقوة، وجاء صوت استدارة المفتاح في قُفله وصوت انغلاق ترباس ثقيل. فأغلقتُ اللوح المنزلق بهدوء وجريتُ إلى النافذة المفتوحة بالحجرة الأمامية من الطابق الأول.

بدا الشارع فارغًا إلا من رَجُلَي الشرطة اللذَين وقفا عند زاويةٍ ما يحدِّثُ أحدهما الآخرَ بنبرةٍ خفيضة. أطبقَ على المكان صمتٌ ثقيل — صمت غير عاديٍّ كما بدا! — برزت منه غمغمةُ رَجلَي الشرطة لا تكاد تُسمع. نظرت إلى الخارج في قلق وترقُّب، أنازع نفسي إن كان عليَّ أن أُحذِّر هذَين الحارسين الغافلَين حتى ولو على حساب إفشال خُططي. فجأة رنَّ صوت طلقتَين في تتابُع سريع من الأسفل؛ فسقط كِلا رَجلي الشرطة، ثم اندفع شخصٌ خارج الباب وأخذ يجري في الشارع كالمجنون.

رقد أحد رَجُلَي الشرطة جثةً هامدة؛ أما الآخر فأمسك بفخذه بإحدى يدَيه وبالأخرى أخذ يُطلق النار مرارًا من مُسدَّسه الدوار على القاتل الهارب، لكن بدا أن كل الطلقات أخطأته. وفي غضون ثوانٍ جاء رقيب ورَجل شرطة آخران يُهرعان عند الزاوية، وانطلقت صافرات الشرطة مطلقةً التحذيرات في كل الاتجاهات؛ وتلاشى الصمت الذي كان يُطبِق على المكان وأفسح المجال أمام ضجيجٍ وجلبة كبيرَين. لكن بيراجوف كان قد استدار عند مُنعطفٍ ما قبل أن يصل الرقيب، واستنتجتُ من الصخب المُستمر للصفارات أن القاتل

تمكَّن من الهرب في الوقت الراهن على الأقل. فأشحتُ بوجهي عن النافذة. تفلَّت بيراجوف من يدي، وشعرتُ مما رأيت بضرورةٍ مُلحَّة لمنع المزيد من سفك الدماء.

ولَمَّا فتحتُ اللوح المُنزلق مرة أخرى، جاءني صوتا الصعلوكين بالداخل حامِلَين مزيجًا غريبًا وبشعًا من اللعنات والسبِّ والنحيب الهستيري. كانا يَسُبَّان بيراجوف والشرطة ويكيلان اللعنات وأماني الموت لكل رجلٍ وامرأة وطفل في هذه الأمة من الخنازير؛ وبين سِبابهما ولعنهما كانا ينتحِبان ويتحسَّران. كنتُ قد أغلقت خانقَ هواء الموقد قبل أن أنزل إلى الأسفل، لكنَّ الفحم النباتي كان لا يزال مشتعلًا وإن كان بدرجةٍ طفيفة. فوضعت الموقد في مكانه وأرخيتُ الماسورة الطويلة على الحافة السفلية للفتحة بحيث يكون طرفها موجَّهًا إلى داخل الغرفة المجاورة ببضع بوصات؛ كنتُ أتحرك في صمتٍ تامٍّ وقد ساعدتني الجلبة بالخارج والضوضاء التي يُحدِثها الشرِّيران الجبانان. وحين أتممتُ الأمر، فتحت خانق الهواء فشعرتُ على الفور لَمَّا وضعت يدي على فوَّهة الماسورة بتيارٍ قوي من الغاز الساخن يخرج. سيبرد هذا الغاز بسرعةٍ حين يختلط بالهواء البارد، ثم سينزل إلى الأرض ويجتمع عليها بفعل ثقله.

كان جهازي الآن يعمل كاملًا، وليس أمامي فِعل شيء سوى الانتظار. خبَت الضوضاء في الشارع قليلًا، لكنَّ الجبانَين لم يُظهِرا أيَّ إشارة على أنها سيهدآن. كانا مشغولَين الآن بتحصين الباب بحيث لا يمكن فتحه إلا لبضع بوصات؛ أي ما يتيح لهما إطلاقَ نيرانهما على مهاجميهما. كنتُ مَدينًا لهما كثيرًا. فحركاتهما ستساعد في نشر الغاز ومنعه من الاستقرار بكثافةٍ على الأرض. كما أن الجهد الذي سيبذلانه سيجعلهما يتنفَّسان بعُمق أكثرَ ومن ثمَّ يقعان بسرعةٍ أكبر تحت تأثير السُّم.

مرَّ الوقت ببطءٍ؛ ولم يصدُر عن رجال الشرطة أيُّ إشارة؛ واستراح القاتلان من عملهما الجهيد، فكانا في بعض الأحيان يتحدَّثان بحماس، وفي بعض الأحيان يصمتان دقائقَ طويلة، وفي أحيانٍ أخرى يتثاءبان بشدة وكثرة. وطَوال هذا الوقت كان التيار غير المرئي للغاز الثقيل والمُميت يتدفَّق من ماسورة الموقد ويتسرَّب خفيةً على الأرض. من المُفترَض أن يكون الغاز الآن قد شكَّل دوَّامة عند أقدام هذين القاتلَين وفي طريق صعوده إلى الأعلى. ليت رجال الشرطة يظلُّون ساكنِين ساعةً أو اثنتَين أخريَين، حينها سيكون الخطر قد زال.

مرَّت ساعات الليل الشتوية ثقيلةً وبطيئة. لكنها لم تصبني بالسَّأم. لأنني كنت أكاد أقف على أطراف أصابعي من الترقُّب وأنا ساهر بالقرب من الماسورة وأُغذِّي الموقد بين

الحين والآخر. في كل لحظة تمرُّ كنت أخشى أن أسمع أصوات تكسير الباب الكارثية التي من شأنها أن تنذر بمجزرة جديدة؛ ومع مرور الدقائق وسكون كل شيء، أخذ الأمل يزداد بداخلي. في بعض الأحيان كنت ألمح طريدتَيَّ عبر الفتحة في باب دولابهما؛ لأنني كنتُ قد فتحت اللوح المُنزلق من جانبي مسافة قدم كاملة، وذلك حين وجدتُ أن الملابس المعلَّقة على الشماعات ستجعلني محجوبًا عنهما، حتى ولو لم تكن الظلمة التي من جهتي تُوفِّر لي هذا الحجاب. رأيتُ أحدهما يجلس على كرسي منخفض وينحني وهو يرتجف على موقد الفحم، في حين أخذ الآخر يطوف بالغرفة في قلق.

ظل تيار الغاز المُميت يتدفَّق دون توقُّف من الماسورة.

وبعد برهةٍ نهض الرجل الأول وتثاءب بشدة. وغمغم قائلًا: «سحقًا! لقد تعِبت. سأستلقي قليلًا. إن أخذني النوم يا بوريس، فهلَّا تتولَّى الحراسة وتُوقظني حين تسمعهم قادِمين.»

مددتُ عنقي عبر الفتحة فاستطعتُ أن أرى لمحةً من الرجل وهو يُلقي بنفسه على مرتبة على الأرض. واستمر الرجل الآخر يذرع الحجرة لبعض الوقت؛ ثم جلس على كرسي ومدَّ ذارعَيه نحو الموقد وهو يُغمغم في نفسه. أخذت أراقبه قدْر استطاعتي من خلال الفتحة في الدولاب بمساعدة الضوء الخافت الصادر من مصباح البارافين العطن؛ كان صعلوكًا بائسًا وشاحبًا وغثًّا وأشعثَ؛ وأخذتُ أفكِّر كم سيبدو لافتًا للنظر وهو في شكل مُستحضرٍ جافٍّ ومتقلِّص.

لكن كان هذا مُستحيلًا. كنت أعمل الآن لصالح الشرطة وحسب. وبقدْر ما يبدو الأمر باعثًا على الأسى، فإنَّ عليَّ أن أُسلِّم هاتَين العينتَين إلى الطبيب الشرعي وإلى التُّربي. هذا هدرٌ للمواد يبعث على الأسف، لكن لا يمكن تفاديه — حتى ولو ثبَت أن أحدهما هو عدوِّي اللدود الذي أبحث عنه منذ وقتٍ طويل.

جفلتُ لَمَّا واتتني هذه الفكرة؛ وفي تلك اللحظة أطلق الرجل الراقد على المرتبة نخرةً غريبة وحادة. فنظر برويس المجرم حوله ونهض من فوق الكرسي واتَّجه إلى المرتبة وحرَّك الرَّجُلَ الآخر بقدمِه. ثم صاح بغضب: «لويس! لويس! لماذا تصنع هذه الضوضاء؟»

نهض الرجل الآخر مترنحًا وهو يصيح من الرعب والمُسدس في يده. وقال: «آه! هذا أنت يا بوريس! كنت أحلُم. ظننتُ أنهم أتَوا.» ثم جلس على المرتبة وأخذ يتثاءب. وأضاف: «هراء! ما زلتُ أشعر بالنعاس. لا بد أن أستلقي مجددًا. تولَّ الحراسةَ لفترةٍ أطول يا بوريس.»

فصاح به بوريس: «ولماذا أتولَّى الحراسة؟ سيُحدِثون ما يكفي من الضوضاء لدى فتحهم هذا الباب. سأستلقي قليلًا أنا أيضًا.»

ثم ألقى بنفسه إلى جوار رفيقه، لكنه انتفض بعد دقيقةٍ أو اثنتَين وهو يشهق بعُمق. وصاح يقول: «يا إلهي! لا أستطيع التنفُّس وأنا راقد. أشعر وكأني سأختنق. وأنت أيضًا يا لويس؛ أنت تنخر كالخنازير. انهض يا رجل.»

ثم هزَّ الرجل المُمدَّد بخشونة، لكن لم يُثمر ذلك سوى إطلاق رفيقه بعضَ اللعنات الناعسة، فقام وعاود المشيَ في أرجاء الغرفة وهو قلِق. لكن لم يدُم ذلك وقتًا طويلًا. وعرفت من تكرار تثاؤبه أن الغاز قد أصبح في مجرى دمه بالفعل؛ وأشار الغطيط المُرتفع للرجل الآخر بوضوحٍ إلى حالة الهواء في الجزء السفلي من الغرفة. بعد وقتٍ قصير توقَّف بوريس عن مشيه في أرجاء الغرفة، وجلس إلى جوار الموقد وهو يُغمغم كما في السابق. ثم سرعان ما أخذ يُومئ؛ ثم كاد ينكبُّ على وجهه على الموقد. في نهاية المطاف قام الرجل متثاقلًا، وأخذ يترنَّح وهو يتَّجه إلى المرتبة وألقى بنفسه ثانيةً عليها.

اعتدلَتْ أنفاسي أكثرَ، رغم أن الغاز الآن كان قد انتشر جزئيًّا في الجزء الأعلى من الحجرة إلى نحو مستوى الفتحة وأخذ يتسرَّب عبْرها إلى جانبي من المكان. انتظرتُ دقيقةً أو اثنتَين وأنا أتسمَّع أنفاس المُجرمين وهي تزداد غطيطًا وتقطُّعًا، ثم وبعد أن عبَّأت الموقد، نزلتُ إلى الطابق الأول وجلست برهةً إلى جوار النافذة المفتوحة لأتنفَّس شيئًا من الهواء النقي.

كانت الأمور هادئة تمامًا في الشارع. لا شكَّ أن رجال الحراسة قد جاءهم دعم، لكنني لم أُعاين المكان. كما أنني لم أكن لأرى شيئًا في تلك الساعة من الصباح. وبينما أنا جالس إلى جوار النافذة، فكَّرتُ في الرجُلَين الراقدَين في تلك الغرفة المُهلكة. شعرتُ بالندم يعتصِر قلبي أن تضيع هاتان العينتان على العلم. لكن لم يكن هناك شيء يُمكنني فِعله. حتى لو كنتُ قد قررتُ أن أحصل عليهما، لم أكن سأستطيع فِعل ذلك، لأنني ومن سوء حظي كنتُ قد استنفدت البراميل وأغفلت الحصول على مخزونٍ جديد منها. علاوةً على ذلك، كانت الشرطة بالطبع تعلم بوجودهما في المكان.

استرحتُ نصفَ ساعة أو نحو ذلك، ثم صعدت إلى الطابق العلوي لأرى كيف تسير الأمور. لم يكن هناك ضوء يأتي الآن من الفتحة في الجدار؛ لأن مصباح البارافين كان إما قد انطفأ أو أن الغاز المُتراكم أخمد ناره. فرحتُ أُصغي باهتمام. كان هناك صوتُ دقَّات

معدنية مزعجة لساعةٍ أمريكية رخيصة يُمكنني سماعه بوضوح، بل كان الصوت جائرًا؛ وسوى ذلك، لم يكن هناك أي صوت يصدُر من حجرة الموت هذه.

فتحتُ اللوح المُنزلق وأزحت الملابس المُعلَّقة جانبًا ودلفتُ إلى الدولاب ثم فتحت الباب الآخر. وبفعل ضوء خافت يأتي من الشارع استطعتُ رؤيةَ المرتبة على الأرض وجُثتَين قاتمتَين مُمدَّدتَين عليها. اجتزتُ الغرفة بسرعة وأنا أتنفَّس بأقلِّ ما يُمكنني من هوائها الملوَّث الذي لا يُوصف، وأشعلت عودًا من أعواد ثقاب الشمع. اشتعل العود مضيئًا إضاءةً خافتة يَشوبها الدخان، لكنه أظهر لي جثتَي المُجرمَين ممدَّدتَين بوضعيةٍ مسترخية، وكان وجهاهما يحملان أمارات الغضب والشحوب. وحين أخفضت عود الثقاب تقلَّصت شعلتُه وتحوَّلت إلى اللون الأزرق، وعلى بُعد ثماني عشرة بوصة من الأرض، انطفأتِ الشُّعلة كأنما غُمس العود في الماء. لا بد أن الغاز الثقيل كان نقيًّا عند ذلك المستوى. كانت الغرفة أشبَهَ فعلًا بـ «كهف الكلاب».

انحنيتُ بسرعة وأنا أكتم أنفاسي ثم تحسَّست نبضَ الرجُلَين كليهما. كانت جثتاهما باردتَين ولم يكن بإمكاني الشعورُ بأي نبض. فهززتُهما بقوة، لكنني لم أفلح في استثارة أي استجابة. كانا مُرتخيَين وهامدَين، ولم يكن لديَّ أدنى شكٍّ أنهما قد فارقا الحياة. لقد أنجزتُ عملي. صار رجال الشرطة بأمانٍ الآن بغضِّ النظر عن الحماقات التي يمكن أن يرتكبوها؛ ولم يتبقَّ لي سوى إزالة آثار العرَّابة التي كدحَت طوال الليل لتُنقذهم من فداحة بسالتهم الفياضة.

وبعد أن عُدت أدراجي واجتزتُ الفتحة في الجدار، أزلت الماسورة التي أصبح وجودها الآن غيرَ ضروري، وأغلقتُ اللوحَين المنزلقَين، وحملت الموقد الصغير معي إلى حجرة نومي. ونظرتُ إلى الفِراش المرتَّب — وهو الجماد والشاهد البليغ على أنشطة ليلة أمس — فقررتُ كإجراءٍ تحوُّطي أن أضفيَ عليه مظهرًا يدلُّ وكأنَّ أحدهم نام عليه، فخلعتُ حذائي وانسللتُ بين الأغطية. لكنني لم أكن أشعر بالنُّعاس ولو بدرجة بسيطة. بل على العكس تمامًا. كنت أشعر بحماسٍ شديد لأرى نهاية العرض الكوميدي الذي اضطلعت فيه بالدور الرئيسي من دون عِلم أحد؛ ومن ثمَّ وبعد أن أخذتُ أتقلَّب على الفراش بضع دقائق نهضتُ منه ولبستُ حذائي، وملأتُ حوضًا بالماء لأغتسل فيه وأنعش نفسي.

والآن لنلاحظ مرةً أخرى خطوط السببية غير المباشرة على نحوٍ غريب. كانت المناشف على الشماعة مُبتلَّة وغير نظيفة. فألقيتُ بها في سلَّة البياضات المتسخة، وفتحت الدُّرج

الذي أحتفظ فيه بالمناشف النظيفة. كان هذا الدُّرج هو الدُّرج السفلي في خزانةٍ رخيصة مصنوعة من الصنوبر كنتُ قد ابتعتها من شارع وايتشابل هاي ستريت. وكانت تلك الخزانة ضخمة الحجم؛ إذ كان عرضُها أربع أقدام وطولها خمس أقدام، وكان كِلا الدُّرجَين السُّفلِيَّين بعُمق ثماني عشرة بوصة، وكانا أكبر بكثيرٍ مما أحتاج إليه لتخزين مخزوني المتواضِع من البياضات.

سحبتُ الدُّرج السفلي، ثم وبينما كان تجويفه العميق ينفتح أمامي، فكَّرت في شيءٍ بسيط. لا يزيد طول رأس الشخص المتوسط وجذعه عن ستٍّ وثلاثين بوصة. وبترك بضع بوصات إضافية للقدمَين والكاحلين، يمكن لتجويفٍ عمقُه ثمانٍ وأربعون بوصة أن يكون كافيًا تمامًا لاستيعاب جثة رجُل. فأخرجتُ المناشف والملاءات التي كانت بالدُّرج ثم دخلت فيه واستلقيتُ وقد رفعت ركبتيَّ إلى الأعلى. وبالطبع كانت المساحة كافية وتزيد.

كان ذلك اكتشافًا مثيرًا للاهتمام لكنه غير ذي صلةٍ بالظروف الراهنة. ومع هذا، ظللتُ أفكِّر في الأمر. وقد ذهبتُ إلى الحجرة الأمامية ونظرتُ من النافذة المفتوحة إلى الخارج. فرأيتُ أنَّ إضاءةً خافتة بالسماء المُعتمة تشير إلى بزوغ الفجر، ومن بعيدٍ جاءت همهمات تنمُّ عن بدء الحركة في شارع هاي ستريت. وكنتُ على وشْك أن ألتفتَ حين التقطت أذني صوتًا جديدًا وغير عاديٍّ يعلو على صوت الهمهمة القصيِّ؛ كان صوتَ خطواتٍ مُنضبطة يُخالطه صوتُ قرقعةِ حوافر الجياد وهدير شيءٍ معدني ثقيل. فنظرتُ إلى الخارج بشيءٍ من الحِيطة باتجاه الصوت فأصابني الذهول والدهشة. فقد رأيتُ في آخر الشارع وبمساعدة أضواء المصابيح سَريةً من الجنود يظهرون عند الزاوية ويحتلون موضعًا على الجانب المقابل من الشارع. رُحت أرقُبهم باندهاشٍ كبير. ثم وبإشارةٍ من الضابط، سرعان ما نَشَر الرجال فُرُشًا على الأرض الموحلة ورقدوا عليها، ثم ظهر عددٌ من الجياد يجرُّون مدفعًا ميدانيًّا أو سريع الطلقات فوقفوا به خلف الجنود وحلُّوه وأعدُّوه للعمل. وبعد دقيقةٍ ظهرت أشباحُ عددٍ من الجنود عند نهاية الشارع وهم يتسللون بجوار حواجز البيوت المقابلة، وقد اختفَوا خلف تلك الحواجز فلم تظهر إلا رءوسهم وفوَّهات بنادقهم.

يبدو أنني أسأتُ الحُكم على رجال الشرطة في مسألة الحِيطة والحذَر. ويكاد يكون الأمر أن الجهد الذي بذلتُه كان غيرَ ذي جدوى؛ لأن تلك الاستعدادات تُشير حتمًا إلى خطة استراتيجية مُميزة. كم سيكون الأمر صادمًا ومُخيبًا للآمال حين تجد الشرطة أن المُجرمَين المُتحصنَين قد ماتا! لكن الأمر سيكون صادمًا أكثرَ إنْ لم يجدوهما على الإطلاق!

في تلك اللحظة تقدَّم رقيب شرطة إلى منتصف الطريق ولَمَّا رآني أشار إليَّ بيده أن أدخل وأبتعِد عن طريق الأذى. فأطعته وأنا مُتجهِّم وأفكِّر في تلك الصدمة العبثية؛ وبطريقةٍ ما بدأت تلك الفكرة في الارتباط بالدُّرجَين السُّفليَّين لخزانتي. لكن البراميل هي ما كانت تُمثِّل مشكلة. إن صانع البراميل الذي ابتعتُ منه تلك البراميل كان في بعض الأحيان يُبقيني منتظرًا لما يُقارب الأسبوع قبل أن يزوِّدني بما طلبت منه — لأنني لم أكن من كبار الزبائن؛ وهذا لن يجدي نفعًا أبدًا حتى في ذلك الوقت من العام. أضِف إلى ذلك أن الشرطة ستجري بحثًا صارمًا؛ ليس وكأنَّ هذا الأمر سيُهم لو كان بإمكاني إجراءُ الترتيبات اللازمة لإخفاء هاتَين العينتَين وإبعادهما عن المكان. لكن لسوء الحظ لم يكن بإمكاني ذلك. سيتعيَّن عليَّ أن أتخلَّى عن هاتَين العينتَين؛ ستُحمَل هاتان العينتان بطريقةٍ مشينة أمام القوة المحاصِرة، ستكونان هامدتَين ومُذعنتَين كتلك «الدُّمى» التي يصنعها مَن تُطلق عليهم السيدة كوسمنسكي «الأطفال». ستكون هناك مواءمة حامية وشرسة في هذه الحادثة. لأن اليوم هو الخامس من نوفمبر.

تُعَد مسألة توليد الأفكار الجديدة مسألةَ تداعٍ بالأساس. إذ شكَّلت الأفكار «الدُّمى» و«السيدة كوسمنسكي» و«الخامس من نوفمبر» فيما بينها مجموعةً نشأت عنها سلسلة جديدة ومُذهلة من الأفكار. في البداية بدت الأفكار جامحةً كثيرًا؛ لكن حين انضمَّت فكرة الدُّرجَين السُّفليَّين إلى عملية تصنيع الأفكار، بدأ مخطَّط كامل ومتَّسق يتجلَّى أمامي. واجتاحني حماس كبير، وبينما أنا أسارع على الدَّرج نحو الطابق العلوي، واتتني أفكارٌ عن تفاصيل جديدة، رافقَتْها عقبات جديدة استعرضتُها وتخلَّصتُ من بعضها. ثم فتحتُ اللوحَين المنزلقَين ودلفتُ إلى داخل الغرفة المجاورة وأنا أكتم أنفاسي واجتزتُها ورمقتُ الجثتَين الهامدتَين الممددتَين على المرتبة بنظرةٍ سريعة. ثم أزلت الكرسي المُستخدَم كحاجزٍ خلف الباب وفتحت مزلاج الباب وقُفله، ثم خرجت منه وأغلقتُه خلفي.

كانت حجرة السيدة كوسمنسكي في الجهة الخلفية من المبنى؛ كانت تعجُّ بالقذارة والأوساخ، وفيها نفايات مُكدَّسة تكاد تصل إلى السقف ولا يمكن تصنيفها. وكان جو الغرفة خانقًا حتى إنني شعرت برغبة في فتح النوافذ المستترة خلف ستار غليظ لبضع بوصات؛ وقد واتتني فكرة جديدة لما تواريتُ خلف الستار ونظرت إلى الخارج؛ إذ رأيت السقف المُسطَّح للطابق السفلي. كانت الأشياء مكوَّمة في كل مكان وجانب من الغرفة، بل وحتى تحت الفراش، ومن بينها ملابسُ وأغطية وبطانيات وأوانٍ فخارية وألعاب كلها قديمة جدًّا. وكان من بين كل تلك الأشياء الألعابُ النارية والأقنعة والأدوات الأخرى

التي تُستخدَم في إحياء ذكرى «مؤامرة البارود» التي لن تُنسى أبدًا، وكرتان كبيرتان من الحبال ذات اللون الداكن اللتان أحيانًا يستخدمهما بائعو الخضار المتجولون لربط وتأمين حمولاتهم. فواتتني فكرة أخرى جرَّاء ذلك أيضًا، وكذا لمَّا رأيت الملابس النسائية الأنيقة والقديمة. فأخذت أربعةً من أكبر الأقنعة الموجودة وكمية من نُسالة الكتان المُستخدَم في الشَّعر المُستعار؛ وبعض القصاصات الورقية الملوَّنة وزخارف القبعات؛ واثنين من الفساتين الكبيرة البالية — التي أعتقد أنها تخصُّ السيدة كوسمنسكي — وقد عبَّأت تنورتيهما بالقش من إحدى السِّلال الكبيرة؛ وبدلتَين كبيرتَين باليتَين وقبَّعة نسائية من القش وأربعة أزواج من القفازات الرجالية وأكبر قبَّعة عالية أمكنني إيجادها. فوضعتُ كلَّ ذلك في كومةٍ واحدة مع إحدى كرتَي الحبال. ومن الكرة الأخرى قطعتُ ثمانية أبواع من الحبل ومرَّرتها من فتحة النافذة حتى سقطتُ على سقف الطابق الأدنى. ثم نقلت غنيمتي على مرتَين عبْر الغرفة التي يُوجَد بها المُجرمون، ومرَّرتُ كل شيء عبْر الفتحة وأغلقت اللوح المنزلِق من خلفي.

كانت الحكمة تقتضي أن أتخلَّص من هذه الأشياء أولًا، ومن ثمَّ وضعت اثنَين من الأقنعة وزوجَين من القفازات وبدلة واحدة وفستانًا واحدًا في خزانة الأدراج الكبيرة. أمَّا البقية فحملتُها إلى الباحة الخلفية التي كان يُوجَد بها بالفعل كميةٌ من الخشب خاصة ببائع خُضَر جار لي. ولما عُدت إلى الطابق العلوي، دلفت إلى حجرةِ النوم لأنقل محتويات الدُّرجَين الكبيرين إلى الأدراج الأعلى ثم تقدَّمت مرة أخرى إلى واجهة الطابق الثاني. كان الوقت يمر وضوء الفجر الرمادي يكافح للمرور من النوافذ القذرة.

وبينما أسحب اللوح المنزلق انتبهتُ لصوتٍ أجهزَ على آمالي التي نشأت حديثًا، رغم أنه كان خافتًا. كنتُ قد أغلقت باب حجرة المُجرمين وأوصدته بقُفله لكنني لم أوصِده بالمِزلاج. والآن كان بإمكاني سماعُ شخصٍ ما يعبث بخِفة بثقب المفتاح، وعلى الأرجح أنه كان يستخدِم فاتح الأقفال. فأثار هذا سخطي الشديد. ففي اللحظة الأخيرة، في اللحظة التي كان النجاح فيها في قبضتي، كُتب عليَّ أن يحبط عملي وتفسد كل خططي. ولكي يزيد الطين بِلة، لم أكن حتى قد تدبَّرت فحْصَ شَعر هذَين الوغدَين الميتَين!

وفي غضبٍ وارتباك، اجتزت الفتحة وسحبت أبوابَ الدولاب نحوي ولم أترك إلا شقًّا صغيرًا. ثم أغلقتُ على نفسي في دولابي لكي أحجب الضوءَ الخافت، وأغلقت اللوح المنزلق لكني تركتُ فيه شقًّا صغيرًا أيضًا وانتظرتُ ما ستئول إليه الأحداث وأنا أضع يدي على

المِقبض استعدادًا لأن أُغلقه بسرعةٍ إذا ما تطلَّب الأمر. كانت الخطة الاستراتيجية الكبيرة على وشْك أن تُنفَّذ وكنتُ أشعر بفضولٍ لمعرفةِ ما ستكون.

انفتح قُفل الباب وأصدر الباب صريرًا خافتًا وهو يُفتح. ثم ساد السكون لحظة، بعدها جاء صوت هامس يقول:

«عجبًا، يبدو أنهما نائمان! احرسهما يا سميث، وأطلِق النار عليهما إذا ما تحرَّكوا.»

ثم جاء صوت خطوات خفيفة تتقدَّم في الحجرة. وأطلق أحدهم سعالًا ينمُّ عن الاختناق، ثم جاء صوتٌ غليظ يقول بنبرةٍ عالية نسبيًّا: «عجبًا، إنهما ميتان يا رجل! يا إلهي! يا لها من طريقة للموت!»

ووشَت ضحكة مهزوزة بالجهد الذي بذله الضابط الوجيه ليخوض هذه المخاطرة المخيفة.

ثم قال صوتٌ آخر: «نعم، إنهما ميتان بالفعل. لقد خدعانا في نهاية المطاف. لستُ وكأني أتذمَّر من هذا. لكن، بحق السماء، يا لها من خدعة! انظر إلى كل أولئك الجنود وذلك المدفع الرشاش. ها! أوه! يا إلهي! أعتقد أن هذين الوغدَين سمَّما نفسيهما حين علِما أن اللعبة قد انقلبت عليهما.» ثم ضحِك مرةً أخرى وانتهت ضحكته بنوبةٍ من السعال.

فقال الآخر: «ليسا هما مَن سمَّما نفسيهما أيها الرقيب. كان موقد الفحم هذا هو ما أعطاهما تذكرةَ الذهاب بلا عودة. ألا تشمُّ هذا؟ أقسم لك أنه سيقتلنا نحن أيضًا إذا لم نخرج من هذا المكان. سننزل ونُبلغ عن الأمر ونبعث نقالتَين لنقلهما.»

فسأل الرقيب: «أليس من الأفضل لو انتظرتُ هنا يا سيدي بينما تذهب أنت؟»

«نعم يا رجل. ولمَ قد تنتظر هنا؟ بهذا الشكل سنُرسل ثلاث نقالات. هيا بنا. كلا! اترك الباب مفتوحًا.»

وأخذتُ أسمع أصوات خطواتهما وهما يبتعدان وأنا لا أُصدِّق. إذ بدا من المُستحيل أن يكونا بهذا القدْر من الاطمئنان. لكن، ولمَ لا؟ كان الرجلان ميتَين بالفعل. والموتى لا يُبارحون مكانهم.

لكن ستكون هذه المرة استثناءً. كنتُ قد تخلَّيتُ عن العينتَين حين دخل رجال الشرطة؛ أما الآن ...

فتحت اللوح المنزلق، وهُرعت عبر الفتحة وتقدَّمت نحو المرتبة. ورُحت أحمل المجرمَين المُمددَين واحدًا تلو الآخر عبر الغرفة ووضعتُهما خلال الفتحة. ثم مررتُ منها وأغلقت أبواب الدولاب، وأغلقت كِلا اللوحَين المنزلقين بإحكام وأغلقت دولابي، وحملت العينتَين إلى

حجرة نومي بالطابق السفلي. وقد اتسع لهما الدُّرجان الكبيران بعد أن جعلتُ ركبتَيهما منتصبتَين نحو الأعلى. ثم أغلقت عليهما الدُّرجَين وأوصدتُهما ووضعت مفتاحَيها في جيبي، ثم غسلتُ يديَّ وذهبت إلى الغرفة الخلفية حيث رُحت أُحضِّر طاولة الإفطار بسرعة. فقد تأتي الشرطة في أي لحظةٍ الآن من أجل التفتيش، وينبغي أن أكون مُستعدًّا لقدومهم متى كان ذلك.

لم أُضِع الوقت في تناول الإفطار. يمكن لطعام الإفطار أن ينتظر. في غضون ذلك انكببتُ على العمل على الأشياء التي جمعتها في الباحة. فإضافةً إلى عربة اليد ذات العجلتَين، كانت هناك عربة يد ذات عجلة واحدة تعود إلى بائع خضر متجوِّل، وكانت هناك مجموعة من الحطب تعود إلى البائع نفسه، وتشتمل تلك المجموعة على حُزَم من الأوتاد وعدة سلال مملوءة بالقش. وبهذه الأشياء وتلك التي استعرتُها من السيدة كوسمنسكي، بدأت بسرعة في صناعة دميتين بالحجم الطبيعي — دمية منهما لرجلٍ والأخرى لامرأة. صنعتهما من دون إتقانٍ كبير ووضعتهما جنبًا إلى جنب في عربة اليد ذات العجلة الواحدة، وأسندتُهما إلى الجدار؛ ووضعتُ على كل دميةٍ من الدُّميتين بطاقةً كبيرة كُتب عليها اسم الشخصية التي تُمثِّلها؛ فكانت الدمية الأولى تمثِّل الوزير غير المحبوب بشدة السيد تود-ليكس، والثانية كانت للسيدة جامواي السيئة السُّمعة.

كنتُ قد صنعتهما بشكلٍ سطحي تمامًا بحيث يمكن للدمية أن تتفكَّك إلى قِطع وأجزاء بمجرد لمسها. لكن لم يكن لهذا أي قيمة. إذ كان العامل الأهم هو عامل الوقت؛ وكنت أعمل بسرعة كبيرة حتى إنني ما كدت أنتهي من إكمال تجميعهما حتى جاء صوت الجرس المحتوم ليُنهي عملي. فهُرعت إلى الغرفة الخلفية وملأت فمي بقطعة من الخبز وانطلقت إلى الخارج نحو باب المحل وأنا أمضغ الخبز بنهَم. ولما فتحت الباب، اندفع إلى الداخل مفتش شرطة مُنفعل وتبِعه رقيب.

فقلت بلباقة: «صباح الخير أيها السيدان. أتريدان حلْقَ شَعريكما أم ذقنيكما؟»

لن أذكر هنا ما أجاب به المفتش. لكنني كنت مصدومًا للغاية. إذ لم يكن لديَّ أدنى فكرة أن المسئولين الرسمِيين يستخدمون مثل هذه اللغة الفظيعة. في واقع الحال، كانا يريدان فحْصَ المكان. وبالطبع سمحتُ لهما على الفور بذلك، وتبِعتهما في جولتهما التفتيشية بذريعة أنني أُعرِّفهما على المنزل.

كان المُفتِّش في غاية الحَنَق، وبدا الرقيب حزينًا للغاية. وكانا يتحادثان بنبرة خفيضة وهما يصعدان الدَّرج، وسمعتُ الرقيب يذكر شيئًا عن «خدعة بغيضة».

وقد عاجلَه المُفتِّش بقوله: «لا تتحدَّث عن الأمر. فهو مثيرٌ للحنق جدًّا. لكن ما يُدهشني هو الطريقة التي استطاع بها أولئك الأوغاد تحمُّل رائحة الغرفة الكريهة. كانت تلك الرائحة كافية لأن تقضي عليَّ في غضون خمس دقائق.»

وافقه الرقيب قائلًا: «أجل، وكيف أمكنهم النزول من تلك النافذة من دون أن يراهم أحد. لم أكن لأصدِّق الأمر لولا أني رأيت الحبل بعيني. لا بد وأن رجال الشرطة كانوا نائمين.»

فغمغم المُفتِّش: «أجل، يا لهم من خرقى ومُغفلين! لنتفقد المكان بالخارج هنا.» ثم تقدَّم نحو الجزء الخلفي من الطابق الثاني وفتح النافذة. وأكمل يقول: «أترى الآن ما أقصد؟ هذا المنزل لا يتَّصل بالمجاور له. فهذا الجناح البارز يقطع صلةَ الوصل بينهما. هذه الباحة الخلفية تُفضي إلى زقاق بيل؛ أما الباحة في المنزل المجاور فتفضي إلى كوشر كورت. هذا هو الطريق الذي سلكوه. وما كان بإمكانهم الوصول إلى هذا المنزل إلا عن طريق السقف، وقد رأينا أنهم نزلوا إلى الأسفل من النافذة ولم يصعدوا نحو الأعلى.» ثم أخرج رأسه من النافذة ونظر إلى الأسفل بمرارة نحو الدُّميتَين.

ثم سألني بفظاظةٍ وهو يشير إلى الدُّميتين: «أهاتانِ الدُّميتان ملكٌ لك؟»

فأجبته: «لا. أظنُّ أن أحد رجال بايبر يُجهزهما ليأخذهما في جولة.»

فنخر المفتش ثم ابتعد عن النافذة. ودخل إلى الحجرة الأمامية ونظر في داخل الدولاب وفي أرجاء الغرفة ثم نزل الدَّرج. وفي الطابق الأول، أجرى فحصًا روتينيًّا للغرف، ورمق غرفةَ نومي بنظرةٍ سريعة ثم نزل إلى الطابق الأرضي. ومن هناك نزل الشرطيان إلى القبو وتفقَّداه بإمعان أكبر، حتى إنهما تفقَّدا نشارة الخشب في السلة، وبعدها خرجا إلى الباحة الخلفية. هنا وحين وقعت عينا الرقيب التعيستان على الدُّميتَين، أشرق مُحيَّاه قليلًا.

وصاح: «ها! السيدة جامواي! لقد رأيتها كثيرًا حين كنتُ في فرع وستمنستر. وكثيرًا ما فكَّرت أني أرغب في ... بحق السماء! سأفعل ذلك!» ثم تأهَّب الرجل بشراسة أمام الدُّمية العاجزة للسيدة، وسدَّد لكمةً قوية بذراع مُنحنية إلى رأسها غير القوي فطارت عبر الباحة.

ويبدو أن اللكمة وتأثيرها قد أثارا في الرجل غرائزه التدميرية، فقد عاد ليُهاجم الدُّمية بشراسة كبيرة حتى إنه وفي غضون ثوانٍ قليلة كان قد حوَّلها والدمية الأخرى للسيد المُبجَّل تود-ليكس إلى كومةٍ من الرُّكام.

وعاجلَه المفتِّش مزمجرًا: «توقَّف عن تلك الحماقة يا سميث؛ ستجعل المسكين يصنعهما من جديد. هيا بنا.» ثم فتح الباب ووقف لحظةً وهو ينظر إليَّ.

وقال: «أعتقد أنك لم تسمع شيئًا أثناء الليل؟»

فأجبته: «لم أسمع أيَّ صوت، ولن أفتح المحل حتى حلول المساء، وعلى الأرجح سأخرج أثناء النهار. هل تودُّ أن تحتفظ بالمفتاح؟»

هزَّ المفتش رأسه. وقال: «كلَّا، لا أريده. لقد رأيتُ كلَّ ما أريد أن أراه. طاب صباحك»، ثم خرج وتبِعه مرءوسه.

هنا تنهَّدتُ بعُمق وأنا أعيد غلق البوابة. كنت مسرورًا أنه رفض الاحتفاظ بالمفتاح، رغم أنني رأيتُ أنَّ من الحصافة أن أعرض عليه هذا العرض. والآن صرت حرًّا في إنهاء تحضيراتي على مهَل.

كان أول ما قمتُ به بعد أن أغلقت المحل هو تركيب نموذجين أساسيين ثابتين باستخدام أوتاد بائع الخضار وحبل السيدة كوسمنسكي لتدعيم الجثتين. ثم تناولت إفطارًا مُشبعًا عُدت بعدَه إلى غرفة نومي ومعي سبَتٌ من القش ومجموعة من الأوتاد الصغيرة وكمية من القماش البالي. ولم تكن عملية تحويل العينتَين إلى دميتَين معقولتين بالعملية الصعبة. فقد ربطتُ رأسَي الجثتَين بقِطع كبيرة من القماش البالي، ثم ثبَّت الأقنعة الكبيرة إلى الجزء الأمامي من الرأس وغطيتُ بقيته بكتلٍ من نُسالة الكتان لأصنع شَعرًا مستعارًا مقنعًا. ثم ألبستُ كلَّ جثةٍ منهما الثياب الفضفاضة التي استعرتها من السيدة كوسمنسكي وحشوتها بالقش، وقد سمحت لأجزاء من القش بالبروز في جميع الفتحات. وأضفتُ على الأطراف شيئًا معقولًا من الصلابة والثبات باستخدام قِطَع من الأوتاد التي نصبتها داخل الملابس، واستخدمت عصيًّا أصغرَ لأُعطي مظهر الأصابع الصحيح والشبيه بقنديل البحر بداخل القفازات. وحين انتهيت، كان العمل بديعًا ومتقنًا. كانت الدُّميتان تجلسان على الأرض وتستندان بظهرَيهما إلى الجدار، وكانتا ثابتَتَين ومنتفختَين ومثيرتَين للرعب بدرجة فظيعة، ولم يكن أحد سيشكُّ في أمرهما.

ثم حملت دمية الرجل إلى الباحة، وأجلستها على العربة ذات العجلة الواحدة وألبستها قُبعتها؛ وبعد أن أخذت معي بقايا الدميتَين اللتَين دمَّرهما رقيب الشرطة وخزَّنتُهما في الأدراج، عُدت من أجل إحضار الدمية الثانية. ثم ربطت الجثتَين وأوثقتُ رباطهما إلى النموذجين وثبَّتُّ عليهما القبعتين بإحكام وأضفت إليهما بطاقتَي الأسماء. بعد ذلك دلفتُ إلى المحل لأُعدِّل من هندامي.

كنت قد أحضرت معي من منزلي في بلومزبيري المعطفَ الرثَّ وقبَّعتي البالية اللذين ارتديتهما في المغامرات القليلة الماضية. ارتديتُ المعطف والقبَّعة؛ ثم وبعد أن لصقتُ على وجنتي صليبًا من الشريط اللاصق — جذب حاجبي للأسفل ورفع زاوية فمي — وأضفت الأوساخَ إلى وجهي، وخضَّبت أنفي بالحُمرة، وأضفتُ القليل من الصبغة السوداء حول عينيَّ، تحوَّل شكلي تمامًا حتى أقرب أصدقائي ما كانوا سيعرفونني. الآن أنا على استعداد للبدء؛ وقد حانت الآن اللحظة الحاسمة.

خرجتُ إلى الباحة، وفتحتُ قُفل البوابة ودفعتُ العربة ذات العجلة الواحدة إلى الخارج في الزقاق، ثم أغلقت البوابة من خلفي. في ذلك الوقت لم يكن هناك أحد في الأرجاء، لكني سمعتُ غمغمةَ حشدٍ كبيرٍ من الناس لا لبس فيها، تأتي من الشارع القريب. ينبغي لي أن أعترف بأنني شعرتُ بالتوتر قليلًا. فالدقائق القليلة القادمة ستُقرر مصيري.

أمسكت بمقبضَي العربة وتقدَّمت نحو الأمام بعزم. ولما استدرتُ مع انحناء الزقاق، ظهر أمامي حشد كثيف من الناس. ثم التفتَتْ أوجهُ الناس إليَّ وبدءوا يبتسمون؛ ثم علَت الغمغمة فصارت هديرًا خافتًا، وبينما أخذ الناس يُفسحون لي الطريق، أوغلتُ في قلب الحشد ورفعتُ صوتي بنغمةٍ جشَّاء قائلًا:

«تذكَّروا، تذكَّروا يوم الخامس من نوفمبر،
تذكَّروا مؤامرة البارود والخيانة.»

واستطعتُ أن أرى بين الفجوات في الحشد أن الجنودَ ما زالوا على الرصيف وأن المدفع الرشاش لا يزال في موضعه. وفجأةً ظهر المُفتش ورقيب الشرطة أمامي وهما يستحثَّان الحشد. وقعت عينا مفتش الشرطة عليَّ، فلوَّح بيده بغضبٍ وصاح قائلًا:

«ابتعِد بهذا الشيء من هنا! أبعده عن الحشد يا مولوني»، فقفز عليَّ شرطيٌّ ضخم الجثة وهو يبتسِم ابتسامةً عريضة وانتزع مِقبضَي العربة من يديَّ وانطلق يعدو بوتيرةٍ جعلت الدمتَين تهتزَّان بصورةٍ تبعث كثيرًا على الخوف.

أخذ الشرطي المبتسِم يصيح: «انتبهوا يا رجال!» وخرجت كلمة «رجال» وهي تحمل حِمية وغلظة.

وعند أطراف الحشد ناولني الشرطي مولوني مِقبضَي العربة، وفي تلك اللحظة لاحظتُ ضابط شرطة بملابسَ مدنية يُراقب حمولتي بانتباهٍ مُفرِط. لكن لعِبَ الحظ لُعبته معي؛

لأنني وفي نفس اللحظة رأيتُ رجلًا يحاول نشْلَ أحدهم في دائرة الضابط مباشرة. وقد وقعت عينا اللص في عيني فابتعد مسرعًا. فأوقفت العربة وصحتُ وأنا أشير إلى اللص: «أوقِفوا ذلك الرجل! أوقِفوه!» فغاص اللص بين الحشد ولاذ بالفرار. فأخذ المُتسكِّعون يبتعِدون عنه بسرعة. وصاح الرجال، وصرخت النساء، وشرع الضابط ذو الملابس المدنية يُطارده؛ وفي خِضم الفوضى التي تلت ذلك، دفعتُ العربة بسرعة مبتعدًا فدلفتُ إلى شارع ميدلسكس وتوجَّهت صوب سبيتالفيلدز.

كان مسيري بالشوارع البائسة والقذرة أشبهَ بمسير المُنتصرين. إذ واكبني حشدٌ كبير من الشباب بالموسيقى الصوتية، وهتف البالِغون من فوق الأرصفة، رغم أن أحدًا منهم لم يُخجِلني بإعطائي الهدايا. لكن ورغم ابتهاجي الظاهري، كنت قلِقًا بداخلي. كانت الساعة قد قاربت على العاشرة بالكاد، وما زالت هناك ساعات كثيرة من هذا اليوم من شهر نوفمبر ينبغي أن تمضي قبل أن يُصبح آمنًا أن أتَّجه إلى وجهتي. كان التجوُّل في الشوارع مدة عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة مع هذه الحمولة البارزة للغاية أمرًا غير مُريح على الإطلاق، فضلًا عن الخطر المُتزايد لانكشاف أمري، فكنت أترقَّب الأمر بهواجسَ منذرةٍ وكئيبة. فإذا ما حامت الشكوك حولي، فسيُمكن تتبُّعي بسهولة كبيرة، وفي كل الأحوال سأكون منهكًا من التعب قبل حلول المساء. وبتأمُّل هذه العقبات، قرَّرتُ البحث عن بقعة منعزلة حيث يمكنني تنزيل الدميتَين وتغطيتهما بالقماش المُشمَّع الملفوف في العربة وأخْذ قسط من الراحة، وذلك حين ناصرتني الظروف وأخذت صفِّي مرة أخرى.

كانت الغشاوة الشتوية المعهودة تلفُّ المدينة طوال الصباح والمساء؛ لكن الآن، وبسبب تغيُّر اتجاه الرياح، بدأت الغشاوة تزداد كثافة بسرعة حتى تحوَّلت إلى ضباب كثيف. فأوقفتُ العربةَ ورُحت أشاهد بامتنان كتلةَ البخار الصفراء المُعتِمة وهي تملأ الشارع وتحجُب السماء. وبينما يزداد الضباب كثافةً وتطبِق الظلمة على الشارع، رحل الأطفال ولم يتبقَّ إلا مُتسكعٌ واحد.

وعلَّق الرجل قائلًا: «حظًّا طيبًا أيها الرفيق مع هذا الضباب بعد كلِّ ما بذلتَ من جهد.» (وقليل هو ما يعرفه عن هذا.) «لكن لن يفلح الأمر. الأحرى بك أن تعود إلى المنزل بينما لا يزال بإمكانك معرفة الطريق. فاليوم سيكون مُظلمًا.»

شكرتُ الرجل على تعاطفه ودلفتُ عبْر الدخان المظلم. وبالقرب من سبيتال سكوير وجدت زاوية هادئة أنزلت عندها الدميتَين بسرعة وغطيتُهما بالقماش المشمَّع، ولما شعرتُ بقلق جديد بفعل كثافة الضباب المتزايدة، رحت أتحسَّس طريقي حتى شارع نورتون

فولجيت. هنا تقدَّمتُ بسرعة قدْرَ ما أمكنني، ودلفت شارع جريت إستيرن وفي نهاية المطاف وصلت إلى شارع أولد ستريت، الأمر الذي أشعرني براحةٍ كبيرة.

كنتُ قد وصلتُ في الوقت المناسب. إذ إنني ولمَّا دخلت الشارع الشهير، أطبق الضباب وزادت كثافته فصار مُحكمَ الظلمة والغموض. انطفأ عالَم الأشياء المرئية وحلَّ محلَّه فوضى الأصوات المتداخلة. حتى إن طرَف العربة التي أدفعها غاب في ظلمة الجو، وكذا حافة الطريق التي جعلت العجلة اليُسرى تحتكُّ بها كانت تبدو واهنة وقصيَّة.

وبقدْرِ ما كان الضباب مواتيًا لظروفي، فإنه لم يكن خاليًا من الأخطار؛ كان أقربها وأكثرها إلحاحًا هو أنني قد أَضِلُّ طريقي. أوقفتُ العربة وفصلت البوصلة الصغيرة التي أحملها دائمًا في جراب ساعتي ووضعتها على القماش المشمَّع. كان الطريق الذي سأسلكه يمتد جهة الغرب والجنوب الغربي على قدْر معرفتي به، وبوجود البوصلة أمامي، لن أتمادى إذا ما أخطأتُ الطريق. وبالفعل كان الاسترشاد بالبوصلة مهمًّا للغاية؛ فمن دونها ما كنتُ لأتمكن البتَّة من أن أجد طريقي عبْر هذه الشوارع المُعقَّدة التي تمتدُّ مسافة أميال. وحين كنتُ ألقى عربة ثابتة أو نحو ذلك من العوائق فأضطر إلى العودة إلى الطريق، كانت البوصلة تساعدني في العودة إلى حافة الطريق مرة أخرى. كما عيَّنت البوصلة زوايا الشوارع المُتقاطعة، وأرشدتني عبْر التقاطُعات الشاسعة لطريق سيتي رود وشارع ألدرزجيت، وجعلتني واثقًا وقانعًا باتجاهي وأنا أتحسَّس الطريق كسفينةٍ علِقت في الضباب في بحرٍ لا يُرى.

تقدَّمت بأسرعِ ما يمكن أن يُحقِّق عامل الأمان، لكنني كنت أتقدَّم بحذرٍ شديد، لأنه لو وقع تصادم فستكون النتيجة مهلكة. كنتُ أستمع بانتباهٍ شديد، وأُبقي عيني على البوصلة وأحافظ على احتكاك عجلة العربة بحافة الطريق، ورُحت أتقدَّم عبْر الفضاء الأصفر حتى كشف عمودٌ لا يكاد يُرى في ركنِ شارعٍ ما عن نفسه من خلال الأحرف الأولى لاسم الأبرشية التي يتْبَع لها، مثل ذلك الموجود في تقاطع شارع ريد ليون ستريت وطريق ثيوبالدز رو.

كنتُ على مشارف المنزل. وبعد عشرِ دقائق أخرى من السير الحذِر وصلت إلى زاوية كنت أعتقد أنها مواجهة لمنزلي. عُدت أدراجي مسافة عشر خطوات أو نحو ذلك، ووضعت العربة من يدي وعبَرت الرصيف ... والبوصلة في يدي حتى لا تضيع مني العربة. وصلت إلى عضادة في أحد الأبواب في الشارع، فرُحت أتحسَّس الباب نفسَه حتى وجدتُ أن ثقب

المفتاح من نوع ييل المألوف، فوضعتُ مفتاحي وأدرتُه فانفتح باب مدخل المتحف. وهكذا أكون قد أوصلتُ سفينتي بأمانٍ إلى برِّ النجاة.

رُحت أتسمَّع بانتباه شديد. كان أحدهم يسير في الشارع وهو يُعانق السور. فأغلقت الباب لأجل أن يمرَّ، وسمِعت صوتَ يده وهي تتحسَّس الباب وتنزلق عليه بينما هو يتقدَّم. بعدها خرجتُ وتوجهتُ إلى الجهة المقابلة نحو العربة وأخذت إحدى العينتَين وحملتها إلى الغرفة الخلفية حيث وضعتها على الأرض وعُدت على الفور إلى العينة الأخرى. وحين أصبحَت كلتا العينتَين في أمان، خرجتُ وأغلقت البابَ خلفي بالمفتاح بهدوء، وأخذت بمقبضَي العربةَ مرةً أخرى. رُحت أدفع العربةَ الصغيرة النفيسة ببطءٍ على طول الشارع، وفي أثناء ذلك لم أدَع العجلة تُبارح حافة الطريق، ورُحت أرمي الأوتاد والحبال على الطريق أثناء سيري، حتى وصلت بالعربة إلى زاوية شارع يبعُد عن منزلي مسافة ربع ميل تقريبًا؛ وهناك تركتها وعُدت إلى المتحف بأسرعِ ما يُمكنني.

كانت أولى التدابير التي أجريتُها لدى عودتي هو حمْل كنزي إلى المختبر وإشعال المصباح الغازي وفحص شَعر الجثتَين. كنت آمُل حقًّا أن يكون أحدهما هو الرجل الذي أريد. لكن للأسف لم يحدُث هذا! تكرَّرت القصة القديمة نفسها. كان شَعرهما أسودَ اللون وخشنًا ومن النوع المنغولي. كان عدوِّي لا يزال طليقًا.

بعد أن أزلتُ «تنكُّري»، أمضيت بقيةَ اليوم في إنهاء العمليات التمهيدية بهدف إتمامها قبل أن تتسلل أصابع التحلل إلى تفاصيل التراكيب الخارجية فتطمسها. وفي المساء عُدت إلى وايتشابل وفتحت المحل، ورأيت أن أشتريَ الهيكلَين العظمِيَّين الزائفين في اليوم التالي وأن أكرِّس الليالي والصباحات الباكرة التي ستلي ذلك في تحضير العينتَين.

وقد ظهرت عربة اليد في اليوم التالي بحوزة متشرد كان يحاول بيعها لقاء عشرة شلنات، وقد وُجِّهت إليه اتهاماتٍ بأنه سرقها لكنه أُخلي سبيله لعدم كفاية الأدلة. وقد عوَّضتُ بائعَ الخضر عن المشاكل التي سبَّبها إهمالي في ترك باب الباحة الخلفية مفتوحًا؛ وبهذا يأتي أمرُ هذه الحادثة إلى النهاية. ولكن مع استثناءٍ واحدٍ هام؛ لأنَّ هناك تتمةً مُذهلة.

في اليوم التالي للعملية، كان يَعتريني فضول أن أفتح اللوح المنزلق وأن أدخل إلى الحجرة التي كان المُجرمون يمكثون بها، والتي كانت الشرطة قد أغلقتها الآن. أخذت أنظر في أرجاء الغرفة ووقعت عيني على قبَّعة قماشية بالية سقطت على المرتبة التي لم تُمسَّ تحت الوسادة مباشرة. التقطتُ القبَّعة وفحصتها في فضول؛ لأنني رأيتُ من

حجمها أنها لا تعود إلى أيٍّ من الرجُلَين اللذَين استحوذت على جثتيهما. وأخذت القبَّعة إلى النافذة ذات الستائر وأخذت أفحص بطانتها بدقة؛ وفجأةً رأيت شَعرةً واحدة قصيرة عالقة بقماش القبَّعة الخشن، التي كانت تبدو ذات مظهرٍ مختلف ومميَّز يظهر للعين المجردة. أخرجتُ عدستي بيدٍ مرتعشة لأفحص الشَّعرة عن كثَب أكبر؛ وبينما ظهرت الشعرة في النطاق المُكبِّر، شعرتُ وكأن قلبي قد توقَّف. لأنه ورغم هذا القدْر الضئيل من التكبير، كانت سِمات الشَّعرة لا تحتمِل النكران؛ إذ بدت الشعرة كسلسلة صغيرة من الخرز الرمادي الفاتح. أمسكتُ بالشعرة بين أصابعي وهُرعت عبر الفتحة وأغلقت اللوح المُنزلق بعُنف، ثم أسرعت نحو الطابق السفلي إلى الغرفة الخلفية حيث كنتُ أحتفظ بمجهر صغير. كنتُ في حالة شديدة من الانفعال لدرجةِ أنني بالكاد استطعتُ استخدام الأداة بصورةٍ ثابتة، لكن في نهاية المطاف ظهرت الشَّعرة أمامي: كانت كشريطٍ عريض ومُرقَّط، لبُّها داكن وبها حلقات صغيرة من فقاعات الهواء على مسافاتٍ منتظمة. كانت الشَّعرة بمنزلة نموذج مثالي على الشعر الحلقي. فماذا نستنتج من ذلك؟

هذه الشعرة تعود إلى بيراجوف بصورةٍ شبه مؤكدة. كان بيراجوف لصًّا وقاتلًا قاسيًا وله شعر حلقي. والرجل الذي أطارده لصٌّ وقاتل لا يعرف الرحمة وله شعر حلقي. إذن بيراجوف هو الرجل المنشود. كان هذا بمنزلة استنتاجٍ منطقي ناقص، لكن الاحتمالات كانت كبيرة. وقد كان المُجرم في قبضة يدي لكنه هرب بسلام!

أخذت أصِرُّ على أسناني في غضبٍ جم. كان الأمر مُثيرًا للجنون. فقد استيقظَت في صدري كل العواطف القديمة ورغبات الانتقام مرةً أخرى. وكاد اهتمامي بالعيِّنتَين الجديدتَين يتلاشى. كنت أريد بيراجوف؛ وكان الأمل المُتجدِّد بأنني سأحصل عليه في قبضتي هو ما جعلني أتخطَّى الأوقات التي شعرت فيها بخيبة الأمل المريرة.»

الفصل السابع

حتى آخر فلس

انكببتُ بفضول شديد على المُدخل الأخير من مُدخلات هامفري تشالونر في «أرشيف المتحف». لا لأن الشك كان يُخامرني بشأن ناتج المغامرة التي يُوثِّقها. فقد رأيتُ العينة التي تحمل رقم «خمسة وعشرين» في الصندوق، ومنذ ذلك الحين وهُويَّتها معروفة وواضحة. إلا أنَّ هذه الحقيقة لم تُهدِّئ فضولي بأي شكل. يُقدِّم الأرشيف سردًا متتابعًا — لا شكَّ أنه من أغرب السرديات التي التزم أحدهم بكتابتها على الإطلاق — والآن أنا على وشْك قراءة أوج هذه القصة الرومانسية الرهيبة؛ ورؤية الإنجاز النهائي للغاية التي سعى صديقي المسكين تجاهها بمثابرة لا تتزعزع.

سأقتبس هذا المُدخل بصورة كاملة عدا فقرة أو اثنتَين قُرب نهايته، وستتضح أسباب الحذف للقارئ.

«ملابسات الحصول على العينة رقم «خمسة وعشرين» في السلسلة الأنثروبولوجية (أ. العظام. ب. المستحضرات الجافة المُتقلِّصة).

لم تجلِب عليَّ الشهور التي تلت الأحداث المرتبطة بحصولي على العينتَين ٢٣ و٢٤ إلا انتظارًا مؤلِمًا وأملًا مؤجلًا. وكنت قد تخلَّيت عن ملاحقة المجرمين العاديين منذ استروحتُ رائحة طريدتي الحقيقية. كان المربات خامدًا في سلَّته؛ وقد توقفت عن وضع الشحم على درجات سلم القبو. لم يكن أمامي إلا أن ألعب دورًا سلبيًّا حتى تحين ساعة المشهد النهائي — إن كان مقدَّرًا لهذا المشهد أن يحدث. ورغم أن مدة منفاي الطويل الأجل في شرق لندن كانت تُشارف على النهاية، فإنني لم أستطِع أن أرى ذلك قادمًا. لم يسعني سوى الانتظار؛ وهل هناك أسوأ منه؟

كنتُ قد أجريتُ تحقيقاتٍ حذرة ومُتحفِّظة بين الغرباء من السكان. لكنَّ أحدًا لم يكن يعرف بيراجوف — أو على الأقل لم يعترف أحدٌ بمعرفته به؛ وبالنسبة للشرطة،

بدا أنهم تركوا المسألة ونفَضوا يدَهم عنها بعدما ألقَوا القبض على بعض الأشخاص ثم أفرجوا عنهم فيما بعد. أما الصحف فكانت أكثر نشاطًا وتفاعلًا بالطبع. إذ ذكرت إحداها بالتفصيل كيف أن «دعاة الفوضى الثلاثة الذين هربوا من المنزل في شارع سول» قد شوهدوا معًا في أحد المطاعم في منطقة إيست إند؛ وتتبَّعَت عدة صحف أخرى الأماكنَ المُفترَض أنه يوجَد بها شخص غامض يُعرف باسم «السباك بول»، الذي أعلنت الشرطة أنه يُعدُّ أسطورةً غريبة. لكن بالنسبة لي كانت هناك حقيقة واحدة هامة، وهي أن هناك شخصًا واحدًا من أولئك الأشرار الثلاثة لا يزال طليقًا، وبدا أنه لا يُوجَد مَن يعرف عنه شيئًا.

التقطَ أنفي رائحةَ المجرم مرةً أخرى بعدها بنحو أربعة أشهر. ففي مساء يوم جمعة من شهر فبراير كنتُ أرتِّب المحل وأنظِّمه في فتور؛ لأن عطلة السبت اليهودية كانت قد بدأت وكان الزبائن قليلِين. لكن عند الساعة الثامنة تقريبًا دخل عليَّ رجل في شيءٍ من النشاط، فعلَّق قبَّعته وجلس على كرسي الحلاقة؛ وفي تلك اللحظة دخل رجلٌ آخر وجلس ينتظر. رمقتُ الأخيرَ بنظرة، وفي لحظةٍ شعرت بالنفور منه. لا يُمكنني تحديدُ سبب ذلك. فالعقل الذي يتَّبع المنهج العلمي يجد البديهيات والأمور الحدسية أمورًا مَقيتة. وهي في الغالب خاطئة وغير مبرَّرة بالكامل. لكني وبينما كنتُ أنظر لهذا الرجل، اجتاحتني موجة من الكراهية الفطرية والشكوك. كان مظهر الرجل شنيعًا بالفعل. كان له وجه تارتاري عريض على شكلٍ مُعيَّن، وكانت عظمتا وجنتَيه كبيرتَين وفكَّاه هائلَين؛ كما كانت له جبهة مُتدنِّية يعلوها شَعر كثيف لونه بُني مائل للرمادي؛ وكان حاجباه كثيفَين وبارزَين عن وجهه وعيناه غائرتَين، مما ينمُّ عن الشراسة والمكر؛ وقد اجتمعت هذه الصفات كلها لتجعل مُحيَّاه غيرَ جذاب بما فيه الكفاية. ولم يكن أسلوبه أفضل من هذا في شيء. تجهَّم الرجل في وجهي متوعِّدًا، ومحَّص في الزبون الآخر حيث مدَّ عنقه جانبًا ليفحصه في المرآة، ونظر في أرجاء المحل وأخذ يُحدِّق بفضولٍ في باب الغرفة الخلفية. كانت كل حركة يقوم بها تعبِّر عن الريبة والاضطراب.

حاولتُ ألا أنظر إليه كي لا تخونني ملامحي، ولكي أحوِّل ذهني عن التفكير في الأمر، ركَّزت كل اهتمامي على الزبون الآخر. وقد ساعدَني ذلك الزبون على فِعل ذلك كثيرًا. فرغم أنه لم يكن شابًّا يافعًا، فإنه كان الزبون الأكثر زهوًا وتأنقًا بين مَن جلسوا تحت يدي. إذ أوقفني الرجل مراتٍ عدة ليُعطيني توجيهات مفصَّلة عما يريدني أن أصنع به. وأخذ يشاهد نفسه في المرآة ويستشيرني بتلهُّف عن أفضل تصرُّف مع ناصيته المُجعَّدة

اصطناعيًّا. وقد شتمتُه في سرِّي لأنني أردتُه أن ينصرف ويتركني وحدي مع الرجل الآخر، ولكن من أجل هذا السبب بعينه ومن أجل إخفاء نفاد صبري، لبَّيتُ احتياجاته واعتنيتُ به عنايةً كبيرة. لكن بين الحين والحين كانت نظراتي تزيغ تجاه الرجل الآخر؛ وحين تلتقي نظرتي بنظرته الشرسة المُرتابة — التي تُشبه نظرات الطرائد — كنتُ أشيح بنظري بسرعة لكيلا يتمكَّن من قراءةِ ما يدور بذهني.

أخيرًا انتهيتُ من العمل على زبوني المتأنق. فصفَّفتُ شَعره تصفيفة لطيفة وجعَّدت شَعر ناصيته بقضبانٍ ساخنة. ثم خلعت عنه مريلة الحلاقة وأنا أتنهَّد ارتياحًا، وانتظرته لكي يقوم. لكنه لم يفعل. إذ أخذ يتحسَّس وجنته متأمِّلًا وقرَّر أنه في حاجة لحلاقة ذقنه، وقد اضطررتُ إلى الإذعان له وأنا أشتُمه في نفسي.

كنت قد اكتسبت سمعةً طيبة في مهنة الحلاقة وأعتقد أنني أستحقُّها. كان بإمكاني شحذُ نصل الموسى بكفاءة عالية، وكنتُ أمسك به بيدٍ حسَّاسة وبالعناية المعتادة. وقد أعلن زبوني عن تقديره لمهارتي وأثنى عليَّ بصورةٍ متعالية وبلغة إنجليزية سليمة، وإن كانت تشوبها لكنةٌ روسية طفيفة، فأخذ يؤخِّرني بطريقة لا تُطاق من أجل التعبير عن استحسانه. وحين انتهيتُ من حلاقة ذقنه طلب أن أضع له على ذقنه بودرةً وردية؛ وحين وضعتُ له البودرة أمرني أن أُنسِّق له شاربه باستخدام مُستحضر باتي أونجروا، وقد راقبني في أثناء ذلك بعناية شديدة.

في نهاية المطاف، كان العمل مع الرجل قد انتهى. فنهض من الكرسي ونظر إلى نفسه في المرآة الكبيرة المُعلَّقة على الجدار. وراح يدور برأسه يمينًا وشمالًا وحاول أن يرى شكل قفاه. ثم ابتسم لنفسه في المرآة ورفع حاجبيه وقطَّب، وفي الواقع، جرَّب الرجل مجموعةً من التعبيرات من بينها انحناءةٌ خفيفة وكيِّسة. ثم اقترب من المرآة ليفحص إحدى البُقَع على وجنته؛ ومال عليها بيدَين مفرودتَين ليفحص أسنانه، ثم في الأخير أخرج لسانه من أجل أن يفحصه هو أيضًا. وكدتُ أنتظر منه أن يطلب مني أن أصفِّف له لسانه أيضًا. لكنه لم يفعل. وبعد أن عدَّل الرجل ربطة عنقه بدقَّة، أعطاني أجرتي بابتسامةٍ تنمُّ عن التفضُّل وعلَّق قائلًا: «أنت حلاق ماهر؛ تتمتع بذوقٍ لطيف وتبذل جهدًا كبيرًا. سأعطيك بنسًا بقشيشًا وسآتي لزيارتك مجددًا.»

ولمَّا أغلق الباب خلفه التفتُّ إلى الزبون الآخر. نهض الرجل وتقدَّم إلى كرسي الحلاقة وجلس عليه مُتجهمًا، وقد ظلَّ يُتابعني بنظراته طوال الوقت؛ وبدا أن شيئًا في وجهه ينمُّ عن الشك والقلق وحتى الخوف، ويُشير إلى شيءٍ غير اعتيادي في مظهري أنا.

كان الأمر مرجحًا بما فيه الكفاية. فرغم المجهود الشاق الذي بذلته من أجل إخماد نيران العواطف المتأججة بداخلي، لا بد وأن اختلالًا ما طفا على السطح، لا بد وأن عيني لمعت بلمعةٍ ما، أو أن اختلاجًا ما بفمي أخبر عن الإثارة الشديدة والتلهُّف الجياش اللذين ينتابانني. كنتُ أخشى النظر إليه كي لا أُخيفه فيهرب مني.

أهذا هو الرجل المنشود؟ هل هذا هو المجرم بيراجوف، قاتل زوجتي؟ تردَّد السؤال في أذنيَّ وأنا أضع ببطءٍ الرغوة على وجهه بيدٍ هي أبعدُ ما تكون عن أن توصف بالثابتة. أخبرني حَدسي أنه هو. لكن حتى وأثناء شعوري بالإثارة، كان عقلي يرفض أيَّ اعتقادٍ إن كان غير قابل للتحليل. إذ ما هو الحَدس؟ بصراحة وبساطة، هو استنتاجٌ نصِل إليه من دون مقدِّمات. لطالما كنت لا أومن بالحَدس والغريزة، وما زلت. لكن ما الذي جعلني أربط بين هذا الرجل وبيراجوف؟ كان من الواضح أنه روسي. وكان يبدو كالأشرار والمجرمين. وأسلوبه أشبه بالعدمِيِّين وعُتاة المجرمين بطريقةٍ ما. لكن كل هذا لا يُمثِّل شيئًا. فهو لا يُشكِّل أساسًا منطقيًّا للاعتقاد الذي يتملَّكني.

هناك شَعره؛ يتميَّز شَعرُه بأنه خشِن وغير مُهندم وله لون بني مائل للرمادي غريب. ربما يكون شَعره هذا حلقيًّا، استنادًا إلى لونه؛ فإن كان شَعره حلقيًّا، فلن يكون هناك شكٌّ كبير بشأن هُويته. لكن أهو حلقي فعلًا؟ كنت أتقدَّم في العمر ولا أستطيع رؤية الأشياء القريبة بوضوح من دون نظارتي؛ وكنت قد خلعتها في مكانٍ ما في الغرفة الخلفية.

وبينما أنا أضع الرغوة على وجهه، ملتُ نحو الأمام قليلًا لأنظر إلى شَعره عن كثَب، لكنه جفل مُبتعدًا في فزعٍ شديد، وفي نهاية المطاف، لم يكن بصري بدون النظارة جيدًا بما يكفي. وقد حاولتُ أن أخرج عدستي؛ لكنه سألني بغضبٍ عن هدفي من ذلك، فوضعتها من يدي ثانية. لم أجرؤ على حثِّه على العنف؛ لأن يده لو امتدَّت إليَّ لقتلتُه على الفور. وقد لا يكون هو الرجل المنشود.

وكانت عملية حلاقة ذقنه محفوفة بالمُغريات طوال الوقت. فقد استيقظت في ذاكرتي التفاصيل التشريحية التي كنت قد نسيتُها. وجدت نفسي أتتبَّع الأجزاء التي كانت تحت الجلد الخشن، وكانت في متناول يدي كثيرًا. الآن أنا عند زاوية الفك، وبينما كانت الشفرة تنسال على وجهه تتبَّعتُ حافة العضلة الإسارية وحفظت موقع تقاطعها مع الشريان السباتي الكبير. كان باستطاعتي حتى تحديدُ نبض الأوعية الدموية. كم هو قريب من سطح الجلد! إذا ما غمست الشفرة غمسًا خفيفًا في تلك البقعة …

لكنني لم يكن لديَّ دليل واضح أنه هو الرجل المنشود. ولا يمكن لمجرَّد انطباع — أو شعور بالنفور الجسدي غير المدعوم بالأدلة المادية — أن يكون كافيًا للشروع في العمل. مرَّت عليَّ لحظةٌ دعاني فيها تبرُّم همجي لتحقيق القصاص أن أستغلَّ الفرصة؛ أن أقطع له عنقه بضربةٍ وأقذف به في القبو. وفي اللحظة التالية أوقفني عقلي ودعاني أن أكفَّ يدي وأنتظر الدليل. وطوال الوقت كان الرجل يرقُبني كالقط وقد دسَّ يدَيه في جيبَي معطفه.

راودتني هذه التقلُّبات العقلية مرارًا وتكرارًا. في لحظةٍ أكون مدفوعًا بغريزة القتل الوحشية، وفي أخرى أكون عقلانيًّا — بل وأكاد أكون موضوعيًّا. في لحظةٍ تكون الضرورة القصوى هي منْعه من الهروب؛ وفي اللحظة التي تليها أحجم عن المجازفة المُروِّعة المُتمثلة في قتلي لرجلٍ بريء.

ولا يسعني أن أحدِّد كيف كان هذا الأمر سينتهي. لكن فجأةً انفتح باب المحل ودخل رجلٌ ضخم الجثة يعمل سائقَ عربة كارو، وجلس وضاعت الفرصة. ولم ينتظر الرجل الروسي ليفحص نفسه مطوَّلًا في المرآة كما فعل الزبون السابق. فبمجرد أن انتهى عملي نهض من فوق الكرسي ووضع نقودَه بطريقةٍ عنيفة وغادر المحلَّ بسرعة، وكأنه كان مسرورًا للغاية أنه نجا بنفسه. لا بد أنه كان ثمَّة شيء في مظهري يبعث بشدة على الشعور بالتهديد.

جلس سائق الكارو على الكرسي وشرعتُ في العمل معه بصورة آلية. لكن أفكاري كانت مع الرجل الذي غادر. يا له من فشلٍ تامٍّ! فبعد الانتظار كل هذه السنين، قابلتُ الرجل الذي راودني الشكُّ أن يكون هو الصعلوك نفسه الذي أطارده؛ كنت معه منفردَين — وتركته يمضي!

كم هذا عبثيٌّ! أمام عيني كان قاطنو الصندوق الجداري الكبير عابِسين وقد نهضوا موبِّخين؛ وبدت الوجوه الصغيرة الجامدة في تلك الصناديق السطحية وكأنها تنظر إليَّ وتسألني عن سبب قتل أصحابها. لقد تركتُ الرجل يرحل؛ ومن المؤكَّد أنه لن يعود إلى محلي ثانية. صحيح أني سأتعرف عليه حين ألقاه مرةً أخرى؛ لكن أي فرصة أفضل من هذه لتحديد هُويته؟ ثم مرة أخرى أتى السؤال الذي لا إجابةَ له: أكان هو فعلًا الرجلَ المنشود في نهاية المطاف؟

هكذا اضطربت أفكاري وتردَّدت. لم يكن هناك شيء ثابت ومستقر بداخلي إلا إحساس بالاكتئاب العميق؛ إحساس بالفشل لا يُوصف ويتعذَّر مُعالجته. نهض سائق الكارو وهو من الزبائن المُنتظمين ونظر إليَّ بارتياب وهو يفرك وجهه بالمنشفة. وعلَّق

أنني «أبدو وكأن بي قليل من الكآبة الليلة»، ثم دفع الأجرة ورحل بعد أن تمنَّى لي «أمسية طيبة» بشيءٍ من التهذيب.

وحين غادر، وقفتُ إلى جوار الكرسي وقد انتابتني حالة من الاستغراق في الكآبة. هل أخفقتُ في نهاية المطاف؟ هل انتهى سعيي الطويل بعدم تحقُّق غايتي؟ هكذا بدا الأمر تقريبًا.

رفعتُ نظري فوقعت عيناي على انعكاس صورتي في المرآة الكبيرة؛ وفجأة راعني أنني صرتُ رجلًا متقدمًا في السن. وقد خلَّفَت سنين العمل والاضطراب الفكري آثارها العميقة عليَّ. شَعري الذي كان أسود اللون حين أتيت أولَ مرة إلى منطقة الشرق صار الآن أبيضَ كالثلج، وكان وجهي هزيلًا وتبدو عليه علامات الكِبَر والتجاعيد. صرت في خريف العمر ولم يبقَ لي الكثير. سرعان ما ستَفْرغ رمال ساعتي؛ وحينها ستأتي النهاية — النهاية العقيمة، التي لم تتحقق فيها مهمتي. لأجل هذه المهمة أفنيتُ من عمري عشرين سنة من الشقاء، أتوق إلى الراحة وإلى لمِّ الشمل الأبدي! كان من الأفضل كثيرًا لو أفنيت هذه السنوات في سَكينة القبور بجوار رفيقة أيامي الجميلة!

اقتربتُ من المرآة لأنظر عن كثَب إلى وجهي، لأرى التجاعيد التي ضربت جوانب عيني وبقيَّتها المتداخلة على وجهي المنكمش. نعم، هذا وجهُ عجوز طاعن في السن؛ وجهٌ واهنٌ يشي بالحزن والاضطراب الفكري والشقاء الأجوف. سرعان ما سيُجمِّد الموت وجهي، سيجعله هادئًا ومُسالمًا بما يكفي حينها؛ وذلك الرِّعديد الذي أحدث كل الخراب والدَّمار سيظلُّ طليقًا دون أن يُسدِّد دَينه الثقيل.

تداخل شيءٌ ما على سطح المرآة مع عيني وانعكاسي فجعل الصورة ملطَّخة قليلًا. ركَّزت بصري عليه ببعض الصعوبة فرأيت أنه مجموعة من بصمات الأصابع؛ البصمات التي صنعتها الأصابع المُدهنة لزبوني المتأنق حين مال على المرآة ليفحص أسنانه. وبينما تميَّزت البصمات أمام عيني، أصبحت أعي أنَّ هناك شيئًا مألوفًا فيها؛ في البداية كان إدراكي هذا لا شعوريًّا فلم يأسر انتباهي بقوة. لكن لم تدُم هذه الحال إلا بضع لحظات قصيرة. ثم أضحى الشعور الغامض إدراكًا تامًّا. أخرجت عدستي بسرعة لأنظر في تلك البصمات المُحيِّرة. أخذ قلبي يخفق بشدة. وانبثقت بداخلي مشاعرُ الرهبة والنصر والبهجة الشعواء والغضب العنيف، واختلطت بإحساسٍ عميق بازدراء النفس.

لا يمكن أن أكون مخطئًا. لقد نظرتُ في هذه البصمات كثيرًا. لقد حُفر في ذاكرتي كل نتوء والتواء وانثناء من هذه الأنماط المختلفة. لقد حملتُ الصورَ المكبَّرة قليلًا لهذه

البصمات في دفتري الصغير طوال عشرين عامًا، ولا يكاد يمرُّ يوم إلا وأخرجتها من جيبي لأنظر فيها وأعاينها. كنت أحملها في جيبي الآن لأغراض التثبُّت وليس لمساعدة ذاكرتي.

أمسكت بالدفتر المفتوح أمام المرآة وقارنت الصور بالبصمات المطبوعة بوضوح. كان هناك سبع بصمات على المرآة؛ أربع جهة اليمين وثلاث جهة اليسار، وكانت جميعها متطابقة مع البصمات التي في الصور. لا مجال للشك. لكن إن كان …

اندفعت بسرعة نحو الكرسي. كانت الأرض لا تزال مُتسخة بما قصصتُ من شَعر ذلك الشيطان. لقد تركت ذلك الصعلوك يغادر من دون أن أنظر في شَعره وذلك بفعل غبائي وانشغالي مع الرجل الآخر. أمسكت بخُصلةٍ من الشَّعر من فوق الأرض ورحتُ أنظر فيها. كان الشَّعر يحمل صفةً غريبة يمكن رؤيتها حتى بالعين المجردة؛ كان له مظهر ناعم ومتلألئ مثل المنسوجات الرقيقة. لكنني لم أنظر إليها إلا نظرة واحدة. ثم هُرعت إلى الغرفة الخلفية ونثرت بضع شَعرات على شريط زجاجي ووضعته على منصة المجهر.

نظرة واحدة كانت كفيلة بحسم الأمر. فبينما وضعتُ عيني على الجهاز، وجدت خطوطًا رمادية عريضة متناثرة في أرجاء مجال الرؤية الدائري، وكان لبُّ كل شَعرة مغشًّى بحلقاتٍ من فقَّاعات صغيرة على مسافات متباعدة. كانت الحجَّة قاطعة. هذا هو الرجل المنشود. من الناحية الإنسانية، لم يكن هناك خطأ أو مغالطة ممكنة.

وقفت وضحكت ساخِرًا. كم هو غريب أمر الغريزة! يُسميها الحمقى حَدسًا، ولا يراها الحصفاء إلا منطقًا مبتذلًا! بإمكاني الآن فهمُ حَدسي النفيس؛ بإمكاني تحليله إلى مكوِّناته الخادعة. إنها القصة القديمة نفسها. بصورةٍ لا واعية، كنت قد أنشأت صورةً لرجلٍ من نوع معيَّن، وحين ظهر هذا الرجل تعرَّفت عليه على الفور. ذلك الوجه التارتاري الشرير الذي لطالما بحثتُ عنه. وأسلوبه الذي يتميَّز بالشراسة والمكر والشعور بالملاحقة؛ والشكوك التي لا تهدأ؛ وشَعره البُني المائل إلى الرمادي. لقد توقعتُ كلَّ هذه الأمور، وها هي ذي موجودة. من شأن الرجل الذي أُطارده أن يحمل هذه الخصال الخاصة، وها هو ذا رجل يحملها. ومن ثمَّ فإنه هو الرجل الذي أسعى خلفه.

«أوه! عجبًا لأمر مُغالطة «الوسط غير المُستغرق»! كم نتج عنكِ من حدس وبديهيات؟»

لم يدُم إحساسي بالانتصار طويلًا. فقد استفقتُ بعد لحظةٍ من التأمل. صحيح أنني وجدت القاتل؛ لكنني ضيَّعته مرةً أخرى. نذير الشؤم هذا لا يزال طليقًا في لندن بين المُجرمين الكُثُر. قال إنه سيأتيني ثانية، وآمُل أن يفعل. لكن مَن يمكنه أن يجزم بذلك؟ على الأرجح أنَّ هناك أشخاصًا غيري يبحثون عنه.

أظن أنني متفائل بطبيعتي؛ وإلا لَمَا استطعتُ استكمالَ البحث والمطاردة طوال هذه السنين. ومن ثمَّ وحيث اعتدتُ خيبات الأمل العابرة، حملتُ نفسي على الانتظار والصبر، أملًا في أن يُعاود ضحيتي الظهورَ في نهاية المطاف. لكنني لم أكن أنتظر بصورةٍ سلبية تمامًا؛ لأنني بعد أن أُغلق المحل، كنتُ أخرج بانتظامٍ وأتردَّد على المطاعم الأجنبية والأماكن السيئة السُّمعة الأخرى في إيست إند، وكُلي أمل أن ألتقي به وأنشِّط ذاكرته. هذا الأمر جعل ذهني مشغولًا دائمًا وجعل وقت الانتظار يبدو أقل؛ لكن لم يثمر ذلك عن أي شيء. لم ألتقِ بالرجل قط؛ وبمرور الأسابيع دون أن يأتيَ إلى شبكتي، راوَدَني شعور غير مُريح أن شَعره لا بد وأنه قد صار أطول وأن أحدًا آخر قصَّه له؛ إلا إن كان قد وقع تحت طائلة القانون.

في تلك الأثناء، كنتُ أقوم بتحضيراتي في هدوء — اشتملت تلك على زيارة مموِّن سفن مرة أو مرتَين — ووضعتُ خُطة للتصرف. ستكون المهمة حساسة. كان ذلك الحقير يصغُرني بنحو خمس عشرة سنة؛ وهو قوي البنية ومُستعد لفعل أي شيء، كما رأيت. وقوَّتي ونشاطي كانا يتدهوران منذ بعض الوقت. واضح أنني لن أستطيع مُلاقاته على قَدم المساواة. وعلاوةً على ذلك، لا ينبغي أن أسمح له بأن يُلحِق بي جرحًا. تلك مسألة شرف. لن تكون هذه محاكمة بالنزال. بل ستكون عملية إعدام. وأي انتقام من جانبه من شأنه أن يُدمِّر الطابع الرسمي والعقابي الذي هو جوهر هذه المسألة.

مرَّت الأسابيع. وطالت وتحوَّلت إلى أشهر. وما زال زائري لم يأتني بعد. وزاد قلقي. كان ثمة أوقات أنظر فيها إلى شَعري الأشيب ويُساورني الشك؛ حينها كان اليأس يكاد يتملَّكني. لكن تلك الأوقات مرَّت بسلامٍ وتجدَّد عزمي. عمومًا، كان لديَّ أملٌ كبير وكنتُ أنتظر بفارغ الصبر؛ وفي النهاية تحقَّقت آمالي وقطفتُ ثمرة صبري.

كان الوقت هو مساء لطيف في بداية شهر يونيو — أذكر أنه كان يوم أربعاء — حين أتى الرجل أخيرًا. لحُسن الحظ كان المحل فارغًا، وبطريقةٍ غريبة بما يكفي، كان اليوم أيضًا يُمثِّل أحد أيام العطلات اليهودية.

رحَّبت بالرجل ترحيبًا كبيرًا. لم تكن عيني الآن تتوهَّج من اشتعال الغضب. كنتُ مسرورًا لرؤيته وشَعرَ هو بالإطراء لقاء التأثير العميق الذي تركته زيارته السابقة عليَّ. بدأتُ عملي بتمهُّل كبير؛ لأنني كنتُ أستطيع بصعوبة الإمساكَ بالمقص، وكنت أخشى أن يلاحظ الرجل رجفتي؛ وقد لاحظها بالفعل.

فسألني الرجل بلُغته الإنجليزية الممتازة: «لماذا ترتجِف يدُك كثيرًا هكذا يا سيد فوسبر؟ هل تُفرِط في تناول الكحوليات؟»

طمأنته أنني لم أكن أفعل ذلك، لكنني ظللتُ على حالي من العناية والحذَر حتى يهدأ الارتجاف؛ وقد هدأ عني بمجرد أن تجاوزتُ شعوري الأول بالإثارة. في غضون ذلك تركته يتكلَّم — كان الرجل فظًّا ومتفاخرًا ومغرورًا، كما قد يتوقَّع المرء منه — وقد أطريتُ عليه وأظهرت إعجابًا به حتى كاد يُخرخر كالقطط من شعوره بالرضا عن نفسه. كان من الضروري أن أُدخله في جوٍّ من المرح والمزاج الجيد.

وكان ما ينغِّص عليَّ بين الحين والحين خوفي أن يأتي زبون آخر، رغم أن أمسيات الإجازات غالبًا ما تكون شاغرةً حتى تغلق المتاجر المسيحية أبوابها. ومع ذلك، كان الخطر جِديًّا فأجبرني ذلك على افتتاح هجومي من دون أي تأخير. كان لديَّ عدة خُطط بديلة، فشرعت بتنفيذ الخطة التي رأيتُ أنها واعدة أكثر. فاستغللت توقفًا في مسار الحديث بيننا وقلتُ بنبرة واثقة:

«أتساءل إن كان بإمكانك أن تُسدي إليَّ نصيحة. أريد أن أجد شخصًا يشتري بعض الأشياء القيِّمة من دون أن يسأل الكثير من الأسئلة ومن دون أن يُحدِّث أحدًا بالصفقة بعدها. أريد شخصًا مأمونًا. فهل بإمكانك أن تقترح عليَّ أحدًا؟»

استدار الرجل في الكرسي لينظر إليَّ. وفي لحظة ذهبَت عنه كل الابتسامات التي تنمُّ عن الرضا عن الذات. كان الوجه الذي يُطالعني الآن هو أكثرَ الوجوه الشريرة التي وقعت عيناي عليها يومًا.

قال الرجل بنبرة شرسة: «الشخص الذي تقصده هو تاجر سلع مسروقة. لماذا تسألني إن كنتُ أعرف شخصًا كهذا؟ مَن تكون أنت؟ هل أنت جاسوس لصالح الشرطة؟ أجبني. لماذا قد تظنُّ أني أعرف شخصًا يتاجر في السلع المسروقة؟ أجب عن أسئلتي!»

وحدَّق الرجل فيَّ بارتيابٍ وغضبٍ شديدَين حتى إنني فتحت المقص بصورة غريزية ونظرت إلى جوار شريانه السباتي. لكنني تلقيتُ أسئلته بدماثة.

فعلَّقتُ بابتسامةٍ خرقاء: «هذا هو ما يقوله الجميع.»

فأسرع يسألني: «مَن الذي يقول هذا؟»

أجبته: «كلُّ مَن سألتهم يقولون هذا. جميعهم يقولون: «ما شأني وتُجار السلع المسروقة؟» لكن هذه الأجوبة لا تجدي معي نفعًا.»

فسألني الرجل بنبرةٍ أقلَّ شراسة مع استيقاظ الفضول بداخله بوضوح: «لماذا لا تجدي معك هذه الإجابات نفعًا؟»

سعلتُ بشكلٍ ينمُّ عن الحيرة والارتباك. وقلت: «في الواقع، الأمر على النحو التالي. بافتراض أنني أملك شيئًا ما — شيئًا قيِّمًا لكنني لا أنتفع به. من الطبيعي أن أرغب في بيعه. لكنني لا أريد أن يتحدَّث عنه أحد. فأنا رجل مسكين. قد يقول الناس أشياء غير ودِّية إن عرفوا أنني أبيع أشياء قيِّمة، وقد يسأل الفضوليون أسئلة غير مناسبة. أترى ما أقصد؟» ثبَّت بيراجوف نظرَه عليَّ في شيءٍ من الحماس. كان ثمة ضوء جديد يبزغ في عينه الآن.

فسألني مُلحًّا: «ما هذا الذي لديك؟»

سعلت مرة أخرى. وقلتُ مبتسمًا: «آه! أنت مَن تطرح الأسئلة الآن.»

«أنت تسألني النصيحة. فكيف لي أن أُسديك نصحًا إن كنتُ لا أعرف ما تريد بيعه؟ ربما أشتريه أنا بنفسي؟ أليس كذلك؟»

فأجبته: «لا أعتقد هذا، إلا إن كنتَ تستطيع تحرير شيك بمبلغٍ يتكوَّن من أربعة أرقام. هل تستطيع فعل ذلك؟»

«نعم، ربما يُمكنني ذلك، أو ربما يُمكنني أن أتدبَّر المال. أخبِرني ما هو الشيء الذي تملكه وتريد بيعه.»

رحتُ أحرِّك شفرتَي المقص بأقصى سرعة لديَّ — كان بإمكاني الآن قصُّ الشَّعر بسرعة كبيرة إن أنا أردتُ ذلك. إذ لم أعُد أخشى أن يتملَّص مني الآن. لقد ثبَّتُّه بإحكام.

قلتُ في شيءٍ من التردُّد: «المسألة مُعقَّدة، ولا أريد أن أُفصح بالكثير عن الأمر إن لم تكن ضالعًا في نفس المجال. كنتُ أظنُّ أنَّ باستطاعتك تعريفي برجلٍ موثوق في ذلك المجال.»

تململ بيراجوف في مكانه ثم نظر إلى باب الغرفة الخلفية.

وسألني: «هل هناك أحد في تلك الغرفة؟»

أجبته: «لا، أعيش هنا وحدي تمامًا.»

«ألا يُوجَد خادم؟! ألا يُوجَد أحد ليقوم على شأنك؟» هكذا سأل وكلُّه شغف خبيث.

«نعم. أنا أعتني بنفسي. فهذا أكثر توفيرًا؛ وأنا لستُ كثير المطالب.»

قلتُ جُملتي الأخيرة هذه وَفْقًا لشيءٍ لاحظته، وهو أن الطريقة المُثلى لإثارة إعجاب شخصٍ غريب بثروتك هو أن تستفيض في ادِّعاء المسكنة. وقد كان لها أثرها المعتاد. إذ تململ بيراجوف قليلًا، ورمق باب المحل بنظرةٍ سريعة وقال:

«انتهِ من قصِّ شَعري بسرعة ودعنا ندخل تلك الغرفة ونتحدَّث في الأمر.»

ضحِكتُ في سرِّي على حماسه. فقد أصبح مظهره الخارجي حتى مسألة ثانوية. تعجَّلت في الانتهاء ممَّا بقي من عملية قصِّ شَعره، ونفضتُ المريلة من الشَّعر وفتحت باب الحجرة الخلفية. نهض هو ورمق انعكاسه في المرآة، ثم رمق باب المحل بنظرةٍ سريعة وتبِعني إلى داخل الحجرة الصغيرة، وأغلق الباب خلفه بالقُفل والترباس.

أخذت أرقُبه عن كثَب. أنا لا أومن بتلك التفاهات المُسمَّاة بالتخاطر، لكن ليس من الصعب أن يتتبَّع المرء وجهةَ أفكار أحدِهم إذا ما لاحظ وجهه وتصرُّفاته. نظر بيراجوف في أرجاء الحجرة بفضول الهمج، وكان من السهل كثيرًا تفسير نظرة الاندهاش السعيدة التي ألقاها على الخزنة والطريقة التي نقل بها نظره من عليها إليَّ. تلك خزنة حديدية، يُرجَّح أنها تحتوي على أشياء قيِّمة، وأنا رجل عجوز يملك مفتاح تلك الخزنة في جيبه. النتيجة الطبيعية هنا واضحة وجليَّة.

سأل بيراجوف وهو يُشير إلى باب القبو: «أهذه حجرة أخرى؟»

فتحت له الباب وسمحت له أن ينظر في ظلمة المكان. وقلت: «هذا هو القبو. إنه يُفضي إلى الباحة الخلفية، التي تفضي بوابتها بدورها إلى زقاق بيل. قد يكون ذا نفع. ألا تعتقد هذا؟»

ومما رأيتُ من تعابير وجهه أنه كان يظن ذلك بشكلٍ قاطع. سيكون ذا نفع بكل تأكيد حين تجهز على رجل عجوز وتنهب خزنته أن تجد مخرجًا خلفيًّا هادئًا.

قال بيراجوف: «والآن أخبِرني عن ذلك الشيء. أهو بحوزتك هنا؟»

فقلت مُناجيًا: «الأمر أنه ليس بحوزتي ... بعد» (وهنا سُقِط في يده)، فأضفت: «لكن بإمكاني الحصول عليه متى أردتُ؛ حين أكون قد انتهيتُ من تدبُّر أمر كيفية التصرُّف فيه.»

فقال معترضًا: «لكنك تملك خزنةً بإمكانك أن تُبقِيَه فيها.»

«أجل، لكنني لا أريده أن يكون بحوزتي هنا. أضف إلى ذلك أن هذه الخزنة لن تسع كلَّ شيءٍ إن أنا استوليت على الكل.»

برزت عينا بيراجوف من الجشع والإثارة.

وسألني: «ما نوعية هذا الشيء؟ أوانٍ فضية؟»

فقلت بغطرسة: «هناك بعض الأواني الفضية؛ الكثير منه كذلك في واقع الأمر. لكن تلك الأشياء بالكاد مُربحة. هذا الشيء هو مجموعة من الأشياء. وهو في الوقت الحالي مِلكُ أحد الحمقى الذين يجمعون المجوهرات والمُقتنيات الكنسية الثمينة؛ كأوعية القربان المُقدس والكئوس المرصعة بالجواهر وأشياء من هذا القبيل.»

لعق بيراجوف شفتَيه. وقال: «فهمتك! أنا نفسي واحد من أولئك الحمقى.» ثم ضحِك باضطراب، وكان من الواضح أنه ندم على أنه تحدَّث، ثم أضاف:

«وبإمكانك الحصول على كل هذا حين تريد، أليس كذلك؟ لكن أين هي هذه الأشياء الآن؟»

ابتسمتُ بخبثٍ ودهاء. وقلت: «إنها في مكانٍ أشبه بمتحف خاص؛ لكنني لن أقول أين يقع هذا المتحف، وإلا قد أجده خاويًا حين أذهب إليه.»

نظر إليَّ بيراجوف نظراتٍ جادة. لا شك أنه انتقص من قدري واعتبرني أخرقَ وشديد الحماقة — ولا عجب في ذلك — وكان يُفكِّر في كيفية التصرف معي.

«لكن لا بد وأن ذلك المكان — ذلك المتحف — منيعٌ. كيف ستدخل إليه؟ هل ستقرع الجرس؟»

فأجبته بنبرةٍ مرحة: «بل سأدخل بالمفتاح.»

«وهل معك المفتاح؟»

«نعم، وقد جرَّبته بالفعل. حصلتُ عليه من صديقةٍ تعيش هناك.»

فضحِك بيراجوف على الفور. وقال: «وهي مَن أعطتك المفتاح، أليس كذلك؟ ها، كم أنت عجوز ماكر! هذا أمرٌ عجيب أيضًا.» ثم حوَّل عينه عنِّي ناظرًا إلى انعكاسه في المرآة فوق الخزنة؛ وتعبيرات وجهه تقول: «لكنها إن أعطتني المفتاح، يمكن للمرء أن يستسيغ الأمر.»

ثم استطرد بيراجوف: «لكن، متى ستذهب إلى هناك؟ ستكون الأشياء محفوظة في مكانٍ آمن. ربما أنك تتمتَّع بالمهارة، أهذا صحيح؟ هل تستطيع فتْحَ خزنة على سبيل المثال؟ هل حاولتَ ذلك من قبل؟»

«كلا، لم أحاول ذلك من قبل، لكن الأمر سهل بما فيه الكفاية. لقد فتحت صناديق تعبئة من قبل. ولا أظن أن هناك خزنة حديدية. إنها خزائن خشبية. سيكون الأمر سهلًا إلى حدٍّ كبير.»

صاح بيراجوف: «هراء! صناديق التعبئة!» ثم أمسك بكُم معطفي بحماس. وقال: «اسمع مني يا صديقي، الأمر ليس سهلًا. إنه في غاية الصعوبة. إني أَصدُقك القول. وأنا أدرى بهذا. أنا لا أفعل ذلك بنفسي، لكن لي صديق يفعله وقد أراني. أنا أتمتَّع ببعض المهارة — وإن كنتُ لا أمارس ذلك إلا من أجل الترفيه كما تعلم. إنه أمرٌ في غاية الصعوبة. ستدخل وتحاول أن تجد الأشياء مقفلًا عليها وستحاول فتْحَ الخزانة ولن تُفلح إلا في

إحداث جلبة كبيرة. وحينها ستُغادر خاليَ الوفاض كالخرقى، وستضع الشُّرطة حراسة على المكان. وتكون الفرصة قد ضاعت ولن تحصل على شيء.»

حككتُ رأسي بطريقةٍ خرقاء كظنِّه بي. وقلت مُقرًّا: «سيكون هذا أمرًا صعبًا.»

صاح هو: «أمرٌ صعب! بل سيكون وبالًا! أن تضيع عليك فرصة حياتك! أمَّا إن أخذت معك صديقًا لك يتمتع بالمهارة ... ما قولك؟»

فقلت بمكرٍ: «آه! ولكن هذه هي فرصتي الثمينة الصغيرة. وإن أخذتُ معي صديقًا، فسيتعيَّن عليَّ أن أُشاركه فيها.»

«لكن ثمَّة ما يكفي لاثنَين. إن كانت خزنتك لا تستطيع احتواءَ كل شيء، هناك ما يفوق قدرتك على الحمل. أضِف إلى ذلك أن صديقك لن يكون طمَّاعًا. إن هو أخذ ثلثًا ... أو ربما الربع. كم تبلُغ قيمة الأشياء؟»

«يُقال إنَّ قيمتها تساوي مائة ألف جنيه.»

قال بيراجوف وهو يشهق: «مائة ألف!» وكاد لعابه يسيل من فمه. «مائة ألف! هذا يعني أن خمسة وعشرين ألفًا من نصيبي — من نصيب صديقك أقصد — وخمسة وسبعين ألفًا من نصيبك. هذه مسألة مُستحيلة على رجلٍ واحد. لن تتمكن من حمل كل شيء.» ثم أمسك بكُم معطفي ثانيةً ليحملني على القبول وقال: «سآتي معك يا صديقي. أنا في غاية المهارة. وأتمتع بالقوة. وكذلك بالشجاعة. ستكون في مأمنٍ وأنت معي. سأكون رفيقك وستتخلى عن الربع — أو ربما أقل من الربع حتى إن رغبت.»

في ظلِّ هذه الظروف، هو يتمتَّع برفاهية عقد اتفاقات مُتساهلة.

فكَّرت برهةً ثم قلتُ في نهاية المطاف: «ربما أنت مُحق. فبعض الأشياء كبيرة الحجم، ووزن الذهب ثقيل — ينبغي بنا أن نتخلى عن الأواني الفضية. سيتطلب الأمر رجلَين اثنَين ليحملا كل شيء. حسنًا، ستأتي معي وستحضر معك الأدوات المناسبة. متى سنفعل ذلك؟ يُناسبني أن نفعلها في أي ليلة كانت.»

فكَّر بيراجوف في شيءٍ من الارتباك، ثم سألني:

«هل تفتح محلك أيام الأحد؟»

أزال هذا السؤال عن ذهني عبئًا ثقيلًا. إذ كنتُ أفكِّر في أي الخُطط التي سيتبعها. والآن صرتُ أعرف. وخطَّته هذه ملائمة لي تمامًا.

أجبته: «كلَّا، أنا لا أفتح المحل أيام الأحد.»

فقال هو: «سنُنفِّذ المهمة إذن ليلة السبت أو صباح يوم الأحد. وهذا سيمنحنا نحو يومٍ من الزمن تقريبًا لتقسيمها.»

«صحيح. هذا تدبير جيد. هل ستأتي هنا ليلة السبت وننطلِق معًا؟»

فأجابني: «كلَّا! لا ينبغي أن نفعل هذا أبدًا. لا ينبغي أن يُشاهدنا الناس معًا. حدِّد لي موعدًا. وسنلتقي بالقُرب من المكان.»

لقد كنتُ أوافقه الرأي! لا ينبغي لنا أن يرانا الناس الذين نعرفهم في وايتشابل معًا. فقد يذكر أحدُهم ذلك في التحقيق. وهذا لا يُناسب بيراجوف بالمرة.

ثم استطرد: «اسمع، ارتدِ قبَّعة عالية وملابس طيبة؛ إن كنت تملك بدلة مسائية فارتدِها. وأحضر حقيبة جلادستون جديدة وبها بعض الملابس. أين ستلتقي بي؟»

اتفقت معه على أن نلتقيَ في شارع أبر بيدفورد بليس واقترحت أن تكون الثانية عشرة والنصف هي ساعة اللقاء، ووافقني هو على ذلك؛ وبعد أن أرسلَني إلى الخارج لأستطلِع له الأجواء، غادر وهو يبرم شاربه المُصفَّف بالشمع.

كنت في غاية السرور من الاتفاق عمومًا. وكنتُ مسرورًا بصفة خاصة من خطة بيراجوف المكشوفة المُتمثِّلة في التخلُّص مني. كنتُ قد وجدتُ في نفسي نفورًا من تأدية دور الجلاد، وإن كنتُ أريد أن أقوم بواجبي في نفس الوقت. لكن حقيقة أن هذا الرجل كان يُدبِّر ببرودة أعصابٍ لأن يغتالني جعلت مُهمتي مستساغة أكثر. إن الرغبة البريطانية في اللعب بطريقةٍ شريفة ضاربة بجذورها عميقًا.

كانت خطة بيراجوف بسيطة للغاية. سنذهب معًا إلى المنزل، وسنأخذ الغنيمة — أحمل أنا نصفها — وننقلها إلى بيتي في شارع سول في وقتٍ مُبكِّر من صباح يوم الأحد. ثم نقسم «الغنيمة» وحين ينتهي عملنا وأُصبحُ غيرَ ذي نفع له، سيضربني على رأسي ويُجهز عليَّ. ومن شأن البوابة الخلفية الهادئة أن تُمكِّنه من حملِ ما نُهب على شكل دفعاتٍ إلى مسكنه. ثم سيُوصد البوابة ويختفي. وفي غضون أيام قليلة ستقتحم الشرطة المنزل وتجد جثتي؛ وسيكون السيد بيراجوف في فندقه لِنقُل في أمستردام يقرأ خبرًا عن التحقيق. كانت الخطة بسيطة وفعَّالة بصورةٍ جذابة، لكنها تُخفق في أن تضع في حساباتها اللاعب الموجود على الجانب الآخر من الرقعة.

كانت الفترة ما بين الأربعاء والسبت تمرُّ وأنا مُستغرق في أفكارٍ مضطربة وإثارة كبيرة. كنت أخرج كل ليلة، واكتشفت أنَّ هناك مَن يتبعني — من مسافة قريبة — وقد كان هذا هو السيد بيراجوف. ذات مساء راوغتُه وزغت منه وراقبتُه وهو يقود عربة

أجرة على نحوٍ غاضب سعيًا وراء عربة أجرة أخرى كان من المُفترض أنها تحملني. زرتُ المتحف في تلك الليلة. لا لأنه كان هناك شيء مُهم لأقوم به. فقد قمتُ بكامل ترتيباتي قبل فترةٍ قصيرة بالفعل، والآن لم يكن عليَّ سوى أن أتحقَّق منها ومن أنها تعمل؛ على سبيل المثال، أن أختبر المِقبض النحاسي المُتصل بالمأخذ الكهربائي وأن البكرات المُشحمة بالزيت جيدًا لرافعتَين تعمل بكفاءة وهدوء. كان كل شيء يعمل، حتى المربات المُخبَّأ بعيدًا عن الأنظار، كان بمتناوَل اليد في سلَّته الصغيرة.

وحلَّت ليلة السبت في موعدها. أغلقتُ المحل عند التاسعة، وارتديت ثياب المساء وأخذت حقيبة جلادستون التي اشتريتُها حديثًا وناديتُ على عربة أجرة. ذهبت في البداية إلى مطعم كرايتيريون وتناولتُ عشاءً شهيًّا وكبيرًا؛ وكنت أتفادى تناول الأطباق الصعبة الهضم. ومن المطعم خرجتُ إلى المتحف، حيث تلكَّعت فيه قليلًا وأنا أُجري فحصًا أخيرًا لترتيباتي، وذلك حتى بقيتُ خمس دقائق على الساعة الثانية عشرة والنصف. حينها تقدَّمت وسِرت في هدوء إلى شارع أبر بيدفورد بليس.

ولمَّا استدرت في زاوية الشارع وبعثت نظري على طول الشارع العريض لم أجد على رصيفه الطويل سوى شخصٍ واحد فقط؛ كان أشبه بلطخةٍ قاتمة وغامضة وسط جو الليل الصيفي الرمادي. تقدَّم ذلك الشخص نحوي، ولمَّا استوى شكله وانتظم، رأيت بيراجوف في ثيابٍ مسائية، ومُغطًّى بمعطفٍ ضخم ويحمل حقيبة يد صغيرة.

قال بيراجوف بنبرة لطيفة: «أنت ملتزم بمواعيدك يا فوسبر. هلا نقوم بزيارتنا الآن؟ هل سَكن المنزل بعد؟ هذه المنازل لم تسكن بعدُ كما ترى.» ثم أومأ باتجاه مجموعة أنزال كنا نمرُّ بها، وكان الضوء لا يزال ينبعث من نوافذ كثير منها.

فأجبته: «لقد سكن المنزل الذي سنقصده. فصاحب المكان ينام مبكرًا. لقد مررتُ به للتو لأرى إن كانت كل الأضواء قد أُطفئت.»

اجتزنا الميدان بسرعةٍ وتقدَّمنا تجاه الحي الذي يقع فيه بيتي. وكان بيراجوف في غاية الدماثة. كان يتحدَّث بابتهاجٍ بينما نحن نسير، كما تمنَّى «ليلة طيبة» لأحد رجال الشرطة، الذي قام بدوره بلمس خوذته ردًّا على تصرُّف بيراجوف. وحين توقَّفت أمام باب المتحف، نظر بيراجوف حوله وهو عابس بعض الشيء.

وغمغم يقول: «أشعر أني أعرف هذا المكان. نعم، لقد جئتُ إلى هنا من قبل؛ قبل سنواتٍ طويلة. نعم، نعم؛ أتذكَّر ذلك.»

ثم ضحِك ضحكة خفيفة وكأنه يتذكَّر شيئًا مُسليًا. عضضتُ على أسناني من الغضب وأدخلت المفتاح ودفعت الباب.

وقلت: «ادخل.» فدلف إلى داخل القاعة. تبِعتُه أنا وأغلقت الباب في هدوء، وأغلقت المزلاج بينما كان قُفل الباب يُحدِث صوت الإقفال. كان ذلك عملًا احترازيًّا بسيطًا لكنه كافٍ لعرقلة أي انسحابٍ سريع.

اقتدتُه عبْر المتحف وأضأت مصباحًا كهربائيًّا واحدًا ملأ الحجرة الكبيرة بضوءٍ أحمر شاحب. نظر بيراجوف حوله مُستفسرًا وسقطت عينه على الصندوق الطويل المعلَّق على الجدار وبه الأشكال الشاحبة التي لا يمكن رؤيتها جيدًا. هنا شحب وجهه فجأة وحدَّق بعينَين جاحظتَين.

وصاح متعجبًا: «يا إلهي! ما هذه الأشياء؟»

فقلت: «تقصد هذه الهياكل العظمية؟ إنها جزء من المجموعة. الرجل الذي يملك هذا المكان يجمع كل أنواع النفايات. تعالَ وألقِ نظرة عليها.»

همس بيراجوف: «هياكل عظمية! هياكل عظمية بشرية! أوه، لا يروق لي هذا!»

رغم ذلك تبِعني حول الحجرة وأخذ يُحملق باضطرابٍ في صندوق الجماجم بينما مررنا به. رافقته السير ببطء بطول الصندوق المُعلَّق على الجدار وأخذ هو يُحدِّق في الأجسام البيضاء الساكنة التي كان عددها أربعةً وعشرين، وكان صوت ارتجافه مسموعًا بوضوح. حريٌّ بي أن أُقرَّ بأن مظهرها في ذلك الضوء الضعيف كان مثيرًا للذهول؛ كان وضعها طبيعيًّا ووجوهها مُعبِّرة للغاية وهي تتجسَّد عليها ظلال عريضة. كنت مسرورًا للغاية من تأثيرها عليه.

شهِق بيراجوف وقال: «لكنها مُرعبة! تبدو لي على قيد الحياة. تبدو وكأنها تنظر إليَّ — وتقول: «تعالَ هنا: تعالَ وابقَ معنا.» أوه، إنها مريعة! لنغادر هذا المكان بعيدًا عنها.»

ثم تسلَّل على أطراف أصابعه نحو الجانب الآخر من الحجرة ووقف يرتجف بوضوح؛ كان يرتجف لرؤية مجموعة من العظام الجافة. كان الأمر مدهشًا. لطالما حيَّرني الخوف الغريب والخرافي الذي ينظر به هؤلاء الناس الجهلة إلى تلك الأشياء الجميلة والمُثيرة للاهتمام. لكن بالتأكيد كانت تلك حالة متطرفة. لدَينا هنا صعلوكٌ بائس على استعدادٍ ودون تردُّد لأن يقتل امرأةً يافعة وجميلة، ويضحك عندما يتذكَّر تلك الحادثة الشنيعة. بينما في واقع الأمر هو مرعوب لرؤية بضع قطعٍ غير منتظمة الشكل ومصنوعة من فوسفات الجير والجيلاتين. أقولها مرةً أخرى، كان الأمر مدهشًا.

ولم يستفِق بيراجوف من هذه الحالة إلا ليتحوَّل إلى الشراسة التي يتميَّز بها الأشرار الخائفون.

فسأل ملحًّا: «أين هي تلك الأشياء أيها الأحمق؟ أرِني إياها بسرعة وإلا قطعتُ رقبتك. أسرع! لنحصل عليها ونُغادر.»

راقبتُه بحذَر. فأولئك المجرمون السلافيون يُشبهون القطط المرعوبة حين يدخلون في حالة من الذُّعر؛ حيث يكون من الخطورة الشديدة أن تقترب منهم وقتها. إذ كلما زاد خوفهم زادت خطورتهم. لا بد أن أستمرَّ في مراقبته والحذَر منه.

فقلت له: «أستطيع فتْحَ إحدى الخزائن.»

«افتحها إذن أيها الخنزير! افتحها بسرعة! أريد أن أغادر هذا المكان!»

عبس بيراجوف في وجهي وكأنه قردٌ غاضب، واقتدتُه إلى الخزانة السرِّية. وبينما أنا أدير المزالج الخفيَّة بتأنٍّ شديد وأستعدُّ لخلع اللوح، فكَّرت في أن الوقت ربما لم يَحِن بعدُ للشروع في استخدام التجهيزات. لأنني أعددتُ مفاجأةً صغيرة لبيراجوف، وكنتُ أشكُّ الآن في طريقة استقباله لها. أضِف إلى ذلك أنني لم أكن أستمتِع بتكشُّف الأحداث بقدْرِ ما كنت أتوقَّع. كان فقدان بيراجوف لرباطة جأشه أمرًا مقلقًا.

رغم هذا، أزلتُ اللوح ووقفتُ جانبًا لأشاهد النتيجة. نظر بيراجوف إلى داخل الخزانة وغمغم بشيءٍ ينمُّ عن خيبة الأمل.

«لا يُوجَد شيء بها سوى كتبٍ وهذه الصناديق. أنزِلِ الصناديق، أيها الخنزير، ودعني أرى ما فيها.»

رفعتُ الصناديق من فوق الرف.

وقلت: «إنها في غاية الخفَّة. وها هما مسدَّسان فوقها.»

هذان المسدسان كانا هما المفاجأة التي أعددتُها بشيءٍ من تعمُّد الأذى. كنت قد أخذتهما من جيوب العينتَين الأخيرتَين واحتفظتُ بهما من أجل النقوش التي نقشها هذان الحقيران على عقبيهما.

صاح بيراجوف: «مُسدسان! دعني أُلقي نظرة عليهما.» ثم اختطف السلاحَين من فوق الصناديق وأخذهما ناحية المصباح. وحينها سمعت على الفور شهقةً تنمُّ عن الذهول.

«يا إلهي! هذا أمر عجيب! هذا هو مُسدس لويس بلوتكوفيتش! والآخر هذا ملك لبوريس سلوبودنسكي! كانا هما أيضًا ها هنا!»

ثم حدَّق فيَّ بفم فاغر، وهو مُمسك بالمسدسَين كلٌّ في يدٍ مرتعشة — وكنت قد أزلت منهما الرصاص. كان يفقد القليل المُتبقي من رِباطة جأشه بسرعة.

وضعتُ الصناديق على طاولة صغيرة وأضأت المصباح الذي كان مُعلَّقًا فوقها على علوٍّ منخفض. وفوق الطاولة نحو السقف كانت هناك إحدى العوارض المُتقاطعة. ومن تلك العارضة كانت هناك رافعتان ذواتا بكراتٍ معلَّقتان. وينتهي ذيل حبل كلٍّ منهما بأنشوطةٍ معلَّقة على خطَّاف على الحائط، وكان الحبلان مُعلَّقَين على خطافَين آخرين. لكن لم يكن أيٌّ من هذه الأشياء ظاهرًا. كان المصباح المُظلل يلقي بضوئه على الطاولة فقط.

اجتاز بيراجوف الحجرة ووضع المُسدَّسين.

وقال بفظاظة: «افتح هذه الصناديق ودعنا نرى ما فيها.»

أزلتُ غطاء أحدِها؛ ففزع بيراجوف وهو يشهق وجفل نحو الخلف، لكنه عاد وأخذ يشمُّ في الصندوق وكأنه حيوان مرعوب.

وتساءل بنبرةٍ هامسة وخشنة: «ما هذه الأشياء بحق الجحيم؟»

أجبته: «تبدو كرءوس دمًى.»

همس مرتجفًا: «بل تبدو كرءوس رجالٍ قتلى، بَيْدَ أنها في غاية الصغر. إنها مثيرة للفزع! وهذا الرجل الذي يهوى تجميع هذه الأشياء، إنه لشيطان. أرغب في قتله.» أخذ يُحدق باندهاشٍ يخالطه الرعب في المستحضرات الجافة الصغيرة — كان ثمَّة ثمانية منها في هذا الصندوق، كلٌّ منها في قسمه الصغير من المُخمل الأسود، وعلى الملصق كان رقم المُستحضر والتاريخ مُدوَّنين. ثم فتحت الصندوق الثاني — وكان يحتوي على ثمانية رءوس أيضًا — وراح هو يُحدِّق فيه أيضًا بنفس الاندهاش المشوب بالرعب والارتجاف.

همس لي قائلًا: «في ظنك، ماذا تعني هذه التواريخ؟»

فأجبتُه: «أظن أنها تواريخ الحصول على هذه العينات. هذا صندوق آخر.» كان من المفترض أن يحويَ هذا الصندوق الأخير تسعة رءوس، لكنه احتوى على ثمانية فقط — في الوقت الراهن. كان ثمَّة قسم فارغ من المُخمل الأحمر في وسط الصندوق، وعلى كِلا جانبَيه كان رأسَا العينتَين الأخيرتَين اللتان تحملان رقمَي ٢٣ و٢٤.

أزلتُ الغطاء وتراجعتُ خطوة لأرى ما سيحدث.

حملق بيراجوف بالصندوق من دون أن يتحدَّث لنحو ثانيتَين أو ثلاث. ثم أطلق صيحةً مفاجئة. وقال: «إنه بوريس! هذا بوريس وهذا لويس بلوتكوفيتش!»

تيبَّس الرجل في مكانه. وقف جاسئًا ويداه على فخذَيه وهو يميل نحو الصندوق، وقد انتصب شَعره ووجهه الشاحب يتصبَّب عَرقًا وفمه فاغر؛ كان تجسيدًا حيًّا لمشاعر الهلع. وفجأة بدأ يرتعش بعُنف.

نظرت إليه باشمئزازٍ وشعور فوري بالنفور. ماذا الآن! هل ينبغي أن أستدعي كلَّ تلك الأدوات التي أتقنتُ تحضيرها من أجل قتل شخصٍ بائس ومرتعش كهذا؟ كلا، لن أفعل. المربات وحدَه سيفي بالغرَض. كلَّا، المربات أفضل من أن أستخدِمه.

مددتُ يدي خلف ظهري ورفعت أنشوطة من فوق خطافها. كاد وزنها يُغلق الحلقة؛ لأن العُقفة المعدنية المربوطة في طرفها انسالت بسهولة وسلاسة شديدتَين على الحبل المُشحَّم بعناية. فتحتُ الحلقة على اتساعها وملتُ على بيراجوف من خلفه وبهدوء مررتُها على كتفَيه ثم سحبتُها لأُحكم الوَثاق حين كانت عند مستوى مرفقَيه. قفز بيراجوف لأعلى، لكن في تلك اللحظة ركلتُ إحدى قدمَيه ودفعتُه إلى الجانب غير المدعوم، وحينها سقط مُمددًا على وجهه. ثم سحبت الحبل سحبةً أخرى، وبينما كافح هو من أجل أن ينتصِب واقفًا، انتزعتُ حبل الرافعة من خطَّافه وجريتُ به وكنتُ أجذب الحبل في طريقي. ثم نظرت إلى الخلف فرأيتُ بيراجوف يرتفع ببطءٍ مع جذب الرافعة له لأعلى حتى انتصب، وكانت قدمُه تلامس الأرض بصعوبة. حينها ثبتُّ الحبل في واحد من مِرْبطَين واقتربت منه.

حتى هذه اللحظة، كان الذهول قد عقد لسانه، لكنه صاح صيحةً تنمُّ عن الرعب بينما اقتربتُ منه. وهذا أمرٌ غير مُناسب أبدًا. فأخذت الكمامة من المكان الذي خبَّأتها فيه لتكون جاهزة للاستخدام، وأتيتُ من خلفه ووضعتُها على فمه وربطتها، وكنت أحاول تفادي محاولاته لعضِّي. كانت الكمامة رديئة — حيث لم يكن بها قطعة لتكميم اللسان — لكنها أدَّت الغرض المطلوب منها، حيث خفَّفت صيحاته إلى مجرد زمجرة مكتومة لا تُسمَع من الخارج.

والآن وقد صار هذا البائس الشقي مكبَّلًا ومُكممًا ومغلوبًا على أمره، وجدتُ سريرتي تحثُّني أن أُنهي المسألة بسرعة. لكن ثمَّة أمور شكلية ينبغي مراعاتها. فهذه عملية إعدام. فوقفت أمام أسيري وخاطبته.

«استمع لي يا بيراجوف.» ولمَّا سمِع اسمه توقَّف عن الزمجرة وحدَّق بي، فأكملت مقالي: «قبل عشرين عامًا أتى لصٌّ إلى هذا المنزل. كان في غرفة الطعام في الثانية صباحًا ويستعدُّ لسرقة الأواني الفضية. ثم أتت سيدة إلى الحجرة وأعاقت عمله. حاول هو أن يمنعها من دقِّ الجرس. لكنها تمكَّنت من دقه؛ فأطلق عليها النار وأرداها قتيلة. لا حاجة

إلى أن أُخبرك يا بيراجوف مَن كان ذلك اللص. لكنني سأُخبرك مَن أكون أنا. أنا زوج تلك السيدة. ظللتُ أبحث عنك طوال عشرين عامًا، والآن صرتَ في قبضتي؛ ولا بد أن تلقى جزاء تلك الجريمة.»

ولما توقَّفت عن الحديث شرع يغمغم من جديد. أخذ يهزُّ رأسه يمينًا وشمالًا والدموع تنهمِر على وجهه الشنيع. كان الأمر فظيعًا. كنتُ أرتجف أنا نفسي من رأسي وحتى أخمص قدمي، فأخذتُ الأنشوطة الثانية ومررتُها من فوق رأسه وعدَّلتها بسرعة. ثم جذبت الحبل الثاني وسِرتُ به وأنا أجمع الجزء الباقي من الحبل. ومع زيادة الضغط على الحبل في يدي توقَّفَت غمغمته فجأة. لكنني لم أنظر إلى الخلف قط. ظللت أشدُّ الحبل حتى شعرتُ بالبكرتَين تجتمِعان إحداهما مع الأخرى. فثبتُّ الحبل في المربط الآخر وربطته مع الحبال الأخرى على شكل نصف عقدة. ثم خرجتُ من المتحف وأغلقت الباب.

كان الأمر مختلفًا تمامًا عما كنتُ أتوقَّع. وبينما كنت جالسًا إلى طاولة المختبر ورأسي مدفون بين يديَّ، كنت أرتجف وكأني أعاني الحمَّى؛ كان جسمي غارقًا في عَرق بارد وشعرتُ أنني سأستريح لو بكيت. كنت في حالة ذهول من نفسي. لقد أفنيت أربعةً وعشرين من هؤلاء الهوام بقلبٍ صافٍ ومرتاح؛ لأني كنتُ أُسدد الضربة القاتلة في خضم النزاع؛ والآن، ولأن هذا البائس كان مغلوبًا على أمره ومعدوم المقاومة، كنتُ على وشْك الانهيار من الجهد الذي بذلتُه في قتله.

جلست في المختبر المُظلم أستعيد وأتأمل على مهلٍ السنواتِ الطويلةَ التي مرَّت منذ سلبني ذلك الوغد حبيبتي. زاد هدوئي تدريجيًّا بمرور الوقت. لكن مرَّت ساعة كاملة قبل أن أتمكَّن من استحضار العزم للعودة إلى المتحف وطمأنة نفسي أن الدَّين المُستحقَّ منذ فترةٍ طويلة قد سُدد أخيرًا حتى آخر فلس.

وفي صباح يوم الإثنين سحبتُ من حسابي البنكي مائة جنيه على هيئة أوراق نقدية، وسلَّمتها إلى أرملة مالك منزلي ومحلي — كان السيد ناثان قد مات قبل عدة سنوات — مع تنازلٍ منِّي عن المحل والمنزل الكائنَين بشارع سول. وأفرغت الخزنة وأخذت معي من أشيائي ما أردتُ الاحتفاظ به، وتركت الباقي للسيدة ناثان. ثم حلَقتُ لحيتي الرثة وشاربي الأبيض وجهَّزت منزلي في بلومزبيري، وصرفتُ معاشًا إلى الحارس (الذي صار الآن رجلًا عجوزًا) وعيَّنتُ مجموعة من الخَدَم الشرفاء وذوي السمعة الحسنة. وحين انتهيتُ من العينة الأخيرة ووضعتها في مكانها في المتحف، كان عملي قد اكتمل. وليس أمامي الآن سوى انتظار النهاية. إني أنتظرها الآن وآمُل ألا ينفد صبري.

ثمَّة شيء يُحدثني أنني لن أنتظر طويلًا. أحاسيس مُعينة جديدة وغريبة ناقشتُها مع صديقي الدكتور وارتون، يبدو أنها تحمل بشائرَ التغيير. وارتون يستخفُّ بها، لكنني أظنُّ وآمُل أنه مُخطئ. هذا الأمل يكفيني ويُرضيني؛ أن أعتقد أنني سأسمع عما قريب أصواتَ ناقوس الغروب تتسلل وسط ضباب المساء وتُعلن لي أن اليوم قد انتهى وأن شرارتي الصغيرة ستخبو.»

هنـــداوي